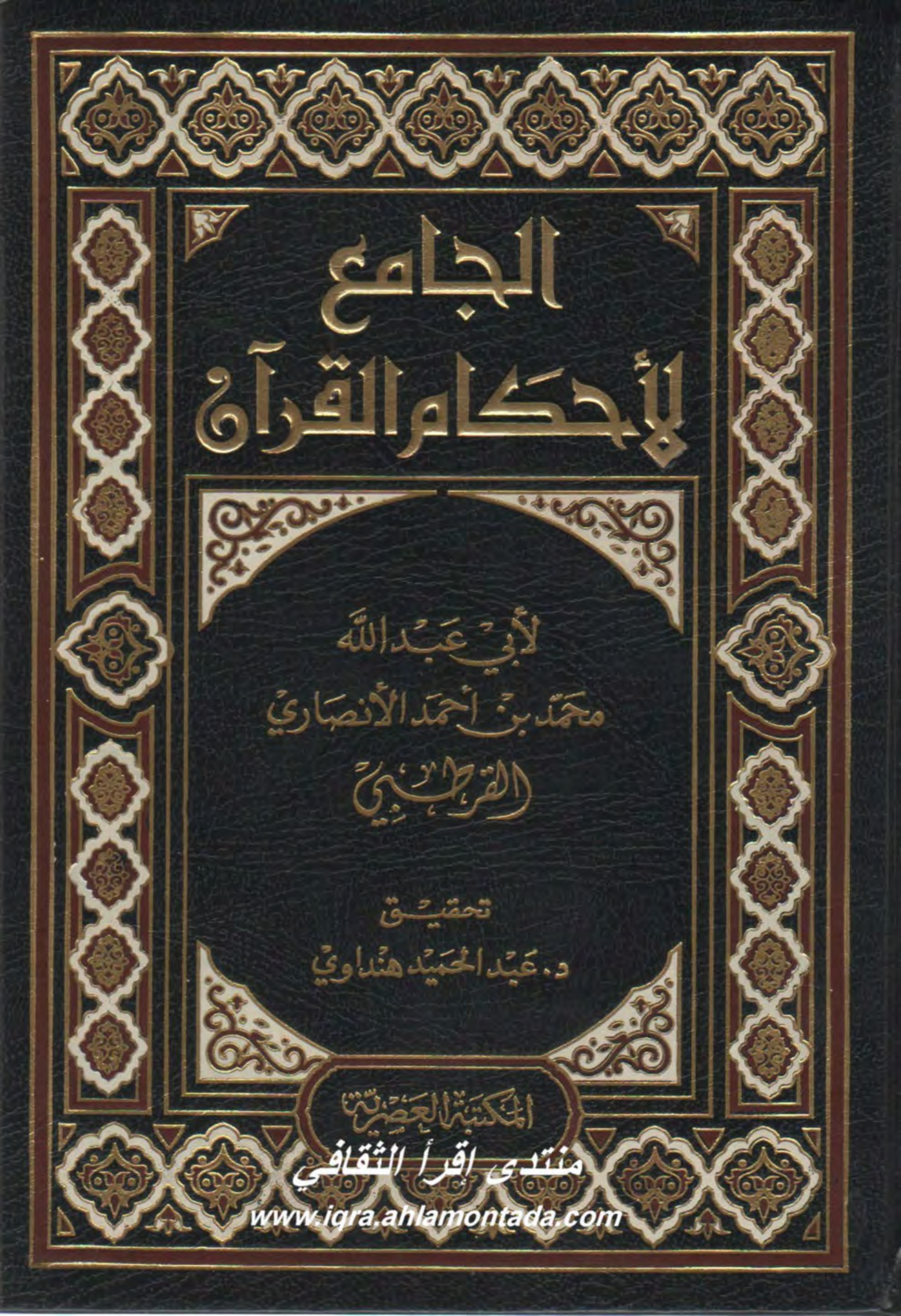

الجامع
لأحكام القرآن
لأبي عبد الله
محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي
تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي
المكتبة العصرية
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي

المجلد العاشر





شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
230195 07 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

2016 - 1437 هـ

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
alassrya.com

ISBN 978-614-414-942-3

9 786144 149423

ISBN 978-614-414-942-3

سورة الجن

مكيّة في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قل أوحي إلي ﴾ أي قل يا محمد لأمتك: أوحى الله إلي على لسان جبريل ﴿ أنه استمع ﴾ إلي ﴿ نفر من الجن ﴾ وما كان ﷺ عالما به قبل أن أوحى إليه. هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي. وقرأ ابن أبي عبلة "أحي" على الأصل؛ يقال: أوحى إليه ووحى، فقلبت الواو همزة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ (المرسلات: ١١) وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة. وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة و"إعاء أخيه" ونحوه.

الثانية: واختلف هل رآهم النبي ﷺ أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى: "استمع"، وقوله تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ (الأحقاف: ٢٩). وفي صحيح مسلم والترمذي عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم؛ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر؛ فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: "إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا" فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: "قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن"[1]: رواه الترمذي عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم: "لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا" قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: تعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿ لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ (الجن: ١٩). قال: هذا حديث حسن صحيح؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه ﷺ لم ير الجن ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رموا بالشهب. وكان المرميون بالشهب من الجن أيضا.

وقيل لهم شياطين كما قال: ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ (الأنعام: ١١٢) فإن الشيطان كل متمرد وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما الكلمة فتكون حقا، وأما ما زادوا فيها فيكون

(١) أخرجه البخاري في "الأذان"، (٧٧٣)، وفي غير موضع، ومسلم (٤٤٩).

باطلا. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لـهم إبليس: ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث في الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلي بين جبلين ـ أراه قال بمكة ـ فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدل هذا الحديث على أن الجن رموا كما رميت الشياطين. وفي رواية السدي: أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال: ايتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة. فبعث نفرا من الجن، قيل: كانوا سبعة. وقيل: تسعة منهم زوبعة. وروى عاصم عن زر قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي ﷺ. وقال الثمالي: بلغني أنهم من بني الشيصبان، وهم أكثر الجن عددًا، وأقواهم شوكة، وهم عامة جنود إبليس. وروى عاصم أيضا عن زر: أنهم كانوا سبعة نفر؛ ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين. وحكى جويبر عن الضحاك: أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين (قرية باليمن غير التي بالعراق). وقيل: إن الجن الذين أتوا مكة جن نصيبين، والذين أتوه بنخلة جن نينوى. وقد مضى بيان هذا في سورة (الأحقاف). قال عكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ (العلق: ١) وقد مضى في سورة "الأحقاف" التعريف باسم النفر من الجن، فلا معنى لإعادة ذلك.

وقيل: إن النبي ﷺ رأى الجن ليلة الجن وهو أثبت؛ روى عامر الشعبي قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم؛ فقال: (أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن) فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة، فقال: (لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم ـ فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجن)[1] قال ابن العربي: وابن مسعود أعرف من ابن عباس؛ لأنه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة. وقد قيل: إن الجن أتوا رسول الله ﷺ دفعتين: إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس. قال البيهقي: الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي ﷺ وعلمت بحالـه، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود. قال البيهقي: والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبي ﷺ ليلة الجن، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجن وآثار نيرانهم. قال: وقد روي من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ، وقد مضى هذا المعنى في سورة "الأحقاف" والحمد لله. روي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: (أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب معي؟) فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم

---

(١) أخرجه مسلم في "الصلاة"، (٤٥٠).

قال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب أبي دب فخط علي خطا فقال: (لا تجاوزه) ثم مضى إلى الحجون فانحدر عليه أمثال الحجل يحدرون الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها، حتى غشوه فلا أراه، فقمت فأومى إلي بيده أن أجلس، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم، فلما انفتل إلي قال: (أردت أن تأتيني)؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: (ما كان ذلك لك، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن، ثم ولوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يستطيبن أحدكم بعظم ولا بعر).

قال عكرمة: وكانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الموصل. وفي رواية: انطلق بي ﷺ حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خط لي خطا، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزط وكأن وجوههم المكاكي، فقالوا: ما أنت؟ قال: (أنا نبي الله) قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: (هذه الشجرة) فقال: (يا شجرة) فجاءت تجر عروقها، لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه، فقال: (على ماذا تشهدين) قالت: أشهد أنك رسول الله. فرجعت كما جاءت تجر بعروقها الحجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت[١].

ثم روي أنه ﷺ لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال: (هل من وضوء) قال: لا، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ. فقال: (هل هو إلا تمر وماء) فتوضأ منه[٢].

الثالثة: قد مضى الكلام في الماء في سورة "الحجر" وما يستنجى به في سورة "براءة" فلا معنى للإعادة.

الرابعة: واختلف أهل العلم، في أصل الجن؛ فروى إسماعيل عن الحسن البصري: أن الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان. وروى الضحاك عن ابن عباس: أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين، وهم يؤمنون؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. واختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة، على حسب الاختلاف في أصلهم. فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم. ومن قال: إنهم من ذرية إبليس فلهم فيه قولان: أحدهما: وهو قول الحسن يدخلونها. الثاني: وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. حكاه الماوردي. وقد مضى في سورة "الرحمن" عند قوله تعالى: ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ (الرحمن: ٥٦) بيان أنهم يدخلونها.

الخامسة: قال البيهقي في روايته: وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال: (لكم كل عظم) دليل على أنهم يأكلون ويطعمون. وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، وقالوا: إنهم

---

(١) أخرجه الترمذي في "الأمثال"، (٢٨٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (١/ ٩) وسنده ضعيف.

بسائط، ولا يصح طعامهم؛ اجتراء على الله وافتراء، والقرآن والسنة ترد عليهم، وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج، إنما الواحد الواحد سبحانه، وغيره مركب وليس بواحد كيفما تصرف حاله. وليس يمتنع أن يراهم النبي ﷺ في صورهم كما يرى الملائكة. وأكثر ما يتصورون لنا في صور الحيات؛ ففي الموطأ: أن رجلا حديث عهد بعرس استأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله. . . الحديث، وفيه: فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها[1]. وذكر الحديث. وفي الصحيح أنه ﷺ قال: (إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئا فحرجوا عليها ثلاثا، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر). وقال: (اذهبوا فادفنوا صاحبكم)[2] وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" وبيان التحريج عليهن. وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة؛ لقوله في الصحيح: (إن بالمدينة جنا قد أسلموا). وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها. قلنا: هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها؛ لأنه لم يعلل بحرمة المدينة، فيكون ذلك الحكم مخصوصا بها، وإنما علل بالإسلام، وذلك عام في غيرها، ألا ترى قوله في الحديث مخبرا عن الجن الذي لقي: (وكانوا من جن الجزيرة)؛ وهذا بيِّن يعضده قوله: (ونهى عن عوامر البيوت) وهذا عام. وقد مضى في سورة (البقرة) القول في هذا فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ أي في فصاحة كلامه. وقيل: عجبا في بلاغة مواعظه. وقيل: عجبا في عظم بركته. وقيل: قرآنا عزيزا لا يوجد مثله. وقيل: يعنون عظيما. ﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ أي إلى مراشد الأمور. وقيل: إلى معرفة الله تعالى؛ و"يهدي" في موضع الصفة أي هاديا. ﴿ فآمنا به ﴾ أي فاهتدينا به وصدقنا أنه من عند الله ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر، ثم رمي الجن بالشهب. وقيل لا نتخذ مع الله إلها آخر؛ لأنه المتفرد بالربوبية. وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجن بتدبرها القرآن. وقوله تعالى: "استمع نفر من الجن" أي استمعوا إلى النبي ﷺ فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله. ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه. والنفر الرهط؛ قال الخليل: ما بين ثلاثة إلى عشرة. وقرأ عيسى الثقفي "يهدي إلى الرَّشَد" بفتح الراء والشين.

قوله تعالى: ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ كان علقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف وحفص والسلمي ينصبون "أن" في جميع السورة في اثني عشر موضعا، وهو: "أنه تعالى جد ربنا"، "وأنه كان يقول"، "وأنا ظننا"، "وأنه كان رجال"، "وأنهم ظنوا"، "وأنا لمسنا السماء"، "وأنا كنا نقعد"، "وأنا لا ندري"، "وأنا منا الصالحون"، "وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض"، "وأنا لما سمعنا الهدى"، "وأنا منا المسلمون" عطفا على قوله: "أنه استمع نفر"، و"أنه استمع" لا يجوز فيه إلا الفتح؛ لأنها في موضع اسم فاعل "أوحي" فما بعده معطوف عليه. وقيل: هو محمول على الهاء في "آمنا به"، أي و"بأنه تعالى جد ربنا" وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار

(١)أخرجه مسلم في "السلام"، (٢٢٣٦).

(٢)السابق.

مع "أن". وقيل: المعنى أي وصدقنا أنه جد ربنا. وقرأ الباقون كلها بالكسر وهو الصواب، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفا على قوله: "فقالوا إنا سمعنا" لأنه كله من كلام الجن. وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع؛ وهي قوله تعالى: "وأنه تعالى جد ربنا"، "وأنه كان يقول"، "وأنه كان رجال"، قالا: لأنه من الوحي، وكسرا ما بقي؛ لأنه من كلام الجن. وأما قوله تعالى: ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ (الجن: ١٩). فكلهم فتحوا إلا نافعا وشيبة وزر بن حبيش وأبا بكر والمفضل عن عاصم، فإنهم كسروا لا غير. ولا خلاف في فتح همزة "أنه استمع نفر من الجن"، "وأن لو استقاموا" "وأن المساجد لله"، و"أن قد أبلغوا". وكذلك لا خلاف في كسر ما بعد القول؛ نحو قوله تعالى: ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ و﴿ قال[1] إنما أدعو ربي ﴾ (الجن: ٢٠) و﴿ قل إن أدري ﴾ (الجن: ٢٥) و﴿ قل إني لا أملك ﴾ (الجن: ٢١). وكذلك لا خلاف في كسر ما كان بعد فاء الجزاء؛ نحو قوله تعالى: ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ (الجن: ٢٣) و﴿ فإنه يسلك من بين يديه ﴾ (الجن: ٢٧). لأنه موضع ابتداء.

قوله تعالى: ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ الجد في اللغة: العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد في عيوننا؛ أي عظم وجل. فمعنى: "جد ربنا" أي عظمته وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة. وعن مجاهد أيضا: ذكره. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا: غناه. ومنه قيل للحظ جد، ورجل مجدود أي محظوظ؛ وفي الحديث: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[2] قال أبو عبيدة والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة. وقال ابن عباس: قدرته. الضحاك: فعله. وقال القرظي والضحاك أيضا: آلاؤه ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة والأخفش ملكه وسلطانه. وقال السدي: أمره. وقال سعيد بن جبير: "وأنه تعالى جد ربنا" أي تعالى ربنا. وقيل: إنهم عنوا بذلك الجد الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجن. وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جد، وإنما قالته الجن للجهالة، فلم يؤاخذوا به. وقال القشيري: ويجوز إطلاق لفظ الجد في حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن، غير أنه لفظ موهم، فتجنبه أولى. وقراءة عكرمة "جَدَاً" بكسر الجيم: على ضد الهزل. وكذلك قرأ أبو حيوة ومحمد بن السميقع. ويروى عن ابن السميقع أيضا وأبي الأشهب "جدا ربنا"، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة أيضا "جَدَاً" بالتنوين "ربنا" بالرفع على أنه مرفوع بـ"تعالى"، و"جدا" منصوب على التمييز. وعن عكرمة أيضا "جد" بالتنوين والرفع "ربنا" بالرفع على تقدير: تعالى جد جد ربنا؛ فجد الثاني بدل من الأول وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه. ومعنى الآية: وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما، والرب يتعالى عن الأنداد والنظراء.

---

(١) هكذا في قراءة نافع، وقراءة حفص (قل).

(٢) أخرجه البخاري في "الدعوات"، (٦٣٣٠)، ومسلم (٥٩٣).

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ﴾ الهاء في "أنه" للأمر أو الحديث، وفي "كان" اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون "كان" زائدة. والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ. وقيل: المشركون من الجن: قال قتادة: عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس. والشطط والاشتطاط: الغلو في الكفر. وقال أبو مالك: هو الجور. الكلبي: هو الكذب. وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق؛ قال الشاعر:

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يممك الوخط

قوله تعالى: ﴿ وأنا ظننا ﴾ أي حسبنا ﴿ أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولدا، حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق.

وقرأ يعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق "أن لن تقوَّل". وقيل: انقطع الإخبار عن الجن ها هنا فقال الله تعالى: ﴿ وأنه كان رجال من الإنس ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجن ردها إلى قوله: ﴿ أنه استمع ﴾ (الجن: ١)، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بواد: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه؛ فيبيت في جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما. قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم. وقال كردم بن أبي السائب: خرجت مع أبي إلى المدينة أول ما ذكر النبي ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حملا من الغنم، فقال الراعي: يا عامر الوادي، "أنا" جارك. فنادى مناد يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿ وأنه كان رجال من الإنس. يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ أي زاد الجن الإنس "رهقا" أي خطيئة وإثما؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. والرهق: الإثم في كلام العرب وغشيان المحارم؛ ورجل رهق إذا كان كذلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ (يونس: ٢٧) وقال الأعشى:

لا شـــيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتفي وامق ما لم يصب رهقا

يعني إثما. وأضيفت الزيادة إلى الجن إذ كانوا سببا لها. وقال مجاهد أيضا: "فزادوهم" أي إن الإنس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ، حتى قالت الجن: سدنا الإنس والجن. وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فرقا وخوفا من الجن. وقال سعيد بن جبير: كفرا. ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك. وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجن؛

فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا: أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادي. قال القشيري: وفي هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجن.

قوله تعالى: ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس أي وأن الجن ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم. الكلبي: المعنى: ظنت الجن كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يقيم به الحجة عليهم. وكل هذا توكيد للحجة على قريش؛ أي إذا آمن هؤلاء الجن بمحمد، فأنتم أحق بذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ هذا من قول الجن؛ أي طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فوجدناها ﴾ قد ﴿ ملئت حرسا شديدا ﴾ أي حفظة، يعني الملائكة. والحرس: جمع حارس ﴿ وشهبا ﴾ جمع شهاب، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع. وقد مضى القول فيه في سورة "الحجر" "والصافات". و"وجد" يجوز أن يقدر متعديا إلى مفعولين، فالأول الهاء والألف، و"ملئت" في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن يتعدى إلى مفعول واحد ويكون "ملئت" في موضع الحال على إضمار قد. و"حرسا" نصب على المفعول الثاني بـ"ملئت". و"شديدا" من نعت الحرس، أي ملئت ملائكة شدادا. ووحد الشديد على لفظ الحرس؛ وهو كما يقال: السلف الصالح بمعنى الصالحين، وجمع السلف أسلاف وجمع الحرس أحراس؛ قال:

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر

ويجوز أن يكون "حرسا" مصدرا على معنى حرست حراسة شديدة.

قوله تعالى: ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ "منها" أي من السماء، و"مقاعد": مواضع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء؛ يعني أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدم بيانه، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشهب المحرقة، فقالت الجن حينئذ: "فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا" يعني بالشهاب: الكوكب المحرق؛ وقد تقدم بيان ذلك. ويقال: لم يكن انقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي ﷺ وهو آية من آياته. واختلف السلف هل كانت الشياطين تقذف قبل المبعث، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبي ﷺ؟ فقال الكلبي وقال قوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه: خمسمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحرست بالملائكة والشهب.

قلت: ورواه عطية العوفي عن ابن عباس؛ ذكره البيهقي. وقال عبد الله بن عمر: لما كان اليوم الذي نبئ رسول الله ﷺ منعت الشياطين، ورموا بالشهب، وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت عن الدنو من السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب. ونحوه عن أبي بن كعب قال: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى نبئ رسول الله ﷺ فرمي بها. وقيل: كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذارا بحاله؛ وهو معنى قوله تعالى: "ملئت" أي زيد في حرسها؛ وقال أوس بن حجر وهو جاهلي:

فانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

وهذا قول الأكثرين. وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال: كل شعر روي فيه فهو مصنوع، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث. والقول بالرمي أصح؛ لقوله تعالى: ﴿ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ﴾ وهذا إخبار عن الجن، أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم؛ ولما روي عن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم؛ فقال: (ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية﴾؟ قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبي ﷺ: (إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا في السماء سبح حملة العرش ثم سبح أهل كل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه، فتتخطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه)[1] وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث. وروى الزهري نحوه عن علي بن الحسين عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس. وفي آخره قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله سبحانه: "وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا" قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ. ونحوه قال القتبي. قال ابن قتيبة: كان ولكن اشتدت الحراسة بعد المبعث؛ وكانوا من قبل يسترقون ويرمون في بعض الأحوال، فلما بعث محمد ﷺ منعت من ذلك أصلا. وقد تقدم بيان هذا في سورة "الصافات" عند قوله: ﴿ ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب ﴾ (الصافات: ٨ ـ ٩) قال الحافظ: فلو قال قائل: كيف تتعرض الجن لإحراق نفسها بسبب استماع خبر، بعد أن صار ذلك معلوما لهم؟ فالجواب: أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة، كما ينسى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم، وأن الله تعالى قال له: ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (الحجر: ٣٥) ولولا هذا لما تحقق التكليف. والرصد: قيل من الملائكة؛ أي ورصدا من الملائكة.

والرصد: الحافظ للشيء والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعا كالحرس، والواحد: راصد. وقيل: الرصد هو الشهاب، أي شهابا قد أرصد له، ليرجم به؛ فهو فعل بمعنى مفعول كالخبط والنفض.

---

(١) أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (٨/ ١٣٨)، وأصله في الصحيح.

قولـه تعالى: ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿ أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ أي خيراً. قال ابن زيد. قال إبليس لا ندري، هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا. وقيل: هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ. أي لا ندري أشر أريد بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؛ فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي. وقيل: لا؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا: إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم يؤمنون؟

قولـه تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ هذا من قول الجن، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون. وقيل: "ومنا دون ذلك" أي ومن دون الصالحين في الصلاح، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك. ﴿ كنا طرائق قددا ﴾ أي فرقا شتى؛ قاله السدي. الضحاك: أديانا مختلفة. قتادة: أهواء متباينة؛ ومنه قول الشاعر:

القابض الباسط الهادي بطاعته فـي فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى: أي لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال السدي في قولـه تعالى: "طرائق قددا" قال: في الجن مثلكم قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية. وقال قوم: أي وإنا بعد استماع القرآن مختلفون: منا المؤمنون ومنا الكافرون. أي ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح. والأول أحسن؛ لأنه كان في الجن من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ﴾ (الأحقاف: ٣٠) وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان. وأيضا لا فائدة في قولـهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر. والطرائق: جمع الطريقة وهي مذهب الرجل، أي كنا فرقا مختلفة. ويقال: القوم طرائق أي على مذاهب شتى. والقدد: نحو من الطرائق وهو توكيد لـها، واحدها: قدة. يقال: لكل طريق قدة، وأصلـها من قد السيور، وهو قطعها؛ قال لبيد يرثي أخاه أربد:

لم تبلغ العين كل نهمتها ليلة تمسـي الجياد كالقدد

وقال آخر:

ولقـد قلت وزيد حاسـر يوم ولت خيل عمرو قددا

والقد بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ؛ ويقال: ما لـه قد ولا قحف؛ فالقد: إناء من جلد، والقحف: من خشب.

قولـه تعالى: ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين، وهو خلاف الظن في قولـه تعالى: ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول ﴾ (الجن: ٥)، ﴿ وأنهم ظنوا ﴾ (الجن: ٧) أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و﴿ هربا ﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين.

قولـه تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأنا لما سمعنا الـهدى ﴾ يعني القرآن ﴿ آمنا به ﴾ وبالله، وصدقنا محمدا ﷺ على رسالته. وكان ﷺ مبعوثا إلى الإنس والجن. قال الحسن: بعث الله محمدا ﷺ إلى الإنس والجن، ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قولـه تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (يوسف: ١٠٩) وقد تقدم هذا المعنى. وفي الصحيح: (وبعثت إلى الأحمر والأسود) أي الإنس والجن.

قولـه تعالى: ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد في سيئاته؛ لأن البخس النقصان

والرهق: العدوان وغشيان المحارم؛ قال الأعشى:

لا شـيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتفي وامق ما لم يصب رهقا

الوامق: المحب؛ وقد وَمِقَه يمقه بالكسر أي أحبه، فهو وامق. وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجن؛ لقوة إيمانهم وصحة إسلامهم. وقراءة العامة "فلا يخاف" رفعا على تقدير فإنه لا يخاف. وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم "فلا يخف" جزما على جواب الشرط وإلغاء الفاء.

قولـه تعالى: ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أي وأنا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنا من أسلم ومنا من كفر. والقاسط: الجائر، لأنه عادل عن الحق، والمقسط: العادل؛ لأنه عادل إلى الحق؛ يقال: قسط: أي جار، وأقسط: إذا عدل؛ قال الشاعر:

قـوم هم قتلوا ابن هند عنوة عمرا وهم قسطوا على النعمان

﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخوه ومنه تحرى القبلة ﴿ وأما القاسطون ﴾ أي الجائرون عن طريق الحق والإيمان ﴿ فكانوا لجهنم حطبا ﴾ أي وقوداً. وقولـه: "فكانوا" أي في علم الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ هذا من قول الله تعالى. أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لـهم في الرزق. وهذا محمول على الوحي؛ أي أوحي إلي أن لو استقاموا. ذكر ابن بحر: كل ما في هذه السورة من "إن" المكسورة المثقلة فهي حكاية لقول الجن الذين استمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما فيها من أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله ﷺ. وقال ابن الأنباري: ومن كسر الحروف وفتح "وأن لو استقاموا" أضمر يمينا تاما، تأويلـها: والله أن لو استقاموا على الطريقة؛ كما يقال في الكلام: والله أن قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ قمتُ؛ قال الشاعر:

أما والله أن لو كنت حـرا وما بالحر أنت ولا العتيق

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها ـ أعني الخفيفة ـ على "أوحي إلي أنه"، "وأن لو استقاموا" أو على "آمنا به" وبأن لو استقاموا. ويجوز لمن كسر الحروف كلـها إلى "أن" المخففة، أن يعطف المخففة على "أوحي إلي" أو على "آمنا به"، ويستغني عن إضمار اليمين. وقراءة العامة بكسر الواو من "لو" لالتقاء الساكنين، وقرأ ابن وثاب والأعمش بضم الواو. و﴿ ماء غدقا ﴾ أي واسعا كثيرا، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين؛ يقال: غدقت العين تغدق، فهي غدقة، إذا كثر ماؤها. وقيل: المراد الخلق كلـهم أي "لو استقاموا على الطريقة" طريقة الحق والإيمان والـهدى وكانوا مؤمنين مطيعين "لأسقيناهم ماء غدقا" أي كثيرا ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم. وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى "لأسقيناهم" لوسعنا عليهم في الدنيا؛ وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا؛ لأن الخير والرزق كلـه بالمطر يكون، فأقيم مقامه؛ كقولـه تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (الأعراف: ٩٦) وقولـه تعالى: ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلـهم ﴾ (المائدة: ٦٦) أي بالمطر. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن: كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي، ففتنوا بها، فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بن عفان.

وقال الكلبي وغيره: "وأن لو استقاموا على الطريقة" التي هم عليها من الكفر فكانوا كلـهم كفارا لوسعنا أرزاقهم مكرا بهم واستدراجا لـهم، حتى يفتتنوا بها، فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة. وهذا قول قاله الربيع بن أنس وزيد بن أسلـم وابنه والكلبي والثمالي ويمان بن رباب وابن كيسان وأبو مجلز؛ واستدلوا بقولـه تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (الأنعام: ٤٤) الآية. وقولـه تعالى: ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً

من فضه ﴾ (الزخرف: ٣٣) الآية؛ والأول أشبه؛ لأن الطريقة معرفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الـهدى؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الـهدى.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: (بركات الأرض)[1] وذكر الحديث. وقال ﷺ: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)[2].

قولـه تعالى: ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ يعني القرآن؛ قاله ابن زيد. وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما عن القبول، إن قيل إنها في أهل الكفر. الثاني عن العمل، إن قيل إنها في المؤمنين. وقيل: "ومن يعرض عن ذكر ربه" أي لم يشكر نعمه ﴿ يسلكه عذابا صعدا ﴾ قرأ الكوفيون وعياش عن أبي عمرو "يسلكه" بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر اسم الله أولا فقال: "ومن يعرض عن ذكر ربه". الباقون "نسلكه" بالنون. وروي عن مسلم بن جندب ضم النون وكسر اللام. وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان، سلكه وأسلكه بمعنى؛ أي ندخلـه. "عذابا صعدا" أي شاقا شديدا. قال ابن عباس: هو جبل في جهنم. أبو سعيد الخدري: كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت. وعن ابن عباس: أن المعنى مشقة من العذاب. وذلك معلوم في اللغة أن الصعد: المشقة، تقول: تصعدني الأمر: إذا شق عليك؛ ومنه قول عمر: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح، أي ما شق علي. وعذاب صعد أي شديد.

والصعد: مصدر صعد؛ يقال: صعد صعدا وصعوداً، فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. وقال أبو عبيدة: الصعد مصدر؛ أي عذابا ذا صعد، والمشي في الصعود يشق. والصعود: العقبة الكئود. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها؛ فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم. وقال الكلبي: يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا في النار من صخرة ملساء، يجذب من أمامه بسلاسل، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها، ولا يبلغ في أربعين سنة. فإذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلـها، ثم يكلف أيضا صعودها، فذلك دأبه أبدا، وهو قولـه تعالى: ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ (المدثر: ١٧).

قولـه تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وأن المساجد لله ﴾ "أن" بالفتح، قيل: هو مردود إلى قولـه تعالى: ﴿ قل أوحي إلي ﴾ (الجن: ١) أي قل أوحي إلي أن المساجد لله. وقال الخليل: أي ولأن المساجد لله. والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة. وقال سعيد بن جبير: قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك؟ فنزلت: "وأن المساجد لله" أي بنيت لذكر الله وطاعته. وقال

---

(١) أخرجه البخاري في "الرقاق"، (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في "الرقاق"، (٦٤٢٥).

الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلـها مسجد للنبي ﷺ، يقول: (أينما كنتم فصلوا فأينما صليتم فهو مسجد)[١] وفي الصحيح: (وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)[٢] .

وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه؛ يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة الله. قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها. وفي الصحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: الجبهة ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين)[٣] . وقال العباس قال النبي ﷺ : (إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب)[٤]. وقيل: المساجد هي الصلوات؛ أي لأن السجود لله. قالـه الحسن أيضا. فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مسجد بكسر الجيم، ويقال بالفتح؛ حكاه الفراء. وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مسجد بفتح الجيم. وقيل: هو جمع مسجد وهو السجود، يقال: سجدت سجودا ومسجدا، كما تقول: ضربت في الأرض ضربا ومضربا بالفتح: إذا سرت في ابتغاء الرزق. وقال ابن عباس: المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسميت مكة المساجد؛ لأن كل أحد يسجد إليها. والقول الأول أظهر هذه الأقوال إن شاء الله، وهو مروي عن ابن عباس رحمه الله.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ لله ﴾ إضـافة تشريف وتكريم، ثم خص بالذكر منها البيت العتيق فقال: ﴿ وطهر بيتي ﴾ (الحج: ٢٦). وقال ﷺ: (لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد)[٥] الحديث خرجه الأئمة. وقد مضى الكلام فيه. وقال ﷺ : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام)[٦] . قال ابن العربي: وقد روي من طريق لا بأس بها أن النبي ﷺ قال: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا)[٧] ولو صح هذا لكان نصاً.

قلت: هو صحيح بنقل العدل عن العدل حسب ما بيناه في سورة "إبراهيم" .

الثالثة: المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفا؛ فيقال: مسجد فلان. وفي صحيح الحديث أن النبي ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق[٨] . وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها في قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا في تحبيس غير ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم بمعناه في "المساجد"، (٥٢٠).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.
(٤) أخرجه مسلم (٤٩١) وغيره.
(٥) أخرجاه في الصحيحين بلفظ: "لا تشد الرحال. . . " .
(٦) أخرجاه في الصحيحين.
(٧) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٣٨٤١).
(٨) أخرجاه في الصحيحين.

الرابعة: مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال. ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل. ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عري عن الباطل. وقد مضى هذا كله مبينا في سورة "براءة". و"النور" وغيرهما.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام. وقال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها. يقول: فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يعبد. وقيل: المعنى أفردوا المساجد لذكر الله، ولا تتخذوها هزوا ومتجرا ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا. وفي الصحيح: (من نشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا)[1] وقد مضى في سورة "النور" ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله.

السادسة: روى الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ: كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى. وقال: (﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار) فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى؛ وقال: (اللهم صب علي الخير صبا ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبدا ولا تجعل معيشتي كدا، واجعل لي في الأرض جدا) أي غنى.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ يجوز الفتح؛ أي أوحى الله إليه أنه. ويجوز الكسر على الاستئناف. و"عبد الله" هنا محمد ﷺ حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، حسب ما تقدم أول السورة. ﴿يدعوه﴾ أي يعبده. وقال ابن جريج: "يدعوه" أي قام إليهم داعيا إلى الله تعالى. ﴿كادوا يكونون عليه لبداً﴾ قال الزبير بن العوام: هم الجن حين استمعوا القرآن من النبي ﷺ. أي كاد يركب بعضهم بعضا ازدحاما ويسقطون، حرصا على سماع القرآن. وقيل: كادوا يركبونه حرصا؛ قاله الضحاك. ابن عباس: رغبة في سماع الذكر. وروى برد عن مكحول: أن الجن بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفا، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر. وعن ابن عباس أيضا: إن هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود. وقيل: المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضا، حردا على النبي ﷺ. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني "لما قام عبد الله" محمد بالدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، وأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره. واختار الطبري أن يكون المعنى: كادت العرب يجتمعون على النبي ﷺ، ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به. وقال مجاهد: قوله

(١) أخرجه مسلم في "المساجد"، (٥٦٨).

"لبدا" جماعات وهو من تلبد الشيء على الشيء أي تجمع؛ ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته، وجمع اللبدة لبد مثل قربة وقرب. ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبد؛ قال زهير:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف لـه لبَد أظفـــاره لـــم تقلَّم

ويقال للجراد الكثير: لبد وفيه أربع لغات وقراءات؛ فتحَ الباء وكسر اللام، وهي قراءة العامة. وضم اللام وفتح الباء، وهي قراءة مجاهد وابن محيصن وهشام عن أهل الشام، واحدتها لُبْدة. وبضم اللام والباء، وهي قراءة أبي حيوة ومحمد بن السميقع وأبي الأشهب العقيلي والجحدري واحدها لَبْد مثل سَقْف وسُقُف ورَهْن ورُهُن. وبضم اللام وشد الباء وفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجحدري أيضا واحدها لابد؛ مثل راكع وركَّع، وساجد وسُجَّد. وقيل: اللبد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم؛ ومنه قيل لنسر لقمان لبد لدوامه وبقائه؛ قال النابغة:

أخنى عليها الذي أخنى على لبد

القشيري: وقرئ "لبدا" بضم اللام والباء، وهو جمع لبيد، وهو الجولق الصغير. وفي الصحاح: وقوله تعالى: "أهلكت مالا لبدا" أي جما.

ويقال أيضا: الناس لبد أي مجتمعون، واللبد أيضا الذي لا يسافر ولا يبرح منزله. قال الشاعر:

من امرئ ذي سماح لا تزال لـه بزلاء يعـيا بهـا الجثامـــة اللبد

ويروى: اللبد. قال أبو عبيد: وهو أشبه.

والبزلاء: الرأي الجيد. وفلان نهاض ببزلاء: إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام؛ قال الشاعر:

إني إذا شغلت قوما فروجهم رحب المسالك نهاض ببزلاء

ولبد: آخر نسور لقمان، وهو ينصرف؛ لأنه ليس بمعدول. وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لـها، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات سمر، من أظب عفر، في جبل وعر، لا يمسها القطر؛ أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختار النسور، وكان آخر نسوره يسمى لبدا، وقد ذكرته الشعراء؛ قال النابغة:

أضحت خلاء وأمسى أهلـها احتملوا أخـنى عـليها الـــذي أخنى على لبد

واللبيد: الجوالق الصغير؛ يقال: ألبدت القربة جعلتها في لبيد. ولبيد: اسم شاعر من بني عامر.

قوله تعالى: ﴿ قال إنما أدعو ربي ﴾ أي قال ﷺ: "إنما أدعو ربي" ﴿ ولا أشرك به أحدا ﴾ وكذا قرأ أكثر القراء "قال" على الخبر. وقرأ حمزة وعاصم "قل" على الأمر. وسبب نزولـها أن كفار قريش قالوا لـه: إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلـهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق لكم خيرا. وقيل: "لا أملك لكم ضرا" أي كفرا "ولا رشدا" أي هدى؛ أي إنما علي التبليغ. وقيل: الضر: العذاب، والرشد النعيم. وهو الأول بعينه. وقيل: الضر الموت، والرشد الحياة.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي لا يدفع عذابه عني أحد إن استحفظته؛ وهذا لأنهم قالوا اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك. وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال: انطلقت مع النبي ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون فخط علي خطا، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لـهم يقال لـه وردان: أنا أزحلـهم عنك؛ فقال: (إني لن يجيرني من الله أحد) ذكره الماوردي. قـال: ويحتمل معنيين أحدهمـا لن يجيرني مـع إجارة الله لي أحـد. الثاني لـن يجيرني مما قدره الله تعـالى علي أحد.
﴿ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ أي ملتجأ ألجأ إليه؛ قاله قتادة. وعنه: نصيرا ومولى. السدي: حرزا. الكلبي: مدخلا في الأرض مثل السرب. وقيل: وليا ولا مولى. وقيل: مذهبا ولا مسلكا. حكاه ابن شجرة، والمعنى واحد؛ ومنه قول الشاعر:

يا لـهف نفسي ولـهفي غير مجدية   عـني ومـا مـن قضاء الله ملتحد

﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة؛ قاله الحسن.

وقال قتادة: "إلا بلاغا من الله" فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما. فعلى هذا يكون مردودا إلى قولـه تعالى: "قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا" أي لا أملك لكم إلا أن أبلغكم. وقيل: هو استثناء منقطع من قولـه: "لا أملك لكم ضرا ولا رشدا" أي إلا أن أبلغكم أي لكن أبلغكم ما أرسلت به؛ قالـه الفراء. وقال الزجاج: هو منصوب على البدل من قولـه: "ملتحدا" أي "ولن أجد من دونه ملتحدا" إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته؛ أي ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها. أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته، فآخذ نفسي بما آمر به غيري.
وقيل هو مصدر، و"لا" بمعنى لم، و"إن" للشرط. والمعنى لن أجد من دونه ملتحدا: أي إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغا.

قولـه تعالى: ﴿ ومن يعص الله ورسولـه ﴾ في التوحيد والعبادة. ﴿ فإن لـه نار جهنم ﴾ كسرت إن؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم. ﴿ خالدين فيها ﴾ نصب على الحال، وجمع "خالدين" لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أولا للفظ "من" ثم جمع للمعنى. وقولـه ﴿ أبداً ﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى "خالدين فيها أبدا" إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو. وقد مضى هذا المعنى مبينا في سورة "النساء" وغيرها.

قولـه تعالى: ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ "حتى" هنا مبتدأ، أي "حتى إذا رأوا ما يوعدون" من عذاب الآخرة، أو ما يوعدون من عذاب الدنيا، وهو القتل ببدر ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من أضعف ناصراً ﴾ أهم أم المؤمنون. ﴿ وأقل عدداً ﴾ معطوف.

قولـه تعالى: ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا؛ أي لا أدري فـ"إن" بمعنى "ما" أو "لا"؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله. و"ما" في قولـه: "ما يوعدون": يجوز أن يكون مع الفعل مصدرا، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ويقدر حرف العائد. ﴿ أم يجعل لـه ربي أمداً ﴾ أي غاية وأجلا. وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي. وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح.

قولـه تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ عالم الغيب ﴾ "عالم" رفعا نعتا لقولـه: "ربي". وقيل: أي هو "عالم الغيب" والغيب ما غاب عن العباد. وقد تقدم بيانه في أول سورة (البقرة). ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا. إلا من ارتضى من رسول ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات؛ وفي التنزيل: ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ (آل عمران: ٤٩). وقال ابن جبير: "إلا من ارتضى من رسول" هو جبريل عليه السلام. وفيه بعد، والأولى أن يكون المعنى: أي لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أي اصطفى للنبوة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه: ليكون ذلك دالا على نبوته.

الثانية: قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعلـه معجزة لـهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالـهم، وتباين رتبهم، فيهم الملك والسوقة، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والكبير والصغير، مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم؛ فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله: إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلـها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبدا في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقي ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم. وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حكـم المـنجم أن طـالعَ مولـدي يقضـي علـي بميـتة الغَـرق
قـل للمنجم صَبحة الطوفان هل ولـد الجميع بكوكـب الغرَق

وقيـل لأمـير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال

ﷺ: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم. وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له علي ﷺ: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت. فقال علي ﷺ: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده ـ من كلام طويل يحتج فيه بآيات من التنزيل ـ فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ندا أو ضدا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ثم قال للمتكلم: نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر؛ وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان. ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم فقتلهم وهي وقعة النهروان الثابتة في الصحيح لمسلم. ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال: يا أيها الناس! توكلوا على الله وثقوا به؛ فإنه يكفي ممن سواه.

﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان؛ فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. قال الضحاك: ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. وقال ابن عباس وابن زيد: "رصدا" أي حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجن والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة.

وقال الفراء: المراد جبريل؛ كان إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجن الوحي، فيلقوه إلى كهنتهم، فيسبقوا الرسول. وقال السدي: "رصدا" أي حفظة يحفظون الوحي، فما جاء من عند الله قالوا: إنه من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنه من الشيطان. و"رصدا" نصب على المفعول. وفي الصحاح: والرصد القوم يرصدون كالحرس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادا. والراصد للشيء الراقب له؛ يقال: رَصَدَه يَرْصُدُه رَصْداً ورَصَداً. والترصد الترقب والمرصد موضع الرصد.

قوله تعالى: ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليعلم ﴾ قال قتادة ومقاتل: أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما

بلغ هو الرسالة. وفيه حذف يتعلق به اللام؛ أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق. وقيل: ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه؛ قاله ابن جبير. قال: ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم الرسول أي رسول كان أن الرسل سواه بلغوا. وقيل: أي ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه واستراق أصحابه. وقال ابن قتيبة: أي ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم. وقراءة الجماعة "ليعلم" بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب بضم الياء أي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء؛ كقوله تعالى: ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (آل عمران: ١٤٢) المعنى ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً. ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي أحاط علمه بما عندهم، أي بما عند الرسل وما عند الملائكة. وقال ابن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم، فيبلغوا رسالاته. ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء. و"عددا" نصب على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد، وإن شئت على المصدر، أي أحصى وعد كل شيء عددا، فيكون مصدر الفعل المحذوف. فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى. والحمد لله وحده.

سورة المزمل

مقدمة السورة:

وهي سبع وعشرون آية. (مكية) وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿ واصبر على ما يقولون﴾ (المزمل: ١٠) والتي تليها؛ ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قوله تعالى: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ (المزمل: ٢٠) إلى آخر السورة؛ فإنه نزل بالمدينة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال الأخفش سعيد: "المزمل" أصله المتزمل؛ فأدغمت التاء في الزاي وكذلك "المدثر". وقرأ أبي بن كعب على الأصل "المتزمل" و"المتدثر". وسعيد: "المزمل". وفي أصل "المزمل" قولان: أحدهما أنه المحتمل؛ يقال: زمل الشيء إذا حمله، ومنه الزاملة؛ لأنها تحمل القماش. الثاني أن المزمل هو المتلفف؛ يقال: تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى. وزمل غيره إذا غطاه، وكل شيء لفف فقد زمل ودثر؛ قال امرؤ القيس:

كأن أبانا في أفانين ودقه   كبير أناس في بجاد مزمل

الثانية: قوله تعالى: ﴿ يا أيها المزمل ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، وفيه ثلاثة أقوال: الأول: قول عكرمة: "يا أيها المزمل" بالنبوة والملتزم للرسالة. وعنه أيضا: يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله ثم فتر، وكان يقرأ: "يا أيها المزَّمَّل" بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك "المدثر" والمعنى المزمل نفسه والمدثر نفسه، أو الذي زمله غيره. الثاني: "يا أيها المزمل" بالقرآن، قاله ابن عباس. الثالث: المزمل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النخعي: كان متزملا بقطيفة. عائشة: بمرط طوله أربعة عشر ذراعا، نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه على النبي ﷺ وهو يصلي، والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزاء ولا إبريسما ولا صوفاً، كان سداه شعراً، ولحمته وبراً، ذكره الثعلبي.

قلت: وهذا القول من عائشة يدل على أن السورة مدنية؛ فإن النبي ﷺ لم يبن بها إلا في المدينة. وما ذكر من أنها مكية لا يصح. والله أعلم.

وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قول فيه، فاشتد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿ يا أيها المزمل ﴾ (المزمل: ١﴾ و﴿ يا أيها المدثر ﴾ (المدثر: ١). وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال: (زملوني دثروني)[١] روي معناه عن ابن عباس. وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في أول

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ادثر شيئا من تبليغ الرسالة. قال ابن العربي: واختلف في تأويل: "يا أيها المزمل" فمنهم من حمله على حقيقته، قيل لـه: يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم؛ قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل لـه: يا من تزمل بالنبوة؛ قالـه عكرمة. وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعلـه، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

قلت: وقد بينا أنها على حذف المفعول: وقد قرئ بها، فهي صحيحة المعنى. قال: وأما من قال إنه زمل القرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه قد قدمنا أنه لا يحتاج إليه.

الثالثة: قال السهيلي: ليس المزمل باسم من أسماء النبي ﷺ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدوه في أسمائه ﷺ، وإنما المزمل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاطفة؛ فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال لـه: (قم يا أبا تراب)[1] إشعارا لـه أنه غير عاتب عليه، وملاطفة لـه. وكذلك قولـه ﷺ لحذيفة: (قم يا نومان)[2] وكان نائما ملاطفة لـه، وإشعارا لترك العتب والتأنيب. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: "يا أيها المزمل قم" فيه تأنيس وملاطفة؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليلـه ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ قم الليل ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السمال بضم الميم إتباعا لضمة القاف. وحكي الفتح لخفته. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هربا من التقاء الساكنين، فبأي حركة تحركت فقد وقع الغرض. وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة؛ لا تقول: قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار. وقد قيل: إن "قم" هنا معناه صل؛ عبر به عنه واستعير لـه حتى صار عرفا بكثرة الاستعمال.

الخامسة: "الليل" حد الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدم بيانه في سورة "البقرة". واختلف: هل كان قيامه فرضا وحتما، أو كان ندبا وحضا؟ والدلائل تقوي أن قيامه كان حتما وفرضا؛ وذلك أن الندب والحض لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت. وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. واختلف أيضا: هل كان فرضا على النبي ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبلـه من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال: الأول: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني: قول ابن عباس، قال:

---

(١) أخرجه البخاري في "الصلاة"، (٤٤١)، وفي مواضع أخر.
(٢) أخرجه مسلم وغيره.

كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبلـه. الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضا وهو الصحيح؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله. . . الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ: "يا أيها المزمل" قلت: بلى! قالت فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولا، وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع ويعلى قالا: حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول لما أنزل أول ﴿ يا أيها المزمل ﴾ (المزمل: ١) كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولـها وآخرها نحو من سنة. وقال سعيد بن جبير: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ (المزمل: ٢٠) فخفف الله عنهم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ إلا قليلا ﴾ استثناء من الليل، أي صل الليل كلـه إلا يسيرا منه؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد. والقليل من الشيء ما دون النصف؛ فحكي عن وهب بن منبه أنه قال: القليل ما دون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث. ثم قال تعالى: ﴿ نصفه أو انقص منه قليلا ﴾ فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقولـه تعالى: ﴿ علم أن لـن تحصوه ﴾ (المزمل: ٢٠). وقال الأخفش: "نصفه" أي أو نصفه؛ يقال: أعطه درهما درهمين ثلاثة: يريد: أو درهمين أو ثلاثة. وقال الزجاج: "نصفه" بدل من الليل و"إلا قليلا" استثناء من النصف. والضمير في "منه" و"عليه" للنصف. المعنى: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين؛ فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن "نصفه" بدل من قولـه: "قليلا" وكان مخيرا بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه؛ كأن تقدير الكلام: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب لـه من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر لـه، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر)[1]. ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مضى شطر الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله. . .)[2] الحديث. رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك. وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول، ثم يأمر مناديا يقول: هل من داع يستجاب لـه؟ هل من مستغفر يغفر لـه؟ هل من سائل يعطى؟) صححه أبو محمد عبد الحق؛ فبين

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه مسلم (٧٥٨).

هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل. وخرج ابن ماجه من حديث ابن شهاب، عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر). فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله. قال علماؤنا: وبهذا الترتيب انتظم الحديث والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة. وفي الموطأ وغيره من حديث ابن عباس: بت عند خالتي ميمونة حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ، فقام إلى شن معلق فتوضأ وضوءا خفيفا[1]. وذكر الحديث.

السابعة: اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل؛ فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ (المزمل: ٢٠) إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ (المزمل: ٢٠).

وعن ابن عباس أيضا: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ (المزمل: ٢٠). وعن عائشة أيضا والشافعي ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ (المزمل: ٢٠). قال أبو عبد الرحمن السلمي: لما نزلت: "يا أيها المزمل" قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ (المزمل: ٢٠).

قال بعض العلماء: وهو فرض نسخ به فرض، كان على النبي ﷺ خاصة لفضله؛ كما قال تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩).

قلت: القول الأول يعم جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ (المزمل: ٢٠) فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس. وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة. وعن الحسن أيضا أنه قال في هذه الآية: الحمد لله تطوع بعد الفريضة. وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنّة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبي ﷺ حصيرا يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك، وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضب، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال: (أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب، حتى تملوا من العمل، وإن خير العمل أدومه وإن قل)[2]. فنزلت: "يا أيها المزمل" فكتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به، فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ (المزمل: ٢٠) فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).

قلت: حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قولـه: (وإن قل) وباقيه يدل على أن قولـه تعالى: ﴿ يا أيها المزمل ﴾ نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون. وقد تقدم عنها في صحيح مسلم: حولا. وحكى الماوردي عنها قولا ثالثا وهو ستة عشر شهرا، لم يذكر غيره عنها. وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أول المزمل وآخرها سنة؛ قال: فأما رسول الله ﷺ فقد كان فرضا عليه. وفي نسخه عنه قولان: أحدهما: أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى. الثاني: أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته. وفي مدة فرضه إلى أن نسخ قولان: أحدهما: المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ابن عباس حولا، وقول عائشة ستة عشر شهرا. الثاني: أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادة في التكليف، ليميزه بفعل الرسالة؛ قالـه ابن جبير.

قلت: هذا خلاف ما ذكره الثعلبي عن سعيد بن جبير حسب ما تقدم فتأملـه. وسيأتي لـهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الثامنة: قولـه تعالى: ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفا حرفا. وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلـهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام؛ ومنه ثغر رتل ورتل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسن التنضيد. وتقدم بيانه في مقدمة الكتاب. وروى الحسن أن النبي ﷺ، مر برجل يقرأ آية ويبكي، فقال: (ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل: "ورتل القرآن ترتيلا" هذا الترتيل)[1]. وسمع علقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتل القرآن، فداه أبي وأمي، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه. وروى عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: (يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة، فيوقف في أول درج الجنة ويقال لـه اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها)[2] خرجه أبو داود وقد تقدم في أول الكتاب. وروى أنس أن النبي ﷺ كان يمد صوته بالقراءة مدا.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴾ هو متصل بما فرض من قيام الليل، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حملـه؛ لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ لـه ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده. مجاهد: حلالـه وحرامه. الحسن: العمل به. أبو العالية: ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلا على المنافقين. وقيل: على الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسب آلـهتهم، والكشف عما حرفه أهل الكتاب. السدي: ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولـهم: فلان ثقيل علي، أي يكرم علي. الفراء: "ثقيلا" رزينا ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا. وقال

---

(١) ضعيف.

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٨١٢٢).

الحسين بن الفضل: ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقيل: "ثقيلا" أي ثابتا كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبدا. وقيل: هو القرآن نفسه؛ كما جاء في الخبر: أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ـ يعني صدرها ـ على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه. وفي الموطأ وغيره أنه ﷺ سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: (أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصِم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول)[1]. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.

قال ابن العربي: وهذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨). وقال ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة). وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا الله؛ إذ في الخبر: خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان؛ ذكره القشيري.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا؛ يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شيء، فهو ناشئ وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ (الزخرف: ١٨) والمراد إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى (قيام الليل) كالخاطئة والكاذبة؛ أي إن نشأة الليل هي أشد وطأ. وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ابن مسعود: الحبشة يقولون: نشأ أي قام، فلعله أراد أن الكلمة عربية، ولكنها شائعة في كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب. وقد تقدم بيان هذا في مقدمة الكتاب مستوفى.

الثانية: بَيَّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن، أعظم للأجر، وأجلب للثواب.

واختلف العلماء في المراد بناشئة الليل؛ فقال ابن عمر وأنس بن مالك: هو ما بين المغرب والعشاء، تمسكا بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء، فكان بالأولية أحق؛ ومنه قول الشاعر:

ولولا أن يقال صبا نصيب   لقلت بنفسي النشأ الصغار

وكان علي بن الحسين يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، وهو الذي

(١) أخرجه البخاري (٢) وغيره.

اختاره مالك بن أنس. قال ابن العربي: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يمان وابن كيسان: هو القيام من آخر الليل. وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وفي الصحاح: وناشئة الليل أول ساعاته. وقال القتبي: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضا: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهري.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ هي أشد وطأ ﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحاق ومجاهد وحميد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حيوة "وطاء" بكسر الواو وفتح الطاء والمد، واختاره أبو عبيد. الباقون "وطأ" بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختاره أبو حاتم؛ من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم. أي ثقل عليهم ما حملهم من المؤن، ومنه قول النبي ﷺ: (اللهم اشدد وطأتك على مضر)[1] فالمعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار. وذلك أن الليل وقت منام وتودع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن مد فهو مصدر واطأت وطاء ومواطأة أي وافقته. ابن زيد واطأته على الأمر مواطأة: إذا وافقته من الوفاق، وفلان يواطئ اسمه اسمي، وتواطؤوا عليه أي توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لانقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وابن أبي مليكة وغيرهما. وقال ابن عباس بمعناه، أي يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ (التوبة: ٣٧) أي ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد مهادا للتصرف في التفكر والتدبر. والوطاء خلاف الغطاء. وقيل: "أشد وطأ" بسكون الطاء وفتح الواو أي أشد ثباتا من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل وأتقى لما يلهي ويشغل القلب. والوطء الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدمي. وقال الأخفش: أشد قياما. الفراء: أثبت قراءة وقياما. وعنه: "أشد وطأ" أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: "أشد وطأ" أي أشد نشاطا للمصلي؛ لأنه في زمان راحته. وقال عبادة: "أشد وطأ" أي نشاطا للمصلي وأخف، وأثبت للقراءة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وأقوم قيلا ﴾ أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أي أشد استقامة واستمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. وقال أبو علي: "أقوم قيلا" أي أشد استقامة لفراغ البال بالليل. وقيل: أي أعجل إجابة للدعاء. حكاه ابن شجرة. وقال عكرمة: عبادة الليل أتم نشاطا، وأتم إخلاصا، وأكثر بركة. وعن زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقه في

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٣)، ومسلم (٦٧٥).

القرآن. وعن الأعمش قال: قرأ أنس بن مالك "إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلا" فقيل لـه: "وأقوم قيلا" فقال: أقوم وأصوب وأهيأ: سواء. قال أبو بكر الأنباري: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد لـه، واحتجوا بقول أنس هذا. وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائلـه؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها، لجاز أن يقرأ في موضع ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (الفاتحة: ٢): الشكر للباري ملك المخلوقين، ويتسع الأمر في هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن، ويكون التالي لـه مفتريا على الله عز وجل، كاذبا على رسولـه ﷺ ولا حجة لـهم في قول ابن مسعود: نزل القرآن على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبي ﷺ إذا اختلفت ألفاظها، واتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلم، وتعال، وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي ﷺ وأصحابه وتابعوهم ﷺ، فإنه من أورد حرفا منه في القرآن بهت ومال وخرج من مذهب الصواب. قال أبو بكر: والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قراءة العامة بالحاء غير المعجمة؛ أي تصرفا في حوائجك، وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا. والسبح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديد الجري؛ قال امرؤ القيس:

مسح إذا ما السابحات على الونى أثـرن الغـبار بالكـديـد المركـل

وقيل: السبح الفراغ؛ أي إن لك فراغا للحاجات بالنهار. وقيل: "إن لك في النهار سبحا" أي نوما، والتسبح التمدد؛ ذكره الخليل. وعن ابن عباس وعطاء: (سبحا طويلا) يعني فراغا طويلا لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، وقال الزجاج: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ الاستدراك.

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل "سبخا" بالخاء المعجمة. قال المهدوي: ومعناه النوم؛ رُوي ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسعة والاستراحة؛ ومنه قول النبي ﷺ لعائشة وقد دعت على سارق ردائها: (لا تسبخي عنه[1] بدعائك عليه). أي لا تخففي عنه إثمه؛ قال الشاعر:

فسبخ عليك الـهم واعلم بأنه إذا قـدر الرحمـن شيئا فكائن

الأصمعي: يقال سبخ الله عنك الحمى أي خففها. وسبخ الحر: فتر وخف. والتسبيخ النوم الشديد. والتسبيخ أيضا توسيع القطن والكتان والصوف وتنفيشها؛ يقال للمرأة: سبخي قطنك. والسبيخ من القطن ما يسبخ بعد الندف، أي يلف لتغزلـه المرأة، والقطعة منه سبيخة، وكذلك من الصوف والوبر. ويقال لقطع القطن سبائخ؛ قال الأخطل يصف القناص والكلاب:

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٦٢٢٠).

فأرسلوهن يذرين التراب كما يذري سبائخ قطن ندف أوتار

وقال ثعلب: السبخ بالخاء التردد والاضطراب، والسبخ أيضا السكون؛ ومنه قول النبي ﷺ: (الحمى من فيح جهنم، فسبخوها بالماء)[٢] أي سكنوها. وقال أبو عمرو: السبخ: النوم والفراغ.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد وتكون بمعنى السبح، بالحاء غير المعجمة.

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة. وقيل: أي اقصد بعملك وجه ربك، وقال سهل: اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عما سواه. وقيل: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده، لتوفر على طاعته وتعدل عن معصيته. وقال الكلبي: صل لربك أي بالنهار.

قلت: وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار؛ إذ هو قسيمه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ (الفرقان: ٦٢) على ما تقدم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ التبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل؛ أي انقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره. يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم: طلقها بتة بتلة، وهذه صدقة بتة بتلة؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها، ؛ أي قطع ملكه عنها بالكلية؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة، قال:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

وفي الحديث النهي عن التبتل، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد؛ قاله ابن عرفة. والأول أقوى لما ذكرنا. ويقال: كيف قال: تبتيلاً، ولم يقل تبتلاً؟ قيل له: لأن معنى تبتل بتل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل.

الثالثة: قد مضى في (المائدة) في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ (المائدة: ٨٧) كراهة لمن تبتل وانقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية. قال ابن العربي: وأما اليوم وقد مرجت عهود الناس، وخفت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام، فالعزلة خير من الخلطة، والعزبة أفضل من التأهل، ولكن معنى الآية: انقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله، وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلص له العبادة، ولم يرد التبتل، فصار التبتل مأمورا به في القرآن، منهيا عنه في السنة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي؛ فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبين للناس ما نزل إليهم؛ فالتبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (البينة: ٥) والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن.

---

(٢) أخرجاه في الصحيحين بلفظ: "فأبردوها بالماء".

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب﴾ قرأ أهل الحرمين وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص "رب" بالرفع على الابتداء والخبر ﴿لا إلـه إلا هو﴾. وقيل: على إضمار "هو". الباقون "رب" بالخفض على نعت الرب تعالى في قولـه تعالى: "واذكر اسم ربك" "رب المشرق" ومن علم أنه رب المشارق والمغارب انقطع بعملـه وأملـه إليه.

﴿فاتخذه وكيلا﴾ أي قائما بأمورك. وقيل: كفيلا بما وعدك.

قولـه تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ أي من الأذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من قولـهم، ولا تمتنع من دعائهم. ﴿واهجرهم هجرا جيلا﴾ أي لا تتعرض لـهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالـهم وقتلـهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلـها من الترك؛ قالـه قتادة وغيره. وقال أبو الدرداء: إنا لنكشر في وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم.

قولـه تعالى: ﴿وذرني والمكذبين﴾ أي ارض بي لعقابهم. نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين. وقال مقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر وهم عشرة. وقد تقدم ذكرهم في "الأنفال". وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جبير أخبرت أنهم اثنا عشر رجلا.

﴿أولي النعمة.﴾ أي أولي الغنى والترفه واللذة في الدنيا ﴿ومهلـهم قليلا﴾ يعني إلى مدة آجالـهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر. وقيل: "ومهلـهم قليلا" يعني إلى مدة الدنيا.

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما﴾ الأنكال: القيود. عن الحسن ومجاهد وغيرهما. واحدها نكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة. وقيل: سُمي نكلاً، لأنه ينكل به. قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم.

وقال الكلبي: الأنكال: الأغلال، والأول أعرف في اللغة؛ ومنه قول الخنساء:

دعـاك فقطعت أنكالـه   وقد كن قبلك لا تقطع

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد؛ قالـه مقاتل. وقد جاء أن النبي ﷺ قال: (إن الله يحب النكل على النكل) بالتحريك، قاله الجوهري. قيل: وما النكل؟ قال: (الرجل القوي المجرب، على الفرس القوي المجرب)[1] ذكره الماوردي قال: ومن ذلك سمي القيد نكلا لقوته، وكذلك الغـل، وكل عذاب قوي فاشتد، والجحيم النار المؤججة. ﴿وطعاما ذا غصة﴾ أي غير سائغ؛ يأخذ بالحلق،

---

(١) ضعيف.

لا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغسلين والزقوم والضريع؛ قاله ابن عباس. وعنه أيضا: أنه شوك يدخل الحلق، فلا ينزل ولا يخرج. وقال الزجاج: أي طعامهم الضريع؛ كما قال: ﴿ ليس لـهم طعام إلا من ضريع ﴾ (الغاشية: ٦) وهو شوك كالعوسج. وقال مجاهد: هو الزقوم، كما قال: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ (الدخان: ٤٣ ـ ٤٤). والمعنى واحد. وقال حمران بن أعين: قرأ النبي ﷺ (إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما ذا غصة) فصعق. وقال خليد بن حسان: أمسى الحسن عندنا صائما، فأتيته بطعام فعرضت لـه هذه الآية "إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعاما" فقال: ارفع طعامك. فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت لـه هذه الآية، فقال: ارفعوه. ومثلـه في الثالثة؛ فانطلق ابنه إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم، فجاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق. والغصة: الشجا، وهو ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره. وجمعها غصص. والغصص بالفتح مصدر قولك: غصصت يا رجل تغص، فأنت غاص بالطعام وغصان، وأغصصته أنا، والمنزل غاص بالقوم أي ممتلئ بهم.

قولـه تعالى: ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أي تتحرك وتضطرب بمن عليها. وانتصب "يوم" على الظرف أي ينكل بهم ويعذبون "يوم ترجف الأرض". وقيل: بنزع الخافض؛ يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال. وقيل: العامل "ذرني" أي وذرني والمكذبين يوم ترجف الأرض والجبال. ﴿ وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ أي وتكون. والكثيب الرمل المجتمع ـ قال حسان:

عرفـــــت ديار زينب بالكثيب   كخط الوحي في الورق القشيب

والمهيل: الذي يمر تحت الأرجل. قال الضحاك والكلبي: المهيل: هو الذي إذا وطئته بالقدم زل من تحتها، وإذا أخذت أسفلـه انهال. وقال ابن عباس: "مهيلا" أي رملا سائلا متناثرا وأصلـه مهيول وهو مفعول من قولك: هلت عليه التراب أهيلـه هيلا: إذا صببته. يقال: مهيل ومهيول، ومكيل ومكيول، ومدين ومديون، ومعين ومعيون؛ قال الشاعر:

قد كان قومك يحسبونك سيدا   وإخـــال أنك ســـيد معيون

وفي حديث النبي ﷺ أنهم شكوا إليه الجدوبة؛ فقال: (أتكيلون أم تهيلون) قالوا: نهيل. قال: (كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه)[1]. وأهلت الدقيق لغة في هلت فهو مهال ومهيل. وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا ﴾ يريد النبي ﷺ أرسلـه إلى قريش ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴾ وهو موسى ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ أي كذب به ولم يؤمن. قال مقاتل: ذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٨) وغيره.

موسى وفرعون؛ لأن أهل مكة ازدروا محمدا ﷺ واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ (الشعراء: ١٨).

قال المهدوي: ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدم ذكره؛ ولذلك اختير في أول الكتب سلام عليكم، وفي آخرها السلام عليكم. ﴿ وبيلا ﴾ أي ثقيلا شديداً. وضرب وبيل وعذاب وبيل: أي شديد؛ قاله ابن عباس ومجاهد. ومنه مطر وابل أي شديد؛ قاله الأخفش. وقال الزجاج: أي ثقيلا غليظاً.

ومنه قيل للمطر وابل. وقيل: مهلكا والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة قال:

أكلت بنيك أكل الضب حتى وجـدت مرارة الكلأ الوبيل

واستوبل فلان كذا: أي لم يحمد عاقبته. وماء وبيل: أي وخيم غير مريء، وكلأ مستوبل وطعام وبيل ومستوبل: إذا لم يمرئ ولم يستمرأ، قال زهير:

فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلـى كـلأ مسـتوبل متوخم

وقالت الخنساء:

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فـوارس مالك أكلا وبيلا

والوبيل أيضا: العصا الضخمة؛ قال:

لو أصبح في يمنى يدي زمامها وفي كفي الأخرى وبيل تحاذره

وكذلك الموبل بكسر الباء، والموبلة أيضا: الحزمة من الحطب، وكذلك الوبيل، قال طرفة:

عقيلة شيخ كالوبيل يلندد

قولـه تعالى: ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ هو توبيخ وتقريع، أي كيف تتقون العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم. وكذا قراءة عبد الله وعطية.

قال الحسن: أي بأي صلاة تتقون العذاب؟ بأي صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي كيف تتقون عذاب يوم. وقال قتادة: والله ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء. و"يوما" مفعول بـ "تتقون" على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول "كفرتم".

وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قولـه: (كفرتم) والابتداء (يوما) يذهب إلى أن اليوم مفعول "يجعل" والفعل لله عز وجل، وكأنه قال: يجعل الله الولدان شيبا في يوم. قال ابن الأنباري: وهذا لا يصلح؛ لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدة هولـه. المهدوي: والضمير في "يجعل" يجوز أن يكون لله عز وجل، ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة لـه، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال: يوما يجعل الله الولدان فيه شيبا. ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بـ "كفرتم" وهذا قبيح؛ لأن اليوم إذا علق بـ "كفرتم" احتاج إلى صفة؛ أي كفرتم بيوم. فإن احتج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، احتججنا عليه بقراءة عبد الله "فكيف تتقون يوما".

قلت: هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ "يوما" مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها؛ أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو السمال قعنب "فكيف تتقون" بكسر النون على الإضافة. و"الولدان" الصبيان. وقال السدي: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصح؛ أي يشيب فيه الصغير من غير كبر. وذلك حين يقال: (يا آدم قم فابعث بعث النار)[1]. على ما تقدم في أول سورة "الحج". قال القشيري: ثم إن أهل الجنة يغير الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد.

وقيل: هذا ضرب مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ولكن معناه أن هيئة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق، فالله أعلم. الزمخشري: وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ أي متشققة لشدَّته. ومعنى "به" أي فيه؛ أي في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مثقلة به إثقالا يؤدي إلى انفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ (الأعراف: ١٨٧). وقيل: "به" أي له، أي لذلك اليوم؛ يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام وفي: متقاربة في مثل هذا الموضع؛ قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ (الأنبياء: ٤٧) أي في يوم القيامة. وقيل: "به" أي بالأمر أي السماء منفطر بما يجعل الولدان شيبا. وقيل: منفطر بالله، أي بأمره، وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها السقف؛ تقول: هذا سماء البيت؛ قال الشاعر:

فلو رفع السماء إليه قوما لحقنا بالسماء وبالسحاب

وفي التنزيل: ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ (الأنبياء: ٣٢). وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث.

وقال أبو علي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و﴿أعجاز نخل منقعر﴾ (القمر: ٢٠). وقال أبو علي أيضا: أي السماء ذات انفطار؛ كقولهم: امرأة مرضع، أي ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب. ﴿كان وعده﴾ أي بالقيامة والحساب والجزاء ﴿مفعولا﴾ كائناً لا شك فيه ولا خلف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله.

قوله تعالى: ﴿إن هذه تذكرة﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عظة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه﴾ أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿سبيلا﴾ أي طريقا إلى رضاه ورحمته فليرغب، فقد أمكن له؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فمن شاء ذكره﴾ (المدثر: ٥٥) قال الثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠) ﴾ **فيه ثلاث عشرة مسألة:**

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم﴾ هذه الآية تفسير لقولـه تعالى: ﴿ قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه﴾ (المزمل: ٤) كما تقدم، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدم. "تقوم" معناه تصلي و﴿ أدنى﴾ أي أقل. وقرأ ابن السميقع وأبو حيوة وهشام عن أهل الشام ﴿ ثلثي﴾ بإسكان اللام. ﴿ ونصفه وثلثه﴾ بالخفض قراءة العامة عطفا على "ثلثي"؛ المعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ كقولـه تعالى: "علم أن لن تحصوه" فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه. وقرأ ابن كثير والكوفيون "ونصفه وثلثه" بالنصب عطفا على "أدنى" التقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه. قال الفراء: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه قال أقل من الثلثين، ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة. القشيري: وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه. ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل، ورخص لـهم في الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى الثلث. ويحتمل أنهم قدر لـهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم. وقال قوم: إنما افترض الله عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع. وهذا القول تحكم.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ والله يقدر الليل والنهار﴾ أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ. ﴿ علم أن لن تحصوه﴾ أي لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به. وقيل: أي لن تطيقوا قيام الليل. والأول أصح؛ فإن قيام الليل ما فرض كلـه قط. قال مقاتل وغيره: لما نزلت: ﴿ قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه﴾ (المزمل: ٤) شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم؛ فقال تعالى: "علم أن لن تحصوه" و"أن" مخففة من الثقيلة؛ أي علم أنكم لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضا، وإن نقصتم شق ذلك عليكم.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم في ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدم؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر. وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحري، فخفف عنهم ذلك التحري. وقيل: معنى "والله يقدر الليل والنهار" يخلقهما مقدرين؛ كقولـه تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ (الفرقان: ٢). ابن العربي: تقدير الخلقة لا يتعلق به حكم، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المراد نفس القراءة؛ أي فاقرؤوا فيما تصلونه بالليل ما خف عليكم. قال السدي: مائة آية. الحسن: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية.

قلت: قول كعب أصح؛ لقول ﷺ: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)[1] خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ذكرناه في مقدمة الكتاب والحمد لله. القول الثاني: ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ أي فصلّوا ما تيسر عليكم، والصلاة تسمى قرآنا؛ كقولـه تعالى: "وقرآن الفجر" أي صلاة الفجر. ابن العربي: وهو الأصح؛ لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

قلت: الأول أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعمالـه.

الخامسة: قال بعض العلماء: قولـه تعالى: ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ نسخ قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه. ثم احتمل قول الله عز وجل: "فاقرؤوا ما تيسر منه" معنيين أحدهما: أن يكون فرضا ثانيا؛ لأنه أزيل به فرض غيره. والآخر أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره كما أزيل به غيره؛ وذلك لقولـه تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ (الإسراء: ٧٩) فاحتمل قولـه تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩) أي يتهجد بغير الذي فرض عليه مما تيسر منه. قال الشافعي: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

السادسة: قال القشيري أبو نصر: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمة، وبقيت الفريضة في حق النبي ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب؛ كقولـه تعالى: ﴿ فما استيسر من الـهدي ﴾ (البقرة: ١٩٦) فالـهدي لا بد منه، كذلك لم يكن بد من صلاة الليل، ولكن فوض قدره إلى اختيار المصلي، وعلى هذا فقد قال قوم: فرض قيام الليل بالقليل باق؛ وهو مذهب الحسن. وقال قوم: نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلا؛ وهو مذهب الشافعي. ولعل الفريضة التي

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٤٣٩).

بقيت في حق النبي ﷺ هي هذا، وهو قيامه، ومقداره مفوض إلى خيرته. وإذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى: "فاقرؤوا ما تيسر منه" معناه اقرؤوا إن تيسر عليكم ذلك، وصلوا إن شئتم. وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرر في حق النبي ﷺ أيضا، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه. وقوله: ﴿ نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩) محمول على حقيقة النفل. ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ (الإسراء: ٧٨)، وقوله: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ (الروم: ١٧)، ما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع. وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩) والخطاب للنبي ﷺ وللأمة، كما أن فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يا أيها المزمل. قم الليل ﴾ (المزمل: ١) كانت عامة له ولغيره. وقد قيل: إن فريضة الله امتدت إلى ما بعد الهجرة، ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعالى: "علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله"، وإنما فرض القتال بالمدينة؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نسخ بقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩). وقال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ نسخ قول الله تعالى: "إن ربك يعلم أنك تقوم" وجوب صلاة الليل.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ الآية؛ بين سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخلق منهم المريض، ويشق عليهم قيام الليل، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء. و"أن" في "أن سيكون" مخففة من الثقيلة؛ أي علم أنه سيكون.

الثامنة: سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. وروى إبراهيم عن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء) ثم قرأ رسول الله ﷺ: "وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله" وقال ابن مسعود: أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء. وقرأ "وآخرون يضربون في الأرض" الآية. وقال ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من الموت بين شعبتي رحلي، أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض. وقال طاوس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله. وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غد، فوافق سعة في السعر؛ فقال التجار للوكيل: إن أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كنا قنعنا بربح

يسير مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافا لا علي ولا لي. ويروى أن غلاما من أهل مكة كان ملازما للمسجد، فافتقده ابن عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام لـه يبيعه؛ فلقيه فقال لـه: يا بني! ما لك وللطعام؟ فهلا إبلا، فهلا بقرا، فهلا غنما! إن صاحب الطعام يحب المحل، وصاحب الماشية يحب الغيث.

التاسعة: قولـه تعالى: ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ أي صلوا ما أمكن؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم. قال ابن العربي وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سن في ركعتين من هذه الآية؛ قاله البخاري وغيره، وعقد بابا ذكر فيه حديث (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلـها، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[١] وذكر حديث سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في الرؤيا قال: (أما الذي يثلغ رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)[٢]. وحديث عبد الله بن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل ينام الليل كلـه فقال: (ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه)[٣] فقال ابن العربي: فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة؛ فيحمل المطلق على المقيد لاحتمالـه لـه، وتسقط الدعوى ممن عينه لقيام الليل. وفي الصحيح واللفظ للبخاري: قال عبد الله بن عمرو: وقال لي رسول الله ﷺ: (يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[٤] ولو كان فرضا ما أقره النبي ﷺ عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذم، وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على النبي ﷺ، وكنت غلاما شاباً عزباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لـها قرنان، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. قال: ولقينا ملك آخر، فقال لي: لم ترع. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً[٥]؛ فلو كان ترك القيام معصية لما قال لـه الملك: لم ترع. والله أعلم.

العاشرة: إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، وأن قولـه: "فاقرؤوا ما تيسر من القرآن"، "فاقرؤوا ما تيسر منه" محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٣).
(٣) أخرجاه في الصحيحين.
(٤) أخرجاه في الصحيحين.
(٥) أخرجاه في الصحيحين.

يقرأ به في الصلاة؛ فقال مالك والشافعي: فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها، وقدره أبو حنيفة بآية واحدة، من أي القرآن كانت. وعنه ثلاث آيات؛ لأنها أقل سورة.

ذكر القول الأول: الماوردي والثاني: ابن العربي. والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعي، على ما بيناه في سورة "الفاتحة" أول الكتاب والحمد لله. وقيل: إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة؛ قال الماوردي: فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثرين؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه. الثاني: أنه محمول على الوجوب؛ ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه؛ لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة. وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال: أحدها: جميع القرآن؛ لأن الله تعالى يسره على عباده؛ قاله الضحاك. الثاني: ثلث القرآن؛ حكاه جويبر. الثالث: مائتا آية؛ قاله السدي. الرابع: مائة آية؛ قاله ابن عباس. الخامس: ثلاث آيات كأقصر سورة؛ قاله أبو خالد الكناني.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها. ﴿وآتوا الزكاة﴾ الواجبة في أموالكم؛ قاله عكرمة وقتادة. وقال الحارث العكلي: صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك. وقيل: صدقة التطوع. وقيل: كل أفعال الخير.

وقال ابن عباس: طاعة الله والإخلاص له.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب. وقد مضى في سورة "الحديد" بيانه. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ وروي عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حيسا ـ يعني تمرا بلبن ـ فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه. فقال بعضهم: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن رب المسكين يدري ما هو وكأنه تأول: "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا" أي مما تركتم وخلفتم، ومن الشح والتقصير. ﴿وأعظم أجرا﴾ قال أبو هريرة: الجنة؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجرا؛ لإعطائه بالحسنة عشرا. ونصب "خيرا وأعظم" على المفعول الثاني "لتجدوه" و"هو": فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب. و"أجرا" تمييز. ﴿واستغفروا الله﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿إن الله غفور﴾ لما كان قبل التوبة ﴿رحيم﴾ لكم بعدها؛ قاله سعيد بن جبير. ختمت السورة.

سورة المدثر

مكيّة في قول الجميع. وهي ست وخمسون آية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي يا ذا الذي قد تدثر بثيابه، أي تغشى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقرأ أبي "المتدثر" على الأصل.

وقال مقاتل: معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله ﷺ كان يحدث - قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي - قال في حديثه: (فبينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض). قال رسول الله ﷺ: (فجئثت منه فرقا، فرجعت فقلت زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى: "يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر") في رواية - قبل أن تفرض الصلاة - وهي الأوثان قال: (ثم تتابع الوحي)[1]. خرجه الترمذي أيضا وقال: حديث حسن صحيح. قال مسلم: وحدثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا الوليد ابن مسلم، قال: حدثنا الأوزاعي قال: سمعت يحيى يقول: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: "يا أيها المدثر" فقلت: أو "اقرأ". فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: "يا أيها المدثر" فقلت: أو "اقرأ" فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: (جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل ﷺ - فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت دثروني، فدثروني فصبوا علي ماء، فأنزل الله عز وجل: "يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر وثيابك فطهر") خرجه البخاري وقال فيه: (فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا، فدثروني وصبوا علي ماء باردا فنزلت: "يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر"). ابن العربي: وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي ﷺ من عقبة (ابن ربيعة) أمر، فرجع إلى منزله مغموما، فقلق واضطجع، فنزلت: "يا أيها المدثر" وهذا باطل. وقال القشيري أبو نصر: وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر، فوجد من ذلك غما وحم، فتدثر بثيابه، فقال الله تعالى: "قم فأنذر" أي لا تفكر في قولهم، وبلغهم الرسالة.

وقيل: اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص ابن وائل ومطعم بن عدي وقالوا: قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد اختلفتم في الإخبار عنه؛ فمن قائل يقول مجنون، وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسموا محمدا باسم واحد يجتمعون عليه، وتسميه العرب به، فقام منهم رجل فقال: شاعر؛ فقال الوليد: سمعت كلام ابن الأبرص، وأمية بن أبي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٣)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم في "الإيمان"، (٢٥٥، ٢٥٦).

الصلت، وما يشبه كلام محمد كلام واحد منهما؛ فقالوا: كاهن. فقال: الكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط؛ فقام آخر فقال: مجنون؛ فقال الوليد: المجنون يخنق الناس وما خنق محمد قط. وانصرف الوليد إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليد بن المغيرة؛ فدخل عليه أبو جهل وقال: ما لك يا أبا عبد شمس! هذه قريش تجمع لك شيئا يعطونكه، زعموا أنك قد احتجت وصبأت. فقال الوليد: ما لي إلى ذلك حاجة، ولكني فكرت في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرق بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلت: إنه ساحر. شاع هذا في الناس وصاحوا يقولون: إن محمدا ساحر. ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته محزونا فتدثر بقطيفة، ونزلت: "يا أيها المدثر". وقال عكرمة: معنى "يا أيها المدثر" أي المدثر بالنبوة وأثقالها. ابن العربي: وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد. وعلى أنها أول القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثاني ما نزل.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر ﴾: ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة "المزمل". ومثله قول النبي ﷺ لعليّ إذ نام في المسجد: (قم أبا تراب)[1] وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق: (قم يا نومان)[2] وقد تقدم.

الثالثة: ﴿ قم فأنذر ﴾ أي خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا. وقيل: الإنذار هنا إعلامهم بنبوته؛ لأنه مقدمة الرسالة. وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها. وقال الفراء: قم فصل وأمر بالصلاة.

الرابعة: ﴿ وربك فكبر ﴾ أي سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد. وفي حديث أنهم قالوا: بم تفتتح الصلاة؟ فنزلت: "وربك فكبر" أي وصفه بأنه أكبر. قال ابن العربي: وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه. وقد روي أن أبا سفيان قال يوم أحد: اعل هبل؛ فقال النبي ﷺ: (قولوا الله أعلى وأجل)[3] وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذانا وصلاة وذكرا بقوله: "الله أكبر" وحمل عليه لفظ النبي ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد؛ منها قوله: (تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم)[4] والشرع يقتضي بعرفه ما يقتضي بعمومه، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصا له من الشرك، وإعلانا باسمه في النسك، وإفرادا لما شرع منه لأمره بالسفك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٩).

(٤) صحيح.

قلت: قد تقدم في أول سورة "البقرة" أن هذا اللفظ "الله أكبر" هو المتعبد به في الصلاة، المنقول عن النبي ﷺ . وفي التفسير: أنه لما نزل قوله تعالى: "وربك فكبر" قام رسول الله ﷺ وقال: (الله أكبر) فكبّرت خديجة، وعلمت أنه الوحي من الله تعالى؛ ذكره القشيري.

الخامسة: الفاء في قوله تعالى: ﴿ وربك فكبر ﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في (فأنذر) أي قم فأنذر وقم فكبر ربك؛ قاله الزجاج. وقال ابن جني: هو كقولك زيداً فاضرب؛ أي زيداً اضرب، فالفاء زائدة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وثيابك فطهر ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أن المراد بالثياب العمل. الثاني: القلب. الثالث: النفس. الرابع: الجسم. الخامس: الأهل. السادس: الخلق. السابع: الدين. الثامن: الثياب الملبوسات على الظاهر. فمن ذهب إلى القول الأول قال: تأويل الآية وعملك فأصلح؛ قاله مجاهد وابن زيد. وروى منصور عن أبي رزين قال: يقول وعملك فأصلح؛ قال: وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلانا خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلانا طاهر الثياب؛ ونحوه عن السدي. ومنه قول الشاعر:

لاهُمَّ إن عامر بن جهم أوذم حجا في ثياب دسم

ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (يحشر المرء في ثوبيه اللذين مات عليهما)[1] يعني عمله الصالح والطالح؛ ذكره الماوردي. ومن ذهب إلى القول الثاني قال: إن تأويل الآية وقلبك فطهر؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير؛ دليله قول امرئ القيس:

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسُلِّي ثيابي من ثيابك تنسل

أي قلبي من قلبك. قال الماوردي: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما: معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي؛ قاله ابن عباس وقتادة. الثاني: وقلبك فطهر من الغدر؛ أي لا تغدر فتكون دنس الثياب. وهذا مروي عن ابن عباس، واستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

ومن ذهب إلى القول الثالث قال: تأويل الآية ونفسك فطهر؛ أي من الذنوب. والعرب تكني عن النفس بالثياب؛ قاله ابن عباس. ومنه قول عنترة:

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وقال امرؤ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقال:

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران

أي أنفس بني عوف. ومن ذهب إلى القول الرابع قال: تأويل الآية وجسمك فطهر؛ أي عن المعاصي الظاهرة. ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى، وذكرت إبلا:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

رموها بأثياب خفاف فلا ترى لـها شـــــبها إلا النعام المنفرا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم.

ومن ذهب إلى القول الخامس قال: تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب؛ والعرب تسمي الأهل ثوبا ولباسا وإزارا؛ قال الله تعالى: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لـهن ﴾ (البقرة: ١٨٧). الماوردي: ولـهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما: معناه ونساءك فطهر، باختيار المؤمنات العفائف. الثاني: الاستمتاع بهن في القبل دون الدبر، في الطهر لا في الحيض. حكاه ابن بحر. ومن ذهب إلى القول السادس قال: تأويل الآية وخلقك فحسن. قالـه الحسن والقرظي؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحوالـه اشتمال ثيابه على نفسه. وقال الشاعر:

ويحيى لا يلام بسوء خلق ويحيى طاهر الأثواب حر

أي حسن الأخلاق. ومن ذهب إلى القول السابع قال: تأويل الآية ودينك فطهر. وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: (ورأيت الناس وعليهم ثياب، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجره). قالوا: يا رسول الله فما أولت ذلك؟ قال: الدين [1]. وروى ابن وهب عن مالك أنه قال: ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا في الصلاة والمساجد لا في الطريق، قال الله تعالى: "وثيابك فطهر" يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين. وقد روى عبد الله بن نافع عن أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس في قولـه تعالى: "وثيابك فطهر" أي لا تلبسها على غدرة؛ ومنه قول أبي كبشة:

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران

يعني بطهارة ثيابهم: سلامتهم من الدناءات، ويعني بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالـهم في الخلقة أو كليهما؛ قاله ابن العربي. وقال سفيان بن عيينة: لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم؛ قالـه عكرمة. ومنه قول الشاعر:

أوذم حجا في ثياب دسم

أي قد دنسها بالمعاصي. وقال النابغة:

رقاق النعال طيب حجـــزاتهم يُحَيون بالريحان يوم السباسب

ومن ذهب إلى القول الثامن قال: إن المراد بها الثياب الملبوسات، فلـهم في تأويلـه أربعة أوجه: أحدها: معناه وثيابك فأنق؛ ومنه قول امرئ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غرّان

الثاني: وثيابك فشمر وقصر، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة، فإذا انجرت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسـها، قاله الزجاج وطاوس. الثالث: "وثيابك فطهر" من النجاسة بالماء؛ قاله محمد ابن سيرين وابن زيد والفقهاء. الرابع: لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام. وعن ابن عباس: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر. ابن العربي وذكر بعض ما ذكرناه:

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي تتناول معنيين: أحدهما: تقصير الأذيال؛ لأنها إذا أرسلت تدنست، ولهذا قال عمر ابن الخطاب ﷺ لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيا: ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى. وقد قال النبي ﷺ: (إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك ففي النار)[(١)] فقد جعل النبي ﷺ الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار، فما بال رجال يرسلون أذيالهم، ويطيلون ثيابهم، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم، وهذه حالة الكبر، وقائدة العجب، (وأشد ما في الأمر أنهم يعصون وينجسون ويلحقون أنفسهم بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه). قال النبي ﷺ: (لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء) ولفظ الصحيح: (من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة). قال أبو بكر: يا رسول الله! إن أحد شقي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ قال رسول الله ﷺ: (لست ممن يصنعه خيلاء)[(٢)] فعم رسول الله ﷺ بالنهي، واستثنى الصديق، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء، وليس ذلك لهم.

والمعنى الثاني: غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها، صحيح فيها. المهدوي: وبه استدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب؛ قال ابن سيرين وابن زيد: لا تصل إلا في ثوب طاهر. واحتج بها الشافعي على وجوب طهارة الثوب. وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض، وكذلك طهارة البدن، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل. وقد مضى هذا القول في سورة "التوبة" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان؛ دليله قوله تعالى: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ (الحج: ٣٠). قاله ابن عباس وابن زيد. وعن ابن عباس أيضاً: والمأثم فاهجر؛ أي فاترك. وكذا روى مغيرة عن إبراهيم النخعي قال: الرجز الإثم. وقال قتادة: الرجز: إساف ونائلة، صنمان كانا عند البيت. وقيل: الرجز العذاب، على تقدير حذف المضاف؛ المعنى: وعمل الرجز فاهجر، أو العمل المؤدي إلى العذاب. وأصل الرجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ﴾ (الأعراف: ١٣٤). وقال تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم رجزا من السماء ﴾ (الأعراف: ١٦٢). فسميت الأوثان رجزاً؛ لأنها تؤدي إلى العذاب. وقراءة العامة "الرجز" بكسر الراء. وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم "والرجز" بضم الراء وهما لغتان مثل الذكر والذكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرجز بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية. وقال الكسائي أيضا: بالضم: الوثن، وبالكسر: العذاب. وقال السدي: الرجز بنصب الراء: الوعيد.

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٤).

قولـه تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ فيه أحد عشر تأويلا؛ الأول: لا تمنن على ربك بما تتحملـه من أثقال النبوة، كالذي يستكثر ما يتحملـه بسبب الغير. الثاني: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها؛ قالـه ابن عباس وعكرمة وقتادة. قال الضحاك: هذا حرمه الله على رسول الله ﷺ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وأباحه لأمته؛ وقاله مجاهد. الثالث: عن مجاهد أيضا: لا تضعف أن تستكثر من الخير؛ من قولك حبل منين إذا كان ضعيفا؛ ودليلـه قراءة ابن مسعود "ولا تمنن تستكثر من الخير". الرابع: عن مجاهد أيضا والربيع: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير، فإنه مما أنعم الله عليك. قال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منة من الله عليك؛ إذ جعل الله لك سبيلا إلى عبادته. الخامس: قال الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره. السادس: لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به. السابع: قال القرظي: لا تعط مالك مصانعة. الثامن: قال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك. التاسع: لا تقل دعوت فلم يستجب لي. العاشر: لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها، ولكن اصبر حتى يكون الله هو الذي يثيبك عليها. الحادي عشر: لا تفعل الخير لترائي به الناس.

الثانية: هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال؛ يقال: مننت فلانا كذا أي أعطيته. ويقال للعطية المنة؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها؛ لأنه ﷺ ما كان يجمع الدنيا، ولـهذا قال: (ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم). وكان ما يفضل من نفقة عيالـه مصروفا إلى مصالح المسلمين؛ ولـهذا لم يورث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت لـه الـهدية، فكان يقبلـها ويثيب عليها. وقال: (لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع لقبلت)[1] ابن العربي: وكان يقبلـها سنة ولا يستكثرها شرعة، وإذا كان لا يعطي عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب؛ لأنها باب من أبواب المذلة، وكذلك قول من قال: إن معناها لا تعطي عطية تنتظر ثوابها، فإن الانتظار تعلق بالأطماع، وذلك في حيزه بحكم الامتناع، وقد قال الله تعالى لـه: ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ (طه: ١٣١). وذلك جائز لسائر الخلق؛ لأنه من متاع الدنيا، وطلب الكسب والتكاثر بها. وأما من قال أراد به العمل أي لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح؛ فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ ولا تمنن ﴾ قراءة العامة بإظهار التضعيف. وقرأ أبو السمال العدوي وأشهب العقيلي والحسن "ولا تمن" مدغمة مفتوحة. "تستكثر": قراءة العامة بالرفع وهو في معنى الحال، تقول: جاء زيد يركض أي راكضا؛ أي لا تعط شيئا مقدرا أن تأخذ بدلـه ما هو أكثر منه.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء؛ لأنه ليس بجواب. ويجوز أن يكون بدلا من "تمنن" كأنه قال: لا تستكثر. وأنكره أبو حاتم وقال: لأن المن ليس بالاستكثار فيبدل منه. ويحتمل أن يكون سكن تخفيفا كعضد. أو أن يعتبر حال الوقف. وقرأ الأعمش ويحيى "تستكثر" بالنصب، توهم لام كي، كأنه قال: ولا تمنن لتستكثر. وقيل: هو بإضمار "أن" كقوله (للشاعر طرفة بن العبد):

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

ويؤيده قراءة ابن مسعود "ولا تمنن أن تستكثر". قال الكسائي: فإذا حذف "أن" رفع وكان المعنى واحدا. وقد يكون المن بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم، فيرجع إلى القول الثاني، ويعضده قوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾(البقرة: ٢٦٤) وقد يكون مرادا في هذه الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ولربك فاصبر ﴾ أي ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أوذيت. وقال ابن زيد: حملت أمرا عظيما؛ محاربة العرب والعجم، فاصبر عليه لله.
وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى.
وقيل: فاصبر على البلوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فإذا نقر في الناقور ﴾ إذا نفخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر، كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت؛ ومنه قول امرئ القيس:

أخفِّضُه بالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ وَيَرْفَعُ طَرْفًا غَيْرَ خَافٍ غَضيضِ

وهم يقولون: نقَّر باسم الرجل إذ دعاه مختصاً له بدعائه. وقال مجاهد وغيره: هو كهيئة البوق، ويعني به النفخة الثانية. وقيل: الأولى؛ لأنها أول الشدة الهائلة العامة. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في "النمل" و"الأنعام" وفي كتاب "التذكرة"، والحمد لله. وعن أبي حبان قال: أمَّنا زُرَارةُ ابن أوفى فلما بلغ "فإذا نقر في الناقور" خر ميتا. ﴿فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد ﴿على الكافرين ﴾ أي على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم ﴿غير يسير ﴾ أي غير سهل ولا هين؛ وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. و"يومئذ" نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ. وقيل: جر بتقدير حرف جر، مجازه: فذلك في يومئذ. وقيل: يجوز أن يكون رفعا إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن.

قولـه تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ "ذرني" أي دعني؛ وهي كلمة وعيد وتهديد. "ومن خلقت" أي دعني والذي خلقته وحيدا؛ فـ "وحيدا" على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف، أي خلقته وحده، لا مال لـه ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته. والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول ﷺ، وكان يسمى الوحيد في قومه. قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى: "ذرني ومن خلقت" بزعمه "وحيدا" لا أن الله تعالى صدقه بأنه وحيد. وقال قوم: إن قولـه تعالى: "وحيدا" يرجع إلى الرب تعالى على معنيين: أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم. والثاني: أني انفردت بخلقه ولم يشركني فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه؛ فـ "وحيدًا" على هذا حال من ضمير الفاعل، وهو التاء في "خلقت" والأول قول مجاهد، أي خلقته وحيدا في بطن أمه لا مال لـه ولا ولد، فأنعمت عليه فكفر؛ فقولـه: "وحيدا" على هذا يرجع إلى الوليد، أي لم يكن لـه شيء فملكته. وقيل: أراد بذلك ليدلـه على أنه يبعث وحيدا كما خلق وحيدا. وقيل: الوحيد الذي لا يعرف أبوه، وكان الوليد معروفا بأنه دعي، كما ذكرنا في قولـه تعالى: ﴿ عتل بعد ذلك زنيم﴾ (القلم: ١٣) وهو في صفة الوليد أيضا.

قولـه تعالى: ﴿ وجعلت لـه مالا ممدودا﴾ أي خولته وأعطيته مالا ممدودا، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحجور والنعم والجنان والعبيد والجواري، كذا كان ابن عباس يقول. وقال مجاهد: غلة ألف دينار، قاله سعيد بن جبير وابن عباس أيضا. وقال قتادة: ستة آلاف دينار. وقال سفيان الثوري وقتادة: أربعة آلاف دينار. الثوري أيضا: ألف ألف دينار. مقاتل: كان لـه بستان لا ينقطع خيره شتاء ولا صيفا. وقال عمر رضي الله عنه: "وجعلت لـه مالا ممدودا" غلة شهر بشهر. النعمان بن سالم: أرضا يزرع فيها. القشيري: والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

قولـه تعالى: ﴿ وبنين شهودا﴾ أي حضورا لا يغيبون عنه في تصرف. قال مجاهد وقتادة: كانوا عشرة. وقيل: اثنا عشر؛ قالـه السدي والضحاك. قال الضحاك: سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولدا. مقاتل: كانوا سبعة كلـهم رجال، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام والوليد بن الوليد. قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من مالـه وولده حتى هلك. وقيل: شهودا، أي إذا ذكر ذكروا معه؛ قالـه ابن عباس. وقيل: شهودا، أي قد صاروا مثلـه في شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره. والأول قول السدي، أي حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون.

قولـه تعالى: ﴿ ومهدت لـه تمهيدا ﴾ أي بسطت لـه في العيش بسطا، حتى أقام ببلدته مطمئنا مترفها يُرجع إلى رأيه. والتمهيد عند العرب: التوطئة والتهيئة؛ ومنه مهد الصبي. وقال ابن عباس: "ومهدت لـه تمهيدا" أي وسعت لـه ما بين اليمن والشام وقالـه مجاهد. وعن مجاهد أيضا في "ومهدت لـه تمهيدا" أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش.

قولـه تعالى: ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أي ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كلـه أن أزيده في المال والولد ﴿ كلاّ ﴾ أي ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم. وقال الحسن وغيره: أي ثم يطمع أن أدخلـه الجنة، وكان الوليد يقول: إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي؛ فقال الله تعالى ردا عليه وتكذيبا لـه: "كلا" أي لست أزيده، فلم يزل يرى النقصان في مالـه وولده حتى هلك. و"ثم" في قولـه تعالى: "ثم يطمع" ليست بثم التي للنسق ولكنها تعجيب، وهي كقولـه تعالى: ﴿ وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ (الأنعام: ١) وذلك كما تقول: أعطيتك ثم أنت تجفوني؛ كالمتعجب من ذلك. وقيل يطمع أن أترك ذلك في عقبه؛ وذلك أنه كان يقول: إن محمدا مبتور؛ أي أبتر وينقطع ذكره بموته. وكان يظن أن ما رزق لا ينقطع بموته. وقيل: أي ثم يطمع أن أنصره على كفره. و"كلا" قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة؛ فيكون متصلا بالكلام الأول.

وقيل: "كلا" بمعنى حقا ويكون ابتداء ﴿ إنه ﴾ يعني الوليد ﴿ كان لآياتنا عنيدا ﴾ أي معاندا للنبي ﷺ وما جاء به؛ يقال: عاند فهو عنيد مثل جالس فهو جليس؛ قاله مجاهد. وعند يعند بالكسر أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند. والعاند: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عُـنَّد مثل راكع وركع؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثي:

إذا ركبت فاجعلاني وسطا إنـــي كبير لا أطيق العندا

وقال أبو صالح: "عنيدا" معناه مباعدا؛ قال الشاعر:

أرانا على حال تفرق بيننا نوى غربة إن الفراق عنود

قتادة: جاحدا. مقاتل: معرضا. ابن عباس: جحودا. وقيل: إنه المجاهر بعدوانه.

وعن مجاهد أيضا قال: مجانبا للحق معاندا لـه معرضا عنه. والمعنى كلـه متقارب. والعرب تقول: عند الرجل إذا عتا وجاوز قدره. والعنود من الإبل: الذي لا يخالط الإبل، إنما هو في ناحية. ورجل عنود إذا كان يحل وحده لا يخالط الناس. والعنيد من التجبر. وعرق عاند: إذا لم يرقأ دمه. كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة "إبراهيم". وجمع العنيد عُنُد، مثل رغيف ورغُف.

قولـه تعالى: ﴿ سأرهقه ﴾ أي سأكلفه. وكان ابن عباس يقول: سألجئه؛ والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان على الشيء. ﴿ صعودا ﴾ (الصعود: جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي كذلك فيه أبدا)[١] رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، خرَّجه الترمذي وقال فيه حديث غريب. وروى عطية عن أبي سعيد قال: صخرة في جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٣٥٥٢).

عادت، قال: فيبلغ أعلاها في أربعين سنة يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها، فذلك دأبه أبدا. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿ قل أوحي ﴾ (الجن: ١) وفي التفسير: أنه صخرة ملساء يكلف صعودها فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيقوم يهوي ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم، يحترق في كل يوم سبعين مرة ثم يعاد خلقا جديدا. وقال ابن عباس: المعنى سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه. ونحوه عن الحسن وقتادة. وقيل: إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ يعني الوليد فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن و "قدر" أي هيأ الكلام في نفسه، والعرب تقول: قدرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما نزل: ﴿ حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ (غافر: ١) إلى قوله: ﴿ إليه المصير ﴾ سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبا الوليد لتصبون قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزينا؟ فقال له: ما لي أراك حزينا. فقال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليد وتكبر، وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه. فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى: "إنه فكر" أي في أمر محمد والقرآن "وقدر" في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما. ﴿ فقتل ﴾ أي لعن. وكان بعض أهل التأويل يقول: معناها فقهر وغلب، وكل مُذَلَّل مُقَتَّل؛ قال الشاعر امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقال الزهري: عذب؛ وهو من باب الدعاء. ﴿ كيف قدر ﴾ قال ناس: "كيف" تعجيب؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه: كيف فعلت هذا؟ وذلك كقوله: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾

(الإسراء: ٤٨). ﴿ ثم قتل ﴾ أي لعن لعنا بعد لعن. وقيل: فقتل بضرب من العقوبة، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿ كيف قدر ﴾ أي على أي حال قدر. ﴿ ثم نظر ﴾ بأي شيء يرد الحق ويدفعه. ﴿ ثم عبس ﴾ أي قطب بين عينيه في وجوه المؤمنين؛ وذلك أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول في محمد ﷺ بأنه ساحر، مر على جماعة من المسلمين، فدعوه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم.. قيل: عبس وبسر على النبي ﷺ حين دعاه. والعبس مخففا مصدر عبس يعبس عبسا وعبوسا: إذا قطب. والعبس ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها؛ قال أبو النجم:

كأن في أذنابهن الشول من عبس الصيف قرون الأيل

قوله تعالى: ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وجهه وتغير لونه؛ قاله قتادة والسدي؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم:

صبحنا تميما غداة الجفار بشهباء ملمومة باسره

وقال آخر:

وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها

وقيل: إن ظهور العبوس في الوجه بعد المحاورة، وظهور البسور في الوجه قبل المحاورة. وقال قوم: "بسر" وقف لا يتقدم ولا يتأخر. قالوا: وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب، فلم يجئ ولم يذهب: قد بسر المركب، وأبسر أي وقف وقد أبسرنا. والعرب تقول: وجه باسر بيِّن البسور: إذا تغير واسود. ﴿ ثم أدبر ﴾ أي ولى وأعرض ذاهبا إلى أهله. ﴿ واستكبر ﴾ أي تعظم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان واستكبر حين دعي إليه. ﴿ فقال إن هذا ﴾ أي ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ ﴿ إلا سحر يؤثر ﴾ أي يأثره عن غيره. والسحر: الخديعة. وقد تقدم بيانه في سورة (البقرة). وقال قوم: السحر: إظهار الباطل في صورة الحق. والأثرة: مصدر قولك: أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك؛ ومنه قيل: حديث مأثور: أي ينقله خلف عن سلف؛ قال امرؤ القيس:

ولو عن نثا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد
لقلت من القول ما لا يزا ل يؤثر عني يد المسند

يريد: آخر الدهر، وقال الأعشى:

إن الذي فيه تماريتما بيِّن للسامع والآثر

ويروى: بيِّن. ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ أي ما هذا إلا كلام المخلوقين، يختدع به القلوب كما تختدع بالسحر، قال السدي: يعنون أنه من قول سيار عبد لبني الحضرمي، كان يجالس النبي ﷺ، فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك.

وقيل: أراد أنه تلقنه من أهل بابل. وقيل: عن مسيلمة. وقيل: عن عدي الحضرمي الكاهن. وقيل: إنما تلقنه ممن ادعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم. قال أبو سعيد الضرير: إن هذا إلا أمر سحر يؤثر؛ أي يورث.

قولـه تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿سأصليه سقر ﴾ أي سأدخلـه سقر كي يصلى حرها. وإنما سميت سقر من سقرته الشمس: إذا أذابته ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه. ولا ينصرف للتعريف والتأنيث. قال ابن عباس: هي الطبق السادس من جهنم. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (سأل موسى ربه فقال: أي رب، أي عبادك أفقر؟ قال صاحب سقر) ذكره الثعلبي: ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾؟ هذه مبالغة في وصفها؛ أي وما أعلمك أي شيء هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثم فسر حالـها فقال: ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ أي لا تترك لـهم عظماً ولا لحماً ولا دما إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيداً. وقيل: لا تبقي منهم شيئاً ثم يعادون خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبدا. وقال مجاهد: لا تبقي من فيها حيا ولا تذره ميتا، تحرقهم كلما جددوا. وقال السدي: لا تبقي لـهم لحماً ولا تذر لـهم عظماً ﴿ لواحة للبشر ﴾ أي مغيرة من لاحه إذا غيره. وقراءة العامة "لواحة" بالرفع نعت لـ "سقر" في قولـه تعالى: "وما أدراك ما سقر". وقرأ عطية العوفي ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر "لواحةً" بالنصب على الاختصاص، للتهويل. وقال أبو رزين: تلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سوادا من الليل؛ وقالـه مجاهد. والعرب تقول: لاحه البرد والحر والسقم والحزن: إذا غيره، ومنه قول الشاعر:

تقـول ما لاحـك يا مســافر   يا ابنة عمي لاحني الـهواجر

وقال آخر:

وتعجب هند أن رأتني شاحبا   تقـول لشيء لوحته السمائم

وقال رؤبة بن العجاج:

لـوح منـه بعـد بـدن وســنق   تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقيل: إن اللوح شدة العطش؛ يقال: لاحه العطش ولوَّحه أي غيره. والمعنى أنها معطشة للبشر أي لأهلـها؛ قالـه الأخفش؛ وأنشد:

سقتني على لوح من الماء شربة   ســقاها بها الله الرهام الغواديا

يعني باللوح شدة العطش، والتاح أي عطش، والرهام جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرهام. وقال ابن عباس: "لواحة" أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام. الحسن وابن كيسان: تلوح لـهم جهنم حتى يروها عيانا. نظيره: ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ (الشعراء: ٩١) وفي البشر وجهان: أحدهما: أنه الإنس من أهل النار؛ قالـه الأخفش والأكثرون. الثاني: أنه جمع بشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة، وجمع البشر أبشار، وهذا على التفسير الأول، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود؛ لأنه من لاح الشيء يلوح، إذا لمع.

قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها؛ مالك وثمانية عشر ملكا. ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيباً، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم. وعلى هذا أكثر المفسرين. الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. وقال ابن جريج: نعت النبي ﷺ خزنة جهنم فقال: (فكأن أعينهم البرق، وكأن أفواههم الصياصي، يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل).

قلت: وذكر ابن المبارك قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية: "وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر" فقال: ما تسعة عشر؟ تسعة عشر ألف ملك، أو تسعة عشر ملكا؟ قال: قلت: لا بل تسعة عشر ملكاً. فقال: وأنَّى تعلم ذلك؟ فقلت: لقول الله عز وجل: "وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا" قال: صدقت هم تسعة عشر ملكا، بيد كل ملك منهم مِرْزَبَة لها شعبتان، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفاً. وعن عمرو بن دينار: كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. خرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غُلِبَ أصحابك اليوم؛ فقال: (وماذا غُلبوا)؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: (فماذا قالوا)؟ قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. قال: (أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة، علي بأعداء الله! إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدَّرْمَك). فلما جاؤوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال: (هكذا وهكذا) في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: (ما تربة الجنة) قال: فسكتوا هنيهة ثم قالوا: أخبزة يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ: (الخبز من الدرمك). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر. وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: (ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب).

وقال ابن عباس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم.

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى: "وما يعلم جنود ربك إلا هو" وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بجهنم يومئذ لـها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[١]. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل: "عليها تسعة عشر" قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم - أي العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة؛ يقولـها مستهزئا. في رواية: أن الحرث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فنزل قولـه تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي لم نجعلـهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلـهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة، ولا يستروحون إليهم؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب لـه، فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشد خلق الله بأسا وأقواهم بطشا. ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة ﴾ أي بلية. وروي عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذابا، كما قال تعالى: ﴿ يوم هم على النار يفتنون. ذوقوا فتنتكم ﴾ (الذاريات: ١٤). أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب.

وفي "تسعة عشر" سبع قراءات: قراءة العامة "تسْعَةَ عَشَرَ". وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة ابن سليمان "تسْعَةَ عْشَرَ" بإسكان العين. وعن ابن عَباس "تسْعَةُ عَشَرَ" بضم الـهاء. وعن أنس بن مالك "تسْعَةَ وَعَشَرْ" وعنه أيضا "تسْعَةُ وعَشْرُ". وعنه أيضاً "تسْعَةُ أعْشُرُ" ذكرها المهدوي وقال: من قرأ "تسْعَةَ عْشَرَ" أسكن العين لتَوالي الحركات. ومن قرأ "تسْعَةُ وَعَشَرْ" جاء به على الأصل قبل التركيب، وعطف عشرا على تسعة، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها. ومن قرأ "تسْعَةُ عَشَرْ" فكأنه من التداخل؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب، فرفع هاء التأنيث، ثم راجع البنَاء وأسكن. وأما "تسْعَةُ أعْشُرُ": فغير معروف، وقد أنكرها أبو حاتم. وكذلك "تسْعَةُ وَعَشْرُ" لأنها محمولة على "تسعةُ أعْشُرُ" والواو بدل من الـهمزة، وليس لذلك وجه عند النحَويين. الزمخشري: وقرئ: "تسْعَـة أعْشُرُ" جمع عَشير، مثل يَمين وأيْمُن.

قولـه تعالى: ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحّاك ومجاهد وغيرهم. ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام. ويحتمل أنه يريد الكل. ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ بذلك؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

لأنهم كلما صدقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيمانا لتصديقهم بعـدد خزنة جهنـم. ﴿ ولا يرتاب ﴾ أي ولا يشك ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي أعطوا الكتاب ﴿ والمؤمنون ﴾ أي المصدقون من أصحاب محمد ﷺ في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر. ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الـهجرة ولم يكن بمكة نفاق وإنما نجم بالمدينة. وقيل: المعنى؛ أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الـهجرة. ﴿ والكافرون ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ يعني بعدد خزنة جهنم. وقـال الحسين ابن الفضـل: السـورة مكيـة ولـم يكـن بمكـة نفـاق؛ فالمرض في هـذه الآية الخـلاف و ﴿ الكافرون ﴾ أي مشركو العرب. وعلى القول الأول أكثر المفسرين. ويجوز أن يراد بالمرض: الشك والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم قاطعين بالكذب وقولـه تعالى إخبارا عنهم: "ماذا أراد الله" أي ما أراد "بهذا" العدد الذي ذكره حديثا، أي ما هذا من الحديث. قال الليث: المثل الحديث؛ ومنه: "مثل الجنة التي وعد المتقون" أي حديثها والخبر عنها ﴿ كذلك ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿ يضل الله ﴾ أي يخزي ويعمي ﴿ من يشاء ويهدي ﴾ أي ويرشد "من يشاء" كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل: "كذلك يضل الله" عن الجنة "من يشاء ويهدي" إليها "من يشاء". ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أي وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار "إلا هو" أي إلا الله جل ثناؤه، وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يقسم غنائم حنين، فأتاه جبريل فجلس عنده، فأتى ملك فقال: إن ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشي النبي ﷺ أن يكون شيطانا، فقال: (يا جبريل أتعرفه)؟ فقال: هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف. وقال الأوزاعي: قال موسى: "يا رب من في السماء؟ قال ملائكتي. قال كم عدتهم يا رب؟ قال: اثني عشر سبطا. قال: كم عدة كل سبط؟ قال: عدد التراب" ذكرهما الثعلبي. وفي الترمذي عن النبي ﷺ: (أطت السماء وحق لـها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً)[1].

قولـه تعالى: ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل: "وما هي" أي وما هذه النار التي هي سقر "إلا ذكرى" أي عظة "للبشر" أي للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قاله الزجاج. وقيل: أي ما هذه العدة "إلا ذكرى للبشر" أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار؛ فالكناية على هذا في قولـه تعالى: "وما هي" ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾

---

(١) "صحيح"، وقد تقدم تخريجه.

عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿ كلا والقمر﴾ قال الفراء: "كلا" صلة للقسم، التقدير أي والقمر. وقيل: المعنى حقا والقمر؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على "كلا" وأجاز الطبري الوقف عليها، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم؛ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار. ثم أقسم على ذلك جل وعز بالقمر وبما بعده، فقال: ﴿ والليل إذا أدبر﴾ أي ولى وكذلك "دبر". وقرأ نافع وحمزة وحفص "إذ أدبر" الباقون "إذا" بألف و"دبر" بغير ألف وهما لغتان بمعنى؛ يقال دبر وأدبر، وكذلك قبل الليل وأقبل. وقد قالوا: أمس الدابر والمدبر؛ قال صخر بن عمرو بن الشريد السلمي:

ولقد قتلناكم ثناء وموحدا   وتركت مرة مثل أمس الدابر

ويروى المدبر. وهذا قول الفراء والأخفش.

وقال بعض أهل اللغة: دبر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار. وقال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: "والليل إذا دَبَرَ" فسكت حتى إذا دبر قال: يا مجاهد، هذا حين دبر الليل. وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع "والليل إذَا أدْبَرَ" بألفين، وكذلك في مصحف عبد الله وأبي بألفين. وقال قُطرب من قرأ "دَبَرَ" فيعني أقبل، من قول العرب دبر فلان: إذا جاء من خلفي. قال أبو عمرو: وهي لغة قريش. وقال ابن عباس في رواية عنه: الصواب: "أدْبَرَ"، إنما يدبر ظهر البعير. واختار أبو عبيد: "إذا أدبر" قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه؛ ألا تراه يقول: ﴿ والصبح إذا أسفر﴾، فكيف يكون أحدهما "إذ" والآخر "إذا" وليس في القرآن قسم تعقبه "إذ" وإنما يتعقبه "إذا". ومعنى "أسفر": ضاء. وقراءة العامة "أسفر" بالألف. وقرأ ابن السميقع: "سفر". وهما لغتان. يقال: سفر وجه فلان وأسفر: إذا أضاء.

وفي الحديث: (أسفروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر)[1] أي صلوا صلاة الصبح مسفرين، ويقال: طولوها إلى الإسفار، والإسفار: الإنارة. وأسفر وجهه حسنا أي أشرق، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافر. ويجوز أن يكون من سفر الظلام أي كنسه، كما يسفر البيت، أي يكنس؛ ومنه السفير: لما سقط من ورق الشجر وتحات؛ يقال: إنما سمي سفيرا لأن الريح تسفره أي تكنسه. والمسفرة: المكنسة.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٩٧٠).

قولـه تعالى: ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ جواب القسم؛ أي إن هذه النار "لإحدى الكبر" أي لإحدى الدواهي. وفي تفسير مقاتل "الكبر": اسم من أسماء النار. وروي عن ابن عباس "إنها" أي إن تكذيبهم بمحمد ﷺ "لإحدى الكبر" أي لكبيرة من الكبائر. وقيل: أي إن قيام الساعة لإحدى الكبر. والكبر: هي العظائم من العقوبات؛ قال الراجز:

يا ابن المعلى نزلت إحدى الكبر داهيـــة الدهـــــر وصماء الغير

وواحدة (الكُبَر)، كُبرى مثل الصغرى والصغر، والعظمى والعظم. وقرأ العامة (لإحدى) وهو اسم بني ابتداء للتأنيث، وليس مبنيا على المذكر؛ نحو عقبى وأخرى، وألفه ألف قطع، لا تذهب في الوصل. وروى جرير بن حازم عن ابن كثير "إنها لحدى الكبر" بحذف الـهمزة. ﴿ نذيرا للبشر ﴾ يريد النار؛ أي أن هذه النار الموصوفة "نذيرا للبشر" فهو نصب على الحال من المضمر في "إنها" قاله الزجاج. وذكر؛ لأن معناه معنى العذاب، أو أراد ذات إنذار على معنى النسب؛ كقولـهم: امرأة طالق وطاهر. وقال الخليل: النذير: مصدر كالنكير، ولذلك يوصف به المؤنث. وقال الحسن: والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها. وقيل: المراد بالنذير محمد ﷺ؛ أي قم نذيرا للبشر، أي مخوفا لـهم فـ"نَذيرًا" حال من "قم" في أول السورة حين قال: ﴿ قم فأنذر ﴾ (المدثر: ٢) قال أبو علي الفارسي وابن زيد، وروي عن ابن عباس وأنكره الفراء. ابن الأنباري: وقال بعض المفسرين معناه "يا أيها المدثر قم نذيرا للبشر". وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما. وقيل: هو من صفة الله تعالى. روى أبو معاوية الضرير: حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي رزين "نذيرا للبشر" قال: يقول الله عز وجل: أنا لكم منها نذير فاتقوها. و(نذيرا) على هذا نصب على الحال؛ أي "وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة" منذرا بذلك البشر. وقيل: هو حال من "هو" في قولـه تعالى: "وما يعلم جنود ربك إلا هو". وقيل: هو في موضع المصدر، كأنه قال: إنذار للبشر. قال الفراء: يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار، أي أنذر إنذارا؛ فهو كقولـه تعالى: "فكيف كان نذير" أي إنذاري؛ فعلى هذا يكون راجعا إلى أول الـسورة؛ أي (قم فأنذر) أي إنذارا. وقيل: هو منصوب بإضمار فعل. وقرأ ابن أبي عبلة "نذير" بالرفع على إضمار هو. وقيل: أي إن القرآن نذير للبشر، لما تضمنه من الوعد والوعيد.

قولـه تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ اللام متعلقة بـ"نذيرا"، أي نذيرا لمن شاء منكـم أن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره: ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ (الحجر: ٢٤) أي في الخير ﴿ ولقد علمنا المستأخرين ﴾ (الحجر: ٢٤) عنه. قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر؛ كقولـه تعالى: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف: ٢٩) وقال بعض أهل التأويل: معناه لمن شاء الله أن يتقدم أو يتأخر، فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان ابن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدا ﷺ عوقب عقابا لا ينقطع.

وقال السدي: "لمن شاء منكم أن يتقدم" إلى النار المتقدم ذكرها، "أو يتأخر" عنها إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلصها وإما أوبقها. وليست "رهينة" تأنيث رهين في قوله تعالى: ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ (الطور: ٢١) لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. وإنما هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم؛ كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين؛ ومنه بيت الحماسة:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل

كأنه قال: رهن رمس. والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم. واختلف في تعيينهم؛ فقال ابن عباس: الملائكة. علي بن أبي طالب: أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم. الضحاك: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ونحوه عن ابن جريج؛ قال: كل نفس بعملها محاسبة "إلا أصحاب اليمين" وهم أهل الجنة، فإنهم لا يحاسبون. وكذا قال مقاتل أيضا: هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدوا ما كان عليهم. وعن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: هم المسلمون. وقيل: إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان. وقيل: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقال أبو جعفر الباقر: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون. وقال الحكم: هم الذين اختارهم الله لخدمته، فلم يدخلوا في الرهن، لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم. وقال القاسم: كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر، إلا من اعتمد على الفضل والرحمة، دون الكسب والخدمة، فكل من اعتمد على الكسب فهو مرهون، وكل من اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به. ﴿ في جنات ﴾ أي في بساتين ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسألون ﴿ عن المجرمين ﴾ أي المشركين ﴿ ما سلككم ﴾ أي أدخلكم ﴿ في سقر ﴾ كما تقول: سلكت الخيط في كذا أي أدخلته فيه. قال الكلبي: فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان. وفي قراءة عبد الله بن الزبير "يا فلان ما سلكك في سقر"؟ وعنه قال: قرأ عمر بن الخطاب "يا فلان ما سلككم في سقر" وهي قراءة على التفسير؛ لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن؛ قاله أبو بكر بن الأنباري.

وقيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم: "ما سلككم في سقر". قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ﴿ قالوا ﴾ يعني أهل النار ﴿ لم نك من المصلين ﴾ أي المؤمنين الذين يصلون. ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي لم نك نتصدق. ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم - لعنهم الله - كاهن، مجنون، شاعر، ساحر. وقال السدي: أي وكنا نكذب مع المكذبين. وقال قتادة: كلما غوى غاو

غوينا معه. وقيل معناه: وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين. ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ أي لم نك نصدق بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم. قوله تعالى: ﴿حتى أتانا اليقين﴾ أي جاءنا ونزل بنا الموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر: ٩٩).

قوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين؛ وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم، ثم شفع فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى أو عيسى، ثم نبيكم ﷺ، ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ويبقى قوم في جهنم، فيقال لهم: "ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين" إلى قوله: "فما تنفعهم شفاعة الشافعين" قال عبد الله بن مسعود: فهؤلاء هم الذين يبقون في جهنم؛ وقد ذكرنا إسناده في كتاب (التذكرة).

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ (٥٣)﴾

قوله تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي فما لأهل مكة أعرضوا وولوا عما جئتم به. وفي تفسير مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما: الجحود والإنكار، والوجه الآخر: ترك العمل بما فيه. و"معرضين" نصب على الحال من الهاء والميم في "لهم" وفي اللام معنى الفعل؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل. ﴿كأنهم﴾ أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ ﴿حمر مستنفرة﴾ قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية. وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي منفرة مذعورة؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. الباقون بالكسر، أي نافرة. يقال: نفرت واستنفرت بمعنى؛ مثل عجبت واستعجبت، وسخرت واستسخرت، وأنشد الفراء:

أمسك حمارك إنه مستنفر　　في إثر أحمرة عمدن لغرب

قوله تعالى: ﴿فرت﴾ أي نفرت وهربت ﴿من قسورة﴾ أي من رماة يرمونها.

وقال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القسورة. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان: القسورة: هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو ظبيان عن أبي موسى الأشعري. وقيل: إنه الأسد؛ قاله أبو هريرة وابن عباس أيضا. ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر أي؛ إنه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع. وروى أبو جمرة عن

ابن عباس قال: ما أعلم القسورة الأسد في لغة أحد من العرب، ولكنها عصب الرجال؛ قال: فالقسورة جمع الرجال، وأنشد:

يا بنــت كونـــي خيرة لخيرة أخوالـها الجن وأهل القسورة

وعنه: ركز الناس أي حسهم وأصواتهم. وعنه أيضا: "فرت من قسورة" أي من حبال الصيادين. وعنه أيضا: القسورة بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: الرماة؛ وبلسان فارس: شير، وبلسان النبط: أريا. وقال ابن الأعرابي: القسورة: أول الليل؛ أي فرت من ظلمة الليل. وقالـه عكرمة أيضا. وقيل: هو أول سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قسورة. وقال زيد بن أسلم: من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقسور. وقال لبيد بن ربيعة:

إذا ما هتفنا هتـــــفة في ندينا أتانا الرجال العائدون القساور

قولـه تعالى: ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ أي يعطى كتبا مفتوحة؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد! ايتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسـلت إليكم محمدا، ﷺ. نظيره: ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ (الإسراء: ٩٣). وقال ابن عباس: كانوا يقولون إن كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. قال مطر الوراق: أرادوا أن يعطوا بغير عمل. وقال الكلبي: قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وقال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل: إلى فلان بن فلان. وقيل: المعنى أن يذكر بذكر جميل، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازا. وقالوا: إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك؟ ﴿ كلا ﴾ أي ليس يكون ذلك. وقيل: حقا. والأول أجود؛ لأنه رد لقولـهم. ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة، اغترارا بالدنيا. وقرأ سعيد بن جبير "صحفا منشرة" بسكون الحاء والنون، فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ. إنما يقال: نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت. ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت، كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه نشر الله الميت، فهي لغة فيه.

قولـه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أي حقا إن القرآن عظة. ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي اتعظ به. ﴿ وما يذكرون ﴾ أي وما يتعظون ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لـهم. وقراءة العامة "يَذْكُرُون" بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقولـه تعالى: "كلا بل لا يخافون

الآخرة" . وقرأ نافع ويعقوب بالتاء، واختاره أبو حاتم، لأنه أعم واتفقوا على تخفيفها . ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ في الترمذي وسنن ابن ماجه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية : "هو أهل التقوى وأهل المغفرة" قال : (قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلـها فأنا أهل أن أغفر لـه) لفظ الترمذي، وقال فيه : حديث حسن غريب . وفي بعض التفسير : هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضا للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار .

وقال محمد بن نصر : أنا أهل أن يتقيني عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلا أن أغفر لـه وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم .

سورة القيامة

مكيّة، وهي تسع وثلاثون آية.

قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قيل: إن "لا" صلة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولـهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقولـه تعالى: ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (الحجر: ٦). ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة؛ ومثلـه قول الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة فكاد صميم القلب لا يتقطع

وحكى أبو الليث السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى "لا أقسم": أقسم. واختلفوا في تفسير: "لا" قال بعضهم: "لا" زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة (لا) كما قال في آية أخرى: ﴿ قال ما منعك أن تسجد ﴾ (ص: ٧٥). يعني أن تسجد، وقال بعضهم: "لا": رد لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفراء؛ قال الفراء: وكثير من النحويين يقولون "لا" صلة، ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم (في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ) وذلك كقولـهم لا والله لا أفعل فـ"لا" رد لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحق، كأنك أكذبت قوما أنكروه. وأنشد غير الفراء لامرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

وقال غوية بن سلمى:

ألا نادت أمامة باحتمال لتحزنني فلا بك ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم في الرد. قال الفراء: وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ "لأقسم" بغير ألف؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لأقسم بالله وهي قراءة الحسن وابن كثير والزهري وابن هرمز ﴿ بيوم القيامة ﴾ أي بيوم يقوم الناس فيه لربهم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء. ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيما لشأنه ولم يقسم بالنفس. وعلى قراءة ابن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية.

وقيل: "ولا أقسم بالنفس اللوامة" رد آخر وابتداء قسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. ومعنى: "بالنفس اللوامة" أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول:

ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: إنها ذات اللوم.

وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغا حسنا. وفي بعض التفسير: إنه آدم عليه السلام لم يزل لائما لنفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة. وقيل: اللوامة بمعنى الملومة المذمومة عن ابن عباس أيضا - فهي صفة ذم وهو قول من نفى أن يكون قسما؛ إذ ليس للعاصي خطر يقسم به، فهي كثيرة اللوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. وقال الفراء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانا، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رفاتا. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة: ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي لتبعثن؛ ودل عليه قوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ للإحياء والبعث. والإنسان هنا الكافر المكذب للبعث. الآية نزلت في عدي بن ربيعة قال للنبي ﷺ: حدثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به، أو يجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبي ﷺ يقول: (اللهم اكفني جاري السوء عدي بن ربيعة، والأخنس بن شريق). وقيل: نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت. وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالب الخلق. ﴿ بلى ﴾ وقف حسن ثم تبتدئ ﴿ قادرين ﴾. قال سيبويه: على معنى نجمعها قادرين، فـ "قادرين" حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير. وقيل: المعنى بلى نقدر قادرين. قال الفراء: "قادرين" نصب على الخروج من "نجمع" أي نقدر ونقوى "قادرين" على أكثر من ذلك. وقال أيضا: يصلح نصبه على التكرير أي "بلى" فليحسبنا قادرين. وقيل: المضمر (كنا) أي كنا قادرين في الابتداء، وقد اعترف به المشركون. وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميقع "بلى قادرون" بتأويل نحن قادرون. ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدها بنانة؛ قال النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وقال عنترة:

وأن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندواني

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضا فإنها أصغر العظام، فخصها بالذكر لذلك.

قال القتبي والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السلاميات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر. وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى "على أن نسوي بنانه" أي نجعل

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء. وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تبسطهن، وتقبضهن بهن، ولو شاء الله لجمعهن فلم تتق الأرض إلا بكفيك. وقيل: أي نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ (الواقعة: ٦١).

قلت: والتأويل الأول أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القتبي وغيره: أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نقب إبله ودبرها، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله؛ فقال الأعرابي:

أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر

فاغفر له اللهم إن كان فجر

يعني إن كان كذبني فيما ذكرت. وعن ابن عباس أيضا: يعجل المعصية ويسوف التوبة. وفي بعض الحديث قال: يقول سوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشر أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت. وقيل: أي يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان. وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحق. "يسأل أيان يوم القيامة" أي متى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم "برق" بفتح الراء، معناه: لمع بصره من شدة شخوصه، فتراه لا يطرف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة. وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة "إذا برق البصر. وخسف القمر" والباقون بالكسر "برق" ومعناه: تحير فلم يطرف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما. قال ذو الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعـــــينيه مي سافرا كاد يبرق

الفراء والخليل: "برق" بالكسر: فزع وبهت وتحير. والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت: قد برق فهو برق؛ وأنشد الفراء:

فنفسك فانع ولا تنعني وداو الـكلوم ولا تبرق

أي لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. وقيل: برق يبرق بالفتح: شق عينيه وفتحهما. قالـه أبو عبيدة؛ وأنشد قول الكلابي:

لما أتانـــي ابن عمير راغبا أعطيته عيـسا صهابا فبرق

أي فتح عينيه. وقيل: إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى.

قولـه تعالى: ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوءه. والخسوف في الدنيا إلى الجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ (القصص: ٨١). وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: "وخسف القمر" بضم الخاء وكسر السين يدل عليه "وجمع الشمس والقمر". وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كلـه فهو الخسوف. ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه؛ قالـه الفراء والزجاج.

قال الفراء: ولم يقل جمعت؛ لأن المعنى جمع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر.

وقال الكسائي: هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان. المبرد: التأنيث غير حقيقي. وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة "الأنعام". وفي قراءة عبد الله "وجمع بين الشمس والقمر" وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقال علي وابن عباس: يجعلان في (نور) الحجب. وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عبدا من دون الله ولا تكون النار عذابا لـهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. وفي مسند أبي داود الطيالسي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار)[١].

وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدة الحر؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم. وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار.

قولـه تعالى: ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أي يقول ابن آدم، ويقال: أبو جهل؛ أي أين المهرب؟ قال الشاعر:

أين المفر والكباش تنتطـــح وأي كبش حاد عنها يفتضح

الماوردي: ويحتمل وجهين: أحدهما: "أين المفر" من الله استحياء منه. الثاني: "أين المفر" من جهنم حذرا منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: أحدهما: أن يكون من الكافر خاصة في

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٦٤٣).

عرضة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. الثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لـهول ما شاهدوا منها. وقراءة العامة "المفر" بفتح الفاء واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم؛ قال الكسائي: هما لغتان مثل مدب ومدب، ومصح ومصح. وعن الزهري بكسر الميم وفتح الفاء. المهدوي: من فتح الميم والفاء من "المفر" فهو مصدر بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفر إليه. ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيد الفرار ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول امرئ القيس:

مكـــر مفـــر مقـــبل مدبـــر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

يريد أنه حسن الكر والفر جيده. ﴿ كلا ﴾ أي لا مفر فـ"كلا" رد وهو من قول الله تعالى. . ثم فسر هذا الرد فقال: ﴿ لا وزر ﴾ أي لا ملجأ من النار. وكان ابن مسعود يقول: لا حصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وابن عباس يقول: لا ملجأ. وابن جبير: لا محيص ولا منعة. المعنى في ذلك كلـه واحد. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لعمري ما للفتى من وزر مـــن الموت يدركه والكبر

قال السدي: كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصنوا في الجبال، فقال الله لـهم: لا وزر يعصمكم يومئذ مني؛ قال طرفة:

ولقـــد تعلـــم بكـــر أننـــا فاضلو الرأي وفي الروع وزر

أي ملجأ للخائف. ويروى: وقر. ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي المنتهى؛ قاله قتادة: نظيره: ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ (النجم: ٤٢). وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع. قيل: أي المستقر في الآخرة حيث يقره الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم.

وقيل: إن "كلا" من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس لـه مفر قال لنفسه: "كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر".

قولـه تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان ﴾ أي يخبر ابن آدم برا كان أو فاجراً ﴿ بما قدم وأخر ﴾: أي بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده؛ قالـه ابن عباس وابن مسعود. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبأ بأول عملـه وآخره. وقالـه النخعي. وقال ابن عباس أيضا: أي بما قدم من المعصية، وأخر من الطاعة. وهو قول قتادة. وقال ابن زيد: "بما قدم" من أموالـه لنفسه "وأخر": خلف للورثة. وقال الضحاك: ينبأ بما قدم من فرض، وأخر من فرض. قال القشيري: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأول أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه من حديث الزهري، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مما يلحق المؤمن من عملـه وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه،

أو صدقة أخرجها من مالـه في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)[١] وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر لـه بعد موته)[٢] فقولـه: (بعد موته وهو في قبره) نص على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عملـه، وإن كان يبشر بذلك في قبره. ودل على هذا أيضا قولـه الحق: ﴿ وليحملن أثقالـهم وأثقالا مع أثقالـهم﴾ (العنكبوت: ١٣) وقولـه تعالى: ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ (النحل: ٢٥) وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح: (من سَنّ في الإسلام سُنّة حسنة كان لـه أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[٣].

قولـه تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ قال الأخفش: جعلـه هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ابن عباس: "بصيرة" أي شاهد، وهو شهود جوارحه عليه: يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفراء:

كـأن على ذي العقل عينا بصيرة   بمقعــده أو مــنظر هــو ناظــره
يحاذر حتى يحسب الناس كلـهم   من الخــوف لا تخفى عليهم سرائره

ودليل هذا التأويل من التنزيل قولـه تعالى: ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلـهم بما كانوا يعملون﴾ (النور: ٢٤). وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارح، لأنها شاهدة على نفس الإنسان؛ فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة؛ قال معناه القتبي وغيره. وناس يقولون: هذه الـهاء في قولـه: "بصيرة" هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالـهاء في قولـهم: داهية وعلامة وراوية. وهو قول أبي عبيد. وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر؛ يدل عليه قولـه تعالى: "ولو ألقى معاذيره" فيمن جعل المعاذير الستور. وهو قول السدي والضحاك. وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة؛ أي شاهد فحذف حرف الجر. ويجوز أن يكون "بصيرة" نعتا لاسم مؤنث فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة؛ وأنشد الفراء:

كأن على ذي العقل عيناً بصيرة

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٢٣١).
(٢) "حسن" انظر صحيح الجامع (٣٦٠٢).
(٣) أخرجه مسلم وغيره.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ يعني بصير بعيوب غيره، جاهل بعيوب نفسه ﴿ولو ألقى معاذيره ﴾. أي ولو أرخى ستوره. والستر بلغة أهل اليمن: معذار؛ قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنها ضنت بمنزل ساعة   علينا وأطت فوقها بالمعاذر

قال الزجاج: المعاذر: الستور، والواحد معذار؛ أي وإن أرخى ستره؛ يريد أن يخفى عمله، فنفسه شاهدة عليه. وقيل: أي ولو اعتذر فقال لم أفعل شيئا، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذب عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفراء والسدي أيضا ومقاتل. قال مقاتل: أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيره قوله تعالى: ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ (غافر: ٥٢) وقوله: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات: ٣٦) فالمعاذير على هذا: مأخوذ من العذر؛ قال الشاعر:

وإياك والأمر الذي إن توسعت   موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه   وليس له من سائر الناس عاذر

واعتذر رجل إلى إبراهيم النخعي فقال له: قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب. وقال ابن عباس: "ولو ألقى معاذيره" أي لو تجرد من ثيابه. حكاه الماوردي.

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب؛ ومنه قول النابغة:

ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت   فإن صاحبها مشارك النَّكَد

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام: ٢٣) وقوله تعالى في المنافقين: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ (المجادلة: ١٨). وفي الصحيح أنه يقول: (يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع)[١] الحديث. وقد تقدم في "حم السجدة" وغيرها. والمعاذير والمعاذر: جمع معذرة؛ ويقال: عذرته فيما صنع أعذره عُذْراً وعُذُراً، والاسم المعذرة والعذرى؛ قال الشاعر:

إني حددت ولا عذرى لمحدود

وكذلك العذرة وهي مثل الركبة والجلسة؛ قال النابغة:

ها إن تا عذرة إلا تكن نفعت   فإن صاحبها قد تاه في البلد

وتضمنت هذه الآية خمس مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بن العربي قوله تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره ﴾: فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (النور: ٢٤) ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وهي المسألة:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

الثانية : وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (آل عمران: ٨١) ثم قال تعالى: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ (التوبة: ١٠٢) وهو في الآثار كثير؛ قال النبي ﷺ: (اغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها)[1]. فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقر أن فلانا ابنه، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرار الذي أقر إلا على نفسه في حصته من مال أبيه، يعطى الذي شهد له قدر الدين الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ابنين ويترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلانا ابنه، فيكون على الذي شهد للذي استحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحق لو لحق، وإن أقر له الآخر أخذ المائة الأخرى فاستكمل حقه وثبت نسبه. وهو أيضا بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم، إن كانت امرأة فورثت الثمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه، وإن كانت ابنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه، على حساب هذا يدفع إليه من أقر له من النساء.

الثالثة: لا يصح الإقرار إلا من مكلف، لكن بشرط ألا يكون محجورا عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحق نفسه، فإن كان لحق غيره كالمريض كان منه ساقط، ومنه جائز. وبيانه في مسائل الفقه. وللعبد حالتان في الإقرار: إحداهما في ابتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم. والثانية في انتهائه، وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ست: الصورة الأولى: أن يقول له عندي شيء، قال الشافعي: لو فسره بتمرة أو كسرة قبل منه. والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قدر، فإذا فسره به قبل منه وحلف عليه. الصورة الثانية: أن يفسر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالا في الشريعة: لم يقبل باتفاق ولو ساعده عليه المقر له. الصورة الثالثة: أن يفسره بمختلف فيه مثل جلد الميتة أو سرقين أو كلب، فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من رد وإمضاء فإن رده لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله، وقال بعض أصحاب الشافعي: يلزم الخمر والخنزير، وهو قول باطل.

وقال أبو حنيفة: إذا قال له علي شيء لم يقبل تفسيره إلا بمكيل أو موزون، لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعاً. الصورة الرابعة: إذا قال له: عندي مال قبل تفسيره بما لا يكون مالا في العادة كالدرهم والدرهمين، ما لم يجئ من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه.

الصورة الخامسة: أن يقول له: عندي مال كثير أو عظيم؛ فقال الشافعي: يقبل في الحبة. وقال أبو حنيفة: لا يقبل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالا مختلفة، منها نصاب السرقة

---

(١) صحيح.

والزكاة والدية وأقله عندي نصاب السرقة، لأنه لا يبان عضو المسلم إلا في مال عظيم. وبه قال أكثر الحنفية. ومن يعجب فيتعجب لقول الليث بن سعد: إنه لا يقبل في أقل من اثنين وسبعين درهما. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾(التوبة: ٢٥) وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين. وهذا لا يصح؛ لأنه أخرج حنينا منها، وكان حقه أن يقول يقبل في أحد وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾(الأحزاب: ٤١)، وقال: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾(النساء: ١١٤)، وقال: ﴿والعنهم لعنا كبيرا﴾ (الأحزاب: ٦٨). الصورة السادسة: إذا قال له: عندي عشرة أو مائة أو ألف فإنه يفسرها بما شاء ويقبل منه، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهما فإنه يفسر المبهم ويقبل منه. وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرا؛ كقوله: مائة وخمسون درهما؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين، والخمسين تفسير للمائة. وقال ابن خيران الإصطخري من أصحاب الشافعي: الدرهم لا يكون تفسيرا في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويفسر هو المائة بما شاء.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يقبل منه. وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعدما أقر في الحدود التي هي خالص حق الله؛ فقال أكثرهم منهم الشافعي وأبو حنيفة: يقبل رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجها صحيحا.

والصحيح جواز الرجوع مطلقا؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبي ﷺ رد المقر بالزنى مرارا أربعا كل مرة يعرض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي ﷺ وقال: (أبك جنون) قال: لا. قال: (أحصنت) قال: نعم[1]. وفي حديث البخاري: (لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت)[2]. وفي النسائي وأبي داود: حتى قال له في الخامسة (أجامعتها) قال: نعم. قال: (حتى غاب ذلك منك في ذلك منها) قال: نعم. قال: (كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر). قال: نعم. ثم قال: (هل تدري ما الزنى) قال: نعم، أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالا. قال: (فما تريد مني)؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فرجم[3]. قال الترمذي وأبو داود: فلما وجد مس الحجارة فر يشتد، فضربه رجل بلحى جمل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبي ﷺ: (هلا تركتموه)[4] وقال أبو داود والنسائي: ليتثبت رسول الله ﷺ، فأما لترك حد فلا. وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله. وفي قوله ﷺ: (لعلك قبلت أو غمزت) إشارة إلى قول مالك: إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجها.

---

(١)أخرجه البخاري (٦٨٢٥)، ومسلم (١٦٩١).
(٢)أخرجه البخاري (٦٨٢٤).
(٣)صحيح.
(٤)صحيح.

الخامسة: وهذا في الحر المالك لأمر نفسه، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يقر على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرق لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه؛ ودليلنا قوله ﷺ: (من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله، فإن من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد)[1]. المعنى: أن محل العقوبة أصل الخلقة، وهي (الدمية) في الآدمية، ولا حق للسيد فيها، وإنما حقه في الوصف والتبع، وهي المالية الطارئة عليه؛ ألا ترى أنه لو أقر بمال لم يقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقر له. وقال علماؤنا: السلعة للسيد ويتبع العبد بقيمتها إذا عتق؛ لأن مال العبد للسيد إجماعا، فلا يقبل قوله فيه ولا إقراره عليه، لا سيما وأبو حنيفة يقول: إن العبد لا ملك له ولا يصح أن يملك ولا يملك، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملكه. ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: "لا تحرك به لسانك لتعجل به" قال: فكان يحرك به شفتيه[2]. وحرك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ مسلم عن ابن جبير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفتيه، فقال لي ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما؛ فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه: ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قال فاستمع له وأنصت. ثم إن علينا أن نقرأه؛ قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما أقرأه؛ خرجه البخاري أيضا. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ (طه: ١١٤) وقد تقدم. وقال عامر الشعبي: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبه له، وحلاوته في لسانه، فنهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض، وقيل: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ (طه: ١١٤) ونزل: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ (الأعلى: ٦) ونزل: "لا تحرك به لسانك" قاله ابن عباس "وقرآنه" أي وقراءته عليك. والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران. وقال قتادة: "فاتبع قرآنه" أي فاتبع

(١) "صحيح" أخرجه مالك في "الموطأ" وغيره.
(٢) وهو في البخاري (٥).

شرائعه وأحكامه. وقوله: ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام؛ قاله قتادة. وقيل: ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقيل: أي إن علينا أن نبينه بلسانك. قوله تعالى: ﴿ كلا ﴾ قال ابن عباس: أي إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه. وقيل: أي (كلا) لا يصلون ولا يزكّون يريد كفار مكة. ﴿ بل تحبون ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿ العاجلة ﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وتذرون ﴾ أي تدعون ﴿ الآخرة ﴾ والعمل لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة الجنة. وقرأ أهل المدينة والكوفيون "بل تحبون" "وتذرون" بالتاء فيهما على الخطاب واختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو اختيار أبي حاتم، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان ﴾ (القيامة: ١٣) وهو بمعنى الناس. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود؛ نظيره: ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ (الإنسان: ٢٧).

قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ الأول من النضرة التي هي الحسن والنعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نضرهم الله ينضرهم نضرة ونضارة وهو الإشراق والعيش والغنى؛ ومنه الحديث (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها)[1]. "إلى ربها" إلى خالقها ومالكها "ناظرة" من النظر أي تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صهيب خرجه مسلم وقد مضى في "يونس" عند قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس: ٢٦). وكان ابن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية؛ ثم تلا هذه الآية: "وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة" وروى يزيد النحوي عن عكرمة قال: تنظر إلى ربها نظرا. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربهم.

وقيل: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. وروي عن ابن عمر ومجاهد. وقال عكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماوردي عن ابن عمر وعكرمة أيضا. وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ (الأنعام: ١٠٣) وهذا القول ضعيف جدا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفي الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية) ثم قرأ رسول الله ﷺ: "وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة"[2] قال هذا حديث غريب. وقد روي عن ابن عمر ولم يرفعه. وفي صحيح مسلم عن أبي

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٧٦٥).
(٢) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (١٣٨٢).

بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل وعز إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[١]. وروى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا). ثم قرأ "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب"[٢] متفق عليه. وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.
وخرج أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه؟ قال ابن معاذ: مخليا به يوم القيامة؟ قال: (نعم يا أبا رزين) قال: وما آية ذلك في خلقه؟ قال: (يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر) قال ابن معاذ: ليلة البدر مخليا به. قلنا: بلى. قال: (فالله أعظم) قال ابن معاذ قال: (فإنما هو خلق من خلق الله ـ يعني القمر ـ فالله أجل وأعظم)[٣]. وفي كتاب النسائي عن صهيب قال: (فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر، ولا أقر لأعينهم) وفي التفسير لأبي إسحاق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (يتجلى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرون لـه سجدا، فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة).

قال الثعلبي: وقول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شيء من خلقه، فتأويل مدخول، لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته؛ كما قال تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ (الزخرف: ٦٦)، ﴿ هل ينظرون إلا تأويلـه ﴾ (الأعراف: ٥٣)، و﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ (يس: ٤٩) وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقرونا بذكر إلى، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان. وقال الأزهري: إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقولـه العرب؛ لأنهم يقولون نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته؛ قال:

فإنكـما إن تنظـراني ســـــاعة   من الدهر تنفعني لدى أم جندب

لما أراد الانتظار قال تنظراني، ولـم يقل تنظران إلي؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه؛ قال:

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لقفال

وقال آخر:

نظرت إليها بالمحصب من منى   ولـي نظـــر لولا التحرج عارم

وقال آخر:

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) ضعيف.

إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

أي إني أنظر إليك بذل؛ لأن نظر الذل والخضوع أرق لقلب المسؤول؛ فأما ما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فإنما ذلك في الدنيا. وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفى. وقال عطية العوفي: ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظره يحيط بها؛ يدل عليه: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ (الأنعام: ١٠٣) قال القشيري أبو نصر: وقيل: "إلى" واحد الآلاء: أي نعمه منتظرة وهذا أيضا باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نعمه الدفع، وهم في الجنة لا ينتظرون دفع نقمه عنهم، والمنتظر للشيء متنغص العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك. وقيل: أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ (المائدة: ١١٩) والماء يجري في النهر لا النهر. ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين؛ قال الله تعالى: ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ﴾ (يوسف: ٩٣) أي على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غدا، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ أفمن يمشي مكبا على وجهه ﴾ (الملك: ٢٢)، فقيل: يا رسول الله! كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: (الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم)[1]. ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ أي وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة. وفي الصحاح: وبسر الفحل الناقة وابتسرها: إذا ضربها من غير ضبعة. وبسر الرجل وجهه بسورا أي كلح؛ يقال: عبس وبسر. وقال السدي: "باسرة" أي متغيرة والمعنى واحد. ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فقرته الفاقرة: أي كسرت فقار ظهره. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة الشر. السدي: الهلاك. ابن عباس وابن زيد: دخول النار. والمعنى متقارب وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم؛ قاله الأصمعي. يقال: فقرت أنف البعير: إذا حززته بحديدة ثم جعلت على موضع الحز الجرير وعليه وتر ملوي، لتذلله بذلك وتروضه؛ ومنه قولهم: قد عمل به الفاقرة. وقال النابغة:

أبى لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ "كلا" ردع وزجر؛ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم استأنف فقال: "إذا بلغت التراقي" أي بلغت النفس أو الروح التراقي؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر، لعلم المخاطب به؛ كقوله تعالى: ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص: ٣٢) وقوله تعالى: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ (الواقعة: ٨٣) وقد تقدم. وقيل: "كلا" معناه حقا؛ أي حقا أن المساق إلى الله "إذا بلغت التراقي" أي إذا ارتقت النفس إلى التراقي. وكان ابن عباس يقول: إذا بلغت نفس

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

الكافر التراقي. والتراقي جمع ترقوة وهي العظام المكتنفة لنقرة النحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر، موضع الحشرجة؛ قال دريد بن الصمة:

ورب عظيمة دافعت عنهم   وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت.

قولـه تعالى: ﴿ وقيل من راق ﴾ اختلف فيه؛ فقيل: هو من الرقية؛ عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما. روى سماك عن عكرمة قال: من راق يرقي: أي يشفي. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس: أي هل من طبيب يشفيه؛ وقاله أبو قلابة وقتادة؛ وقال الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واق   أم هـل لـه من حمام الموت من راق

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس؛ أي من يقدر أن يرقي من الموت.

وعن ابن عباس أيضا وأبي الجوزاء أنه من رقي يرقى: إذا صعد، والمعنى: من يرقى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن ملك الموت يقول من راق؟ أي من يرقى بهذه النفس؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملك الموت: يا فلان اصعد بها. وأظهر عاصم وقوم النون في قولـه تعالى: "من راق" واللام في قولـه: "بل ران" لئلا يشبه مراق وهو بائع المرقة، وبران في تثنية البر. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف في "من راق"، وفتحة النون في "بل ران" تكفي في زوال اللبس. وأمثل مما ذكر: قصد الوقف على "من" و"بل"، فأظهرهما؛ قالـه القشيري.

قولـه تعالى: ﴿ وظن ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿ أنه الفراق ﴾ أي فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. قال الشاعر:

فـراق ليـس يشـــبهه فراق   قد انقطع الرجاء عن التلاق

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي فاتصلت الشدة بالشدة؛ شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة؛ قالـه ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد ابن المسيب والحسن أيضا: هما ساقا الإنسان إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضا: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوًّالا. قال النحاس: القول الأول أحسنها. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "والتفت الساق بالساق" قال: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله؛ أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلع؛ والدليل على هذا قولـه تعالى: ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ وقال مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن والشدائد العظام؛ ومنه قولـهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة "ن والقلم". وقال قوم: الكافر تعذب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده: ﴿ إلى ربك ﴾ أي إلى خالقك ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ المساق ﴾ أي المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه ملكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمساق: المصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول.

قولـه تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ أي لم يصدق أبو جهل ولم يصل. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أول السورة، وهو اسم جنس. والأول قول ابن عباس. أي لم يصدق بالرسالة "ولا صلى" ودعا لربه، وصلى على رسولـه. وقال قتادة: فلا صدق بكتاب الله، ولا صلى لله. وقيل: ولا صدق بمال لـه، ذخرا لـه عند الله، ولا صلى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي: "لا" بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره؛ تقول العرب: لا عبد الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا محسن حتى يقال ولا مجمل، وقولـه تعالى: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ (البلد: ١١) ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه أفلا اقتحم؛ أي فهلا اقتحم، فحذف ألف الاستفهام. وقال الأخفش: "فلا صدق" أي لم يصدق؛ كقولـه: "فلا اقتحم" أي لم يقتحم، ولم يشترط أن يعقبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل؛ ومنه قول زهير:

فلا هو أبداها ولم يتقدم

قولـه تعالى: ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أي كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثم ذهب إلى أهلـه يتمطى ﴾ أي يتبختر، افتخارا بذلك؛ قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به أبو جهل. وقيل: "يتمطى" من المطا وهو الظهر، والمعنى يلوي مطاه. وقيل: أصلـه يتمطط، وهو التمدد من التكسل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحق؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف، والتمطي يدل على قلة الاكتراث، وهو التمدد، كأنه يمد ظهره ويلويه من التبختر. والمطيطة الماء الخاثر في أسفل الحوض؛ لأنه يتمطى أي يتمدد؛ وفي الخبر: (إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم)[١]. والمطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي.

قولـه تعالى: ﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾ تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي فهو وعيد أربعة لأربعة؛ كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهل بربه فقال: "فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى" أي لا صدق رسول الله، ولا وقف بين يدي فصلى، ولكـن كذب رسولي، وتولى عن التصلية بين يدي. فترك التصديق خصلة، والتكذيب خصلة، وترك الصلاة خصلة،

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٨٠١).

والتولي عن الله تعالى خصلة؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربع. والله أعلم. لا يقال: فإن قولـه: "ثم ذهب إلى أهلـه يتمطى" خصلة خامسة؛ فإنا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولي، فأخبر عنها. وذلك بيِّن في قول قتادة على ما نذكره. وقيل: إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم، فاستقبلـه أبو جهل على باب المسجد، مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزه مرة أو مرتين ثم قال: (أولى لك فأولى) فقال لـه أبو جهل: أتهددني؟ فوالله إني لأعز أهل الوادي وأكرمه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

فأولـى ثم أولى ثم أولـى وهل للدر يحلب من مرد

قال قتادة: أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر، فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: (أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى). فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئا، إني لأعز من بين جبليها. فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال: لا يعبد الله بعد هذا اليوم أبدا. فضرب الله عنقه، وقتلـه شر قتلة.

وقيل: معناه: الويل لك؛ ومنه قول الخنساء:

هممت بنفسي كل الـهموم فـأولى لنفسـي أولى لـهـا
سـأحمـل نفـسي على آلة فـإمـا علـيها وإما لـهـا

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضا الذي يحمل عليه الميت؛ وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب؛ كأنه قيل: أويل، ثم أخر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيا، والويل لك ميتا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار؛ وهذا التكرير كما قال:

لك الويلات إنك مرجلي

أي لك الويل، ثم الويل، ثم الويل، وضعف هذا القول. وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب. وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي "أولى" في كلام العرب معناه مقاربة الـهلاك، كأنه يقول: قد وليت الـهلاك، قد دانيت الـهلاك؛ وأصلـه من الولي، وهو القرب؛ قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ (التوبة: ١٢٣) أي يقربون منكم؛ وأنشد الأصمعي:

وأولى أن يكون لـه الولاء

أي قارب أن يكون لـه؛ وأنشد أيضا:

أولى لمن هاجت لـه أن يكمدا

أي قد دنا صاحبها من الكمد. وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعي ويقول: ليس أحد يفسر كتفسير الأصمعي. النحاس: العرب تقول أولى لك: كدت تهلك ثم أفلت، وكأن تقديره: أولى لك وأولى بك الـهلكة. المهدوي قال: ولا تكون أولى (أفعل منك)، وتكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى لـه من غيره؛ لأن أبا زيد قد حكى: أولاة الآن: إذا أوعدوا. فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك. و"لك" خبر عن "أولى". ولم ينصرف "أولى" لأنه صار علما للوعيد، فصار كرجل اسمه أحمد. وقيل: التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السيئ الأول، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ أي يظن ابن آدم ﴿ أن يترك سدى ﴾ أي أن يخلى مهملا، فلا يؤمر ولا ينهى؛ قاله ابن زيد ومجاهد، ومنه إبل سدى: ترعى بلا راع.

وقيل: أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبدا لا يبعث. وقال الشاعر:

فأقسم بالله جهد اليميـــــ ـــن ما ترك الله شيئاً سدى

قولـه تعالى: ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي من قطرة ماء تمنى في الرحم، أي تراق فيه؛ ولذلك سميت (مني) لإراقة الدماء. وقد تقدم. والنطفة: الماء القليل؛ يقال: نطف الماء: إذا قطر. أي ألم يك ماء قليلا في صلب الرجل وترائب المرأة.

وقرأ حفص "من مني يمنى" بالياء، وهي قراءة ابن محيصن ومجاهد ويعقوب وعياش عن أبي عمرو، واختاره أبو عبيد لأجل المني. الباقون بالتاء لأجل النطفة، واختاره أبو حاتم. ل﴿ ثم كان علقة ﴾ أي دما بعد النطفة، أي قد رتبه تعالى بهذا كلـه على خسة قدره. ثـم قال: ﴿ فخلق ﴾ أي فقدر ﴿فسوى ﴾ أي فسواه تسوية، وعدلـه تعديلا، بجعل الروح فيه ﴿ فجعل منه ﴾ أي من الإنسان. وقيل: من المني. ﴿ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أي الرجل والمرأة. وقد احتج بهذا من رأى إسقاط الخنثى. وقد مضى في سورة "الشورى" أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب. وقد مضى في أول سورة "النساء" أيضا القول فيه، وذكرنا في آية المواريث حكمه، فلا معنى لإعادته. ﴿ أليس ذلك بقادر ﴾ أي أليس الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطـرة من مـاء ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قـرأهـا قال: (سبحانك اللهم، بلى) وقال ابن عباس: من قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ (الأعلى: ١) إماما كان أو غيره فليقل: "سبحان ربي الأعلى" ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ (القيامة: ١) إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل: "سبحانك اللهم، بلى" ذكره الثعلبي من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ختمت السورة والحمد لله.

سورة الإنسان

مقدمة السورة:

وهي إحدى وثلاثون آية.

مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكي، من قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ (الإنسان: ٢٣) إلى آخر السورة، وما تقدمه مدني.

وذكر ابن وهب قال: وحدثنا ابن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر" وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: لا تثقل على النبي ﷺ، قال: (دعه يا ابن الخطاب) قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه. فقال رسول الله ﷺ: (أخرج نفس صاحبكم ـ أو أخيكم ـ الشوق إلى الجنة)[1] وروي عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي. وقال القشيري: إن هذه السورة نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ. والمقصود من السورة عام. وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ "هل": بمعنى قد؛ قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة. وقد حكي عن سيبويه "هل" بمعنى قد. قال الفراء: هل تكون جحدا، وتكون خبرا، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى. والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي. وروي عن ابن عباس. "حين من الدهر" قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنة مرت به، قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. وعن ابن عباس أيضا في رواية الضحاك أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وزاد ابن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور ها هنا: لا يعرف مقداره؛ عن ابن عباس أيضا، حكاه الماوردي. "لم يكن شيئا مذكورا" قال الضحاك عن ابن عباس: لا في السماء ولا في الأرض. وقيل: أي كان جسدا مصورا ترابا وطينا، لا يذكر ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح، فصار مذكورا؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب. وقال يحيى بن سلام: لم يكن شيئا مذكورا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا.

---

(١) ضعيف.

وقيل: ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر؛ تقول: فلان مذكور أي لـه شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾(الزخرف: ٤٤). أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن لـه قدر عند الخليقة. ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحملـه الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال، ظهر فضلـه على الكل، فصار مذكورا. قال القشيري: وعلى الجملة ما كان مذكورا للخلق، وإن كان مذكورا لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء: "لم يكن شيئا" قال: كان شيئا ولم يكن مذكورا.

وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء؛ أي قد مضى مدد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل: قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة كانت بعد الإنسان.

وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئا مذكورا؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كلـه، ولم يخلق بعده حيوانا.

وقد قيل: "الإنسان" في قولـه تعالى "هل أتى على الإنسان حين" عني به الجنس من ذرية آدم، وأن الحين تسعة أشهر، مدة حمل الإنسان في بطن أمه "لم يكن شيئا مذكورا": إذ كان علقة ومضغة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر لـه. وقال أبو بكر ﷺ لما قرأ هذه الآية: ليتها تمت فلا نبتلى. أي ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئا مذكورا تمت على ذلك، فلا يلد ولا يبتلى أولاده. وسمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلا يقرأ "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" فقال ليتها تمت.

قولـه تعالى: ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ أي ابن آدم من غير خلاف ﴿ من نطفة ﴾ أي من ماء يقطر وهو المني، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه:

ما لي أراك تكرهين الجنهْ ... هل أنت إلا نطفة في شنهْ

وجمعها: نطف ونطاف. ﴿ أمشاج ﴾: أخلاط. واحدها: مشج ومشيج، مثل خدن وخدين؛ قال: رؤبة:

يطرحن كل معجل نشـــاج ... لم يُكس جلدا في دم أمشاج

ويقال: مشجت هذا بهذا أي خلطته، فهو ممشوج ومشيج؛ مثل مخلوط وخليط. وقال المبرد: واحد الأمشاج: مشيج؛ يقال: مشج يمشج: إذا خلط، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم؛ قال الشماخ:

طوت أحشاء مرتجة لوقت ... علـى مشـج سلالته مهين

وقال الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعلقة. ويقال للشيء من هذا إذا خلط: مشيج كقولك خليط، وممشوج كقولك مخلوط. وروي عن ابن عباس ﷺ قال: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة. وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الـهذلي:

كـان الريـــش والفوقــين منه ... خلاف النصل سيط به مشيج

وعن ابن عباس أيضا قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة. وقد روي هذا مرفوعا؛ ذكره البزار.

وروي عن ابن مسعود: أمشاجها عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء. وقال ابن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم. ونحوه قال قتادة: هي أطوار الخلق: طور نطفة وطور علقة وطور مضغة وطور عظام ثم يكسو العظام لحما؛ كما قال في سورة "المؤمنون" ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (المؤمنون: ١٢) الآية. وقال ابن السكيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: برمة أعشار وثوب أخلاق. وروي عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة؟ فقال: (ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا علا ماء المرأة آنثت وإذا علا ماء الرجل أذكرت)[1] فقال الحبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وقد مضى هذا القول مستوفى في سورة "البقرة".

قوله تعالى: ﴿ نبتليه ﴾ أي نختبره. وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: أحدهما: نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي. الثاني: نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء؛ قاله الحسن. وقيل: "نبتليه" نكلفه. وفيه أيضا وجهان: أحدهما: بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل. الثاني: بالدين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي. وروي عن ابن عباس: "نبتليه": نصرفه خلقا بعد خلق؛ لنبتليه بالخير والشر. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم ﴿ فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ لنبتليه، وهي مقدمة معناها التأخير.

قلت: لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة. وقيل: "جعلناه سميعا بصيرا": يعني جعلنا له سمعا يسمع به الهدى، وبصرا يبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (البلد: ١٠). وقال مجاهد: أي بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسدي: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله. ﴿ إما شاكرا وإما كفورا ﴾ أي أيهما فعل فقد بينا له. قال الكوفيون: "إن" ها هنا تكون جزاء و"ما" زائدة أي بينا له الطريق إن شكر أو كفر. واختاره الفراء ولم يجزه البصريون؛ إذ لا تدخل "إن" للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. وقيل: أي هديناه الرشد، أي بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن، وإن خذلناه كفر. وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك؛ أي فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا "إما شاكرا" والله أعلم. ويقال: هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل. وقد تقدم في "الفاتحة" وغيرها. وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفيا للمبالغة في الشكر وإثباتا لها في

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقل شكره، لكثرة النعم عليه وكثرة كفره وإن قل مع الإحسان إليه. حكاه الماوردي.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ﴾ بين حال الفريقين، وأنه تعبد العقلاء وكلفهم ومكنهم مما أمرهم، فمن كفر فلـه العقاب، ومن وحد وشكر فلـه الثواب. والسلاسل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في "الحاقة". وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر "سلاسلاً" منونا. الباقون بغير تنوين. ووقف قنبل وابن كثير وحمزة بغير ألف. الباقون بالألف. فأما "قوارير" الأول فنونه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم، ولم ينون الباقون. ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما "قوارير" الثانية فنونه أيضا نافع والكسائي وأبو بكر، ولم ينون الباقون. فمن نون قرأها بالألف، ومن لم ينون أسقط منها الألف، واختار أبو عبيد التنوين في الثلاثة، والوقف بالألف اتباعا لخط المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان "سلاسلا" بالألف و"قواريرا" الأول بالألف، وكان الثاني مكتوبا بالألف فحكت فرأيت أثرها هناك بينا. فمن صرف فلـه أربع حجج: أحدها: أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت. الثانية: أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك، وكذا قال الكسائي والفراء: هو على لغة من يجر الأسماء كلـها إلا قولـهم هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم:

كأن سيوفنا فينا وفيهم   مخاريق بأيدي لاعبينـا

وقال لبيد:

وجزور أيسار دعوت لحتفها   بمغالق متشـابه أجســـامها

وقال لبيد أيضا:

فضلا وذو كرم يعين على الندى   سمح كســوب رغائب غنامها

فصرف مخاريق ومغالق ورغائب، وسبيلـها ألا تصرف. والحجة الثالثة: أن يقول نونت قوارير الأول لأنه رأس آية، ورؤوس الآي جاءت بالنون، كقولـه جل وعز: "مذكورا". "سميعا بصيرا" فنونا الأول ليوقف بين رؤوس الآي، ونونا الثاني على الجوار للأول. والحجة الرابعة: اتباع المصاحف، وذلك أنهما جميعا في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف. وقد احتج من لم يصرفهن بأن قال: إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدد لم يصرف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك: قناديل ودنانير ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل: ﴿ لـهدمت صوامع ﴾ (الحج: ٤٠) لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قولـه: ﴿ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ (الحج: ٤٠). والذي بعد الألف منه حرف مشدد شواب ودواب. وقال خلف: سمعت يحيى بن آدم يحدث عن ابن إدريس قال: في المصاحف الأول

الحرف الأول بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف. وأما أفعل منك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك منونا؛ لأن من تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ وأغلالا ﴾ جمع غل تغل بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جبير بن نفير عن أبي الدرداء كان يقول: ارفعوا هذه الأيدي إلى الله جل ثناؤه قبل أن تغل بالأغلال. قال الحسن: إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الرب سبحانه ولكن إذلالا. ﴿وسعيرا ﴾ تقدم القول فيه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس ﴾ الأبرار: أهل الصدق واحدهم بر، وهو من امتثل أمر الله تعالى. وقيل: البر الموحد والأبرار جمع بار مثل شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بر مثل نهر وأنهار؛ وفي الصحاح: وجمع البر الأبرار، وجمع البار البررة، وفلان يبر خالقه ويتبرره أي يطيعه، والأم برة بولدها. وروى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: (إنما سماهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حقا). وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذر. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر.

وفي الحديث: (الأبرار الذين لا يؤذون أحداً). ﴿يشربون من كأس ﴾ أي من إناء فيه الشراب. قال ابن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب: وإذا لم يكن فيه شراب لم يسم كأسا. قال عمرو بن كلثوم:

صَبَنْت الكأسَ عنا أمَّ عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا

وقال الأصمعي: يقال صَبنت عنا الـهدية أو ما كان من معروف تصبن صبنا: بمعنى كففت؛ قالـه الجوهري. ﴿كان مزاجها ﴾ أي شوبها وخلطها، قال حسان:

كأن سبيئة من بيت رأس   يكون مزاجها عسلٌ وماء

ومنه مزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة. ﴿ كافورا ﴾ قال ابن عباس: هو اسم عين ماء في الجنة، يقال لـه عين الكافور. أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافورا. وقال سعيد عن قتادة: تمزج لـهم بالكافور وتختم بالمسك. وقاله مجاهد. وقال عكرمة: مزاجها طعمها. وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب؛ كقولـه تعالى: ﴿حتى إذا جعلـه نارا ﴾ (الكهف: ٩٦) أي كنار. وقال ابن كيسان: طيب بالمسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لـها القلوب. وقولـه: "كان مزاجها" "كان" زائدة أي من

كأس مزاجها كافور. ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ قال الفراء: إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة؛ "فعينا" بدل من كافور على هذا. وقيل: بدل من كأس على الموضع. وقيل: هي حال من المضمر في "مزاجها". وقيل: نصب على المدح؛ كما يذكر الرجل فتقول: العاقل اللبيب؛ أي ذكرتم العاقل اللبيب فهو نصب بإضمار أعني. وقيل يشربون عينا. وقال الزجاج: المعنى من عين. ويقال: كافور وقافور. والكافور أيضا: وعاء طلع النخل وكذلك الكفرى؛ قالـه الأصمعي. وأما قول الراعي:

تكســو المفارق واللبات ذا أرج   من قصب معتلف الكافور دراج

فإن الظبي الذي يكون منه المسك إنما يرعى سنبل الطيب فجعلـه كافورا. ﴿ يشرب بها ﴾ قال الفراء: يشرب بها ويشربها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها يروى بها وينقع؛ وأنشد:

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لـهن نئيج

قال: ومثلـه فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاما حسنا. وقيل: المعنى يشربها والباء زائدة وقيل: الباء بدل "من" تقديره يشرب منها؛ قالـه القتبي. ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ فيقال: إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازلـه على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبـعه حـيثما صـعد إلـى أعلى قصوره؛ وذلك قولـه تعالى: ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ أي يشققونها شقا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد "يفجرونها تفجيرا" يقودونها حيث شاءوا وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم. وروى أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله "يفجرونها تفجيرا" (والأخرى الزنجبيل) والأخريان نضاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله "عينا فيها تسمى" "سلسبيلا" والأخرى التسنيم)(١) ذكره الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول". وقال: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لـهم، والكافور للأبرار شربا لـهم؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب، فما كان للأبرار مزاج فهو للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقربون: هم الصديقون.

قولـه تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يوفون بالنذر ﴾ أي لا يخلفون إذا نذروا. وقال معمر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله جل ثناؤه. وقال الفراء والجرجاني: وفي الكلام إضمار؛ أي كانوا يوفون بالنذر

(١) "ضعيف".

في الدنيا. والعرب قد تزيد مرة "كان" وتحذف أخرى. والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حده: النذر: هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكلبي: "يوفون بالنذر" أي يتممون العهود والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾ (الحج: ٢٩) أي أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوي قول قتادة.

وأن النذر يندرج فيه ما التزمه المرء بإيمانه من امتثال أمر الله؛ قاله القشيري.

وروى أشهب عن مالك أنه قال: "يوفون بالنذر" هو نذر العتق والصيام والصلاة.

وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك. "يوفون بالنذر" قال: النذر: هو اليمين.

قوله تعالى: ﴿ ويخافون ﴾ أي يحذرون ﴿ يوما ﴾ أي يوم القيامة. ﴿ كان شره مستطيرا ﴾ أي عاليا داهياً فاشياً وهو في اللغة ممتداً؛ والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة واستطال: إذا امتد؛ قال الأعشى:

وبانت وقد أسأرت في الفؤا د صدعا على نأيها مستطيراً

ويقال: استطار الحريق: إذا انتشر. واستطار الفجر إذا انتشر الضوء.

وقال حسان:

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

وكان قتادة يقول: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض.

وقال مقاتل: كان شره فاشيا في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه.

قوله تعالى: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له. وقال الداراني: على حب الله. وقال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سكرا فإن الربيع يحب السكر. ﴿ مسكينا ﴾ أي ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو الطواف يسألك مالك ﴿ ويتيما ﴾ أي من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أن يتيما كان يحضر طعام ابن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعدما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسويق وعسل؛ فقال: دونك هذا، فوالله ما غبنت؛ قال الحسن وابن عمر: والله ما غبن.

﴿ وأسيرا ﴾ أي الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأسير هو المحبوس. وكذا قال سعيد بن جبير وعطاء: هو المسلم يحبس بحق. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابن عباس. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وأن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه.

وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير المرأة، يدل عليه قوله ﷺ: (استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم)[1] أي أسيرات. وقال أبو سعيد الخدري: قرأ رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٦)، وابن ماجه (١٨٥٠) واللفظ له.

ﷺ: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً) فقال: (المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أب لـه، والأسير المملوك والمسجون) ذكره الثعلبي. وقيل: نسخ إطعام المسكين آية الصدقات؛ وإطعام الأسير (آية) السيف؛ قاله سعيد بن جبير. وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلا أن يتخير فيه الإمام. الماوردي: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خبلـه وجنونه، وأسر المشرك انتقام يقف على رأي الإمام؛ وهذا بر وإحسان. وعن عطاء قال: الأمير من أهل القبلة وغيرهم.

قلت: وكأن هذا القول عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. والله أعلم.

ومضى القول في المسكين واليتيم والأسير واشتقاق ذلك من اللغة في "البقرة" مستوفى والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير "إنما نطعمكم" في الله جل ثناؤه فزعا من عذابه وطمعا في ثوابه. ﴿ لا نريد منكم جزاء ﴾ أي مكافأة. ﴿ولا شكورا ﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك؛ قال ابن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جبير حكاه عنه القشيري. وقيل: إن هذه الآية نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري نذر نذرا فوفى به. وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة ﷺ؛ ذكره الماوردي. وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينا ويتيما وأسيرا. وقال أبو حمزة الثمالي: بلغني أن رجلا قال يا رسول الله أطعمني فإني والله مجهود؛ فقال: (والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن اطلب) فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسألـه؛ وأخبره بقول النبي ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه واسقه. ثم أتى النبي ﷺ يتيم فقال: يا رسول الله! أطعمني فإني مجهود. فقال: (ما عندي ما أطعمك ولكن اطلب) فاستطعم ذلك الأنصاري فقالت المرأة: أطعمه واسقه، فأطعمه. ثم أتى النبي ﷺ أسير فقال: يا رسول الله! أطعمني فإني مجهود. فقال: (والله ما معي ما أطعمك ولكن اطلب) فجاء الأنصاري فطلب، فقالت المرأة: أطعمه واسقه. فنزلت: "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا"[1] ذكره الثعلبي. وقال أهل التفسير: نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لـهما اسمها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلا حسنا؛ فهي عامة.

وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قولـه عز وجل: "يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" قال: مرض

---

(١) ضعيف.

الحسن والحسين فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجعفي عن قنبر مولى علي قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن ـ رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم ـ لو نذرت عن ولديك شيئا، وكل نذر ليس لـه وفاء فليس بشيء. فقال رضي الله عنه: إن برأ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت جارية لـهم نوبية: إن برأ سيداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت فاطمة مثل ذلك. وفي حديث الجعفي فقال الحسن والحسين: علينا مثل ذلك فألبس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق علي إلى شمعون بن حاريا الخيبري، وكان يهوديا، فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير، فجاء به، فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلى علي مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه. وفي حديث الجعفي: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد ـ في حديث الجعفي ـ أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه علي رضي الله عنه، فأنشأ يقول:

فـاطم ذات الفضل واليقين	يـا بنت خير الناس أجمعين
أمـا تـرين الـبائس المسكين	قـد قـام بالـباب لـه حنين
يشــكو إلى الله ويســتكين	يشـكو إلينـا جـائع حزين
كـل امـرئ بكسبه رهـين	وفـاعل الخـيرات يسـتبين
موعدنــا جــنة علـــيين	حـرمها الله عـلى الضـنين
وللبخـيل موقـف مهـين	تهـوي بـه النار إلى سجين
شرابه الحـميم والغسلين	من يفعل الخير يقم سـمين

ويدخل الجنة أي حين

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمـرك عندي يا ابن عم طاعه	مـا بي من لؤم ولا وضاعه
غذيـت في الخـبز لـه صناعه	أطعمـه ولا أبـالي الساعه
أرجـو إذا أشبعت ذا المجاعه	أن ألحق الأخيار والجماعه

وأدخل الجنة لي شفاعه

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئا إلا الماء القراح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلى علي مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العقبة. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه علي فأنشأ يقول:

فاطم بنت السيد الكريم بنت نبي ليس بالزنيم
لقد أتى الله بذي اليتيم من يرحم اليوم يكن رحيم
ويدخل الجنة أي سليم قد حرم الخلد على اللئيم
ألا يجوز الصراط المستقيم يزل في النار إلى الجحيم
شرابه الصديد والحميم

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أطعمه اليوم ولا أبالي وأوثر الله على عيالي
أمسوا جياعا وهمُ أشبالي أصغرهم يقتل في القتال
بكربلا يقتل باغتيال يا ويل للقاتل مع وبال
تهوي به النار إلى سفال وفي يديه الغل والأغلال
كبولة زادت على الأكبال

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئا إلا الماء القراح؛ فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلى علي مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل، فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا! أطعموني فإني أسير محمد. فسمعه علي فأنشأ يقول:

فاطم يا بنت النبي أحمد بنت نبي سيد مسود
وسماه الله فهو محمد قد زانه الله بحسن أغيد
هذا أسير للنبي المهتد مثقل في غله مقيد
يشكو إلينا الجوع قد تمدد من يطعم اليوم يجده في غد
عند العلي الواحد الموحد ما يزرع الزارع سوف يحصد
أعطيه لا لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:

لم يبق مما جاء غير صاع قد ذهبت كفي مع الذراع
ابناي والله هما جياع يا رب لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع يصطنع المعروف بابتداع
عبل الذراعين شديد الباع وما على رأسي من قناع
إلا قناعا نسجه أنساع

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئا إلا الماء القراح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع؛ فلما أبصرهم رسول الله ﷺ قال: (يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة) فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها،

وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال: (وا غوثاه يا الله، أهل بيت محمد يموتون جوعاً) فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئاً في أهل بيتك. قال: (وما آخذ يا جبريل) فأقرأه "هل أتى على الإنسان حين من الدهر" إلى قوله: "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا"[1] قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديث مزوق مزيف، قد تطرف فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ (البقرة: ٢١٩) وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأن (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى). (وابدأ بنفسك ثم بمن تعول)[2] وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ: (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)[3] أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانا صغارا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله ﷺ ما بهم من الجهد. هب أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهب أن أهله سمحت بذلك لعلي فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلي مثل هذا. وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة؟

فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى بلغني أن قوما يخلدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيده أكثر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ "عبوسا" من صفة اليوم، أي يوما تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى نخاف يوما ذا عبوس. وقال ابن عباس يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران. وعن ابن عباس: العبوس: الضيق، والقمطرير: الطويل؛ قال الشاعر وهو حذيفة بن أنس الهذلي:

شديدا عبوسا قمطريرا

وقيل: القمطرير الشديد؛ تقول العرب: يوم قمطرير وقماطر وعصيب بمعنى؛ وأنشد الفراء:

---

(١) موضوع لا يغتر به، وانظر كلام الحكيم الترمذي بعده.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٦).

(٣) "حسن" انظر صحيح الجامع (٤٤٨١).

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر

بضم القاف. واقمطر إذا اشتد. وقال الأخفش: القمطرير: أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء؛ قال الشاعر:

ففروا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر

وقال الكسائي: يقال اقمطر اليوم وازمهر اقمطرارا وازمهرارا، وهو القمطرير والزمهرير، ويوم مقمطر إذا كان صعبا شديدا؛ قال الهذلي:

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطرة ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، والقمطرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ابن الأعرابي:

يغدو على الصيد يعود منكسر ويقمطر ساعة ويكفهر

وقال أبو عبيدة: يقال رجل قمطرير أي متقبض ما بين العينين. وقال الزجاج: يقال اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها، وزمت بأنفها؛ فاشتقه من القطر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعصة:

واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشطر قمطرير الصباح

قوله تعالى: ﴿ فوقاهم الله ﴾ أي دفع عنهم ﴿ شر ذلك اليوم ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿ ولقاهم ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقوه أي رأوه ﴿ نضرة ﴾ أي حسنا ﴿ وسرورا ﴾ أي حبوراً. قال الحسن ومجاهد: "نضرة" في وجوههم "وسرورا" في قلوبهم. وفي النضرة ثلاثة أوجه: أحدها: أنها البياض والنقاء؛ قاله الضحاك. الثاني: الحسن والبهاء؛ قاله ابن جبير. الثالث: أنها أثر النعمة؛ قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ على الفقر. وقال القرظي: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه. و"ما": مصدرية، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا. وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: (الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب)[1]. ﴿ جنة وحريرا ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير. أي يسمى بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة (وفيه) ما شاء الله عز وجل من الفضل. وقد تقدم: أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما ألبسه من ألبسه في الجنة عوضا عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها.

---

(١) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في الجنة؛ ونصب "متكئين" على الحال من الـهاء والميم في "جزاهم" والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها "صبروا"؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة. وقال الفراء: وإن شئت جعلت "متكئين" تابعا، كأنه قال جزاهم جنة "متكئين فيها". ﴿على الأرائك﴾ السرر في الحجال وقد تقدم. وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: أحدها الأريكة لا تكون إلا في حجلة على سرير، ومنها السجل، وهو الدلو الممتلئ ماء، فإذا صفرت لم تسم سجلا، وكذلك الذنوب لا تسمى ذنوبا حتى تملأ، والكأس لا تسمى، كأسا حتى تترع من الخمر. وكذلك الطبق الذي تهدى عليه الـهدية مهدى، فإذا كان فارغا قيل طبق أو خوان؛ قال ذو الرمة:

خدود جفت في السير حتى كأنما يباشـرن بالمعـزاء مـس الأرائك

أي الفرش على السرر. ﴿ لا يرون فيها شمسا ﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حر كحر الشمس ﴿ولا زمهريرا﴾ أي ولا بردا مفرطا؛ قال الأعشى:

منعمـة طفـلة كالمهاة لم تر شمسا ولا زمهريرا

وعن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (اشتكت النار إلى ربها عز وجل قالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فجعل لـها نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون من الحر في الصيف من سمومها)[1]. وعن النبي ﷺ أنه قال: (إن هواء الجنة سجسج: لا حر ولا برد) والسجسج: الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مرة الـهمداني: الزمهرير البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رؤوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألوا الله أن يعذبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوما واحدا. قال أبو النجم:

أو كنت ريحا كنت زمهريرا

وقال ثعلب: الزمهرير: القمر بلغة طيء؛ قال شاعرهم:

وليلة ظلامها قد اعتـكر قطعتها والزمهرير ما زهر

ويروى: ما ظهر؛ أي لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمسا كشمس الدنيا ولا قمرا كقمر الدنيا، أي إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجودا في سورة "مريم" عند قولـه تعالى: ﴿ ولـهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ (مريم: ٦٢). وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نورا ظنوه شمسا قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: "لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا" فما هذا النور؟ فيقول لـهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعلي ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: "هل أتى على الإنسان" وأنشد:

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

أنـا مـولى لفـتى أنـزل فيه هـل أتى
ذاك علـي المرتضى وابـن عم المصطفى

قولـه تعالى: ﴿ ودانية عليهم ظلالـها ﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مظلة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثم؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث ثم. ويقال: إن ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام، فإذا اشتهى ولي الله ثمرتها دانت حتى يتناولـها. وانتصبت "دانية" على الحال عطفا على "متكئين" كما تقول: في الدار عبد الله متكئا ومرسلة عليه الحجال. وقيل: انتصبت نعتا للجنة؛ أي وجزاهم جنة دانية، فهي صفة لموصوف محذوف. وقيل: على موضع "لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا" ويرون دانية. وقيل: على المدح أي دنت دانية. قالـه الفراء. "ظلالـها" الظلال مرفوعة بدانية، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الـهاء والميم في "وجزاهم" وقد قرئ بذلك. وفي قراءة عبد الله "ودانيا عليهم" لتقدم الفعل. وفي حرف أبي "ودان" رفع على الاستئناف ﴿ وذللت ﴾ أي سخرت لـهم ﴿ قطوفها ﴾ أي ثمارها ﴿ تذليلا ﴾ أي تسخيرا، فيتناولـها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك؛ قالـه قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ارتفعت لـه، وإن جلس تدلت عليه، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها. وعنه أيضا: أرض الجنة من ورق، وترابها الزعفران، وطيبها مسك أذفر، وأصول شجرها ذهب وورق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كلـه؛ فمن أكل منها قائما لم تؤذه، ومن أكل منها قاعدا لم تؤذه، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذه.

وقال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتذليل القطوف تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد قطف بكسر القاف، سمي به لأنه يقطف، كما سمي الجنى لأنه يجنى. "تذليلا" تأكيد لما وصف به من الـذل؛ كقولـه: ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ (الإسراء: ١٠٦) ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ (النساء: ١٦٤). الماوردي: ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لـهم من أكمامها، وتخلص لـهم من نواها.

قلت: وفي هذا بعد؛ فقد روى ابن المبارك، قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زمرد أخضر، وكربها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عجم.

قال أبو جعفر النحاس: ويقال المذلل الذي قد ذلّله الماء أي أرواه. ويقال المذلل الذي يفيئه أدنى ريح لنعمته، ويقال المذلل المسوى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذلل نخلك أي سوه، ويقال المذلل القريب المتناول، من قولـهم: حائط ذليل أي قصير. قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول امرئ القيـس:

وساق كأنبوب السقي المذلل[1]

---

(١) هذا عجز بيت للشاعر، وصدره:

وكشحٍ لطيف كالجديل مخصر

قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ أي يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب "بآنية من فضة" قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء؛ أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ﴾(الزخرف: ٧١). وقيل: نبه بذكر الفضة على الذهب؛ كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر ﴾(النحل: ٨١) أي والبرد؛ فنبه بذكر أحدهما على الثاني. والأكواب: الكيزان العظام التي لا آذان لها ولا عرى، الواحد منها كوب؛ وقال عدي:

متكئا تقرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى في "الزخرف" ﴿كانت قوارير * قوارير من فضة ﴾أي في صفاء القوارير وبياض الفضة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضة. وقيل: أرض الجنة من فضة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ابن عباس وقال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضة. وقال: لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير. ﴿قدروها تقديرا ﴾قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي قدرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدر ريهم، بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي: وذلك ألذ وأشهى؛ والمعنى: قدرتها الملائكة التي تطوف عليهم. وعن ابن عباس أيضا: قدروها على ملء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر. وقيل: إن الشاربين قدروا لها مقادير في أنفسهم على ما اشتهوا وقدروا. وقرأ عبيد بن عمير والشعبي وابن سيرين "قدروها" بضم القاف وكسر الدال؛ أي جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءة المهدوي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما؛ وقال: ومن قرأ "قدروها" فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، وكأن الأصل قدروا عليها فحذف الجر؛ والمعنى قدرت عليهم؛ وأنشد سيبويه:

آليت حب العراق الدهر آكله والحب يأكله في القرية السوس

وذهب إلى أن المعنى على حب العراق. وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿قدروها تقديرا ﴾أي لا يفضل عن الري ولا ينقص منه، فقد ألهمت الأقداح معرفة مقدار ري المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القول الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول".

قوله تعالى: ﴿ ويسقون فيها كأسا ﴾وهي الخمر في الإناء. ﴿كان مزاجها زنجبيلا ﴾ "كان" صلة؛ أي مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلا. وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج

بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب. وقال المسيب بن علس يصف ثغر المرأة:

وكأن طعم الزنجبيل به   إذ ذقته وسلافة الخمر

ويروى: الكرم. وقال آخر:

كـأن جـنيا مـن الزنجبيـــ   ـل بات بفيها وأريا مشورا

ونحوه قول الأعشى:

كأن القرنفـل والزنجبيـــ   ـل باتا بفيها وأريا مشورا

وقال مجاهد: الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: والزنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة. وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل. وقيل: إن فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل. والمعنى كأن فيها زنجبيلا. ﴿عينا﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينا. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقـدم في قولـه تعالى: ﴿عينا يشـرب بها عبـاد الله﴾ (الإنسان: ٦). ﴿فيها﴾ أي في الجنـة ﴿تسمى سلسبيلا﴾ السلسبيل الشراب اللذيذ، وهو فعليل من السلالة؛ تقول العرب: هذا شراب سلس وسلسال وسلسل وسلسبيل بمعنى؛ أي طيب الطعم لذيذه. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق جرى، وسلسلته أنا صببته فيه، وماء سلسل وسلسال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسلاسل بالضم مثلـه.

وقال الزجاج: السلسبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السلاسة؛ فكأن العين سميت بصفتها. وعن مجاهد قال: سلسبيلا: حديدة الجرية تسيل في حلوقهم انسلالا.

ونحوه عن ابن عباس: إنها الحديدة الجري. ذكره الماوردي؛ ومنه قول حسان بن ثابت ﷺ:

يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سميت سلسبيلا؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلـهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة. وقال قتادة: سلسة منقاد ماؤها حيث شاءوا. ونحوه عن عكرمة. وقال القفال: أي تلك عين شريفة فسل سبيلا إليها. وروي هذا عن علي ﷺ. وقولـه: "تسمى" أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم. وصرف سلسبيل؛ لأنه رأس آية؛ كقولـه تعالى: ﴿الظنونا﴾ (الأحزاب: ١٠) و﴿السبيلا﴾ (الأحزاب: ٦٧).

قولـه تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ بيّن من الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي ويخدمهم ولدان مخلدون، فإنهم أخف في الخدمة. ثم قال: "مخلدون" أي باقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة. وقيل: مخلدون لا يموتون. وقيل: مسوررون مقرطون؛ أي محلون والتخليد التحلية. وقد تقدم هذا. ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم: لؤلؤا مفرقا في عرصة المجلس، واللؤلؤ إذا نثر على بساط كان أحسن منه منظوما. وعن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل، وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نثرت عليه نساء دار الخليفة اللؤلؤ، فنظر إليه منثورا على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال: لله در أبي نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأن صـــغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهن لا يمتهن بالخدمة.

قولـه تعالى: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾ "ثم": ظرف مكان أي هناك في الجنة، والعامل في "ثم" معنى "رأيت" أي وإذا رأيت ببصرك "ثم". وقال الفراء: في الكلام "ما" مضمرة؛ أي وإذا رأيت ما ثم؛ كقولـه تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ (الأنعام: ٩٤) أي ما بينكم. وقال الزجاج: "ما" موصولة "بثم" على ما ذكره الفراء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن "رأيت" يتعدى في المعنى إلى "ثم" والمعنى: إذا رأيت ببصرك "ثم" ويعني "بثم" الجنة، وقد ذكر الفراء هذا أيضا.

والنعيم: سائر ما يتنعم به. والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم؛ قاله السدي وغيره. قال الكلبي: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزلـه، فيستأذن عليه؛ فذلك الملك العظيم. وقالـه مقاتل بن سليمان. وقيل: الملك الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبا، حاجبا دون حاجب، فبينما ولي الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه ملك من عند الله، قد أرسلـه الله بكتاب وهدية وتحفة من رب العالمين لم يرها ذلك الولي في الجنة قط، فيقول للحاجب الخارج: استأذن على ولي الله فإن معي كتابا وهدية من رب العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسول من رب العالمين، معه كتاب وهدية يستأذن على ولي الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي ولي الله فيقول لـه: يا ولي الله! هذا رسول من رب العالمين يستأذن عليك، معه كتاب وتحفة من رب العالمين أفيؤذن لـه؟ فيقول: نعم! فأذنوا لـه. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نعم فأذنوا لـه. فيقول الذي يليه للآخر كذلك حتى يبلغ الحاجب الآخر. فيقول لـه: نعم أيها الملك؛ قد أذن لك، فيدخل فيسلم عليه ويقول: السلام يقرئك السلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من رب العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليه: من الحي الذي لا يموت، إلى الحي الذي يموت. فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي، يا وليي

أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربك؟ فيستخفه الشوق فيركب البراق فيطير به البراق شوقا إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال سفيان الثوري: بلغنا أن الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ (الرعد: ٢٣) وقيل: الملك الكبير كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك. وقال الترمذي الحكيم: يعني ملك التكوين، فإذا أرادوا شيئا قالوا له كن. وقال أبو بكر الوراق: ملك لا يتعقبه هلك. وفي الخبر عن النبي ﷺ: (إن الملك الكبير هو ـ أن ـ أدناهم منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه) قال: (وإن أفضلهم منزلة من ينظر في وجه ربه تعالى كل يوم مرتين) سبحان المنعم.

قوله تعالى: ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن "عاليهم" ساكنة الياء، واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود وابن وثاب وغيرهما "عاليتهم" وبتفسير ابن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثياب يعلوها أفضل منها. الفراء: وهو مرفوع بالابتداء وخبره "ثياب سندس" واسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون إفراده على أنه اسم فاعل متقدم و"ثياب" مرتفعة به وسدت مسد الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يخص، وابتدئ به لأنه اختص بالإضافة. وقرأ الباقون "عاليهم" بالنصب. وقال الفراء: هو كقولك فوقهم، والعرب تقول: قومك داخل الدار فينصبون داخل على الظرف، لأنه محل. وأنكر الزجاج هذا وقال: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء. ولكنه بالنصب على الحال من شيئين: أحدهما: الهاء والميم في قوله: "يطوف عليهم" أي على الأبرار "ولدان" عاليا الأبرار ثياب سندس؛ أي يطوف عليهم في هذه الحال، والثاني: أن يكون حالا من الولدان؛ أي "إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا" في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي: العامل في الحال إما "لقاهم نضرة وسرورا" وإما "جزاهم بما صبروا" قال: ويجوز أن يكون ظرفا فصرف. المهدوي: ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفا؛ كقولك هو ناحية من الدار، وعلى أن عاليا لما كان بمعنى فوق أجري مجراه فجعل ظرفا. وقرأ ابن محيصن وابن كثير وأبو بكر عن عاصم "خضر" بالجر على نعت السندس "وإستبرق" بالرفع نسقا على الثياب، ومعناه عاليهم (ثياب) سندس وإستبرق. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب "خضر" رفعا نعتا للثياب "وإستبرق" بالخفض نعتا للسندس، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهي مرفوعة، وأحسن ما عطف الإستبرق على السندس عطف جنس على جنس، والمعنى: عاليهم ثياب خضر من سندس وإستبرق، أي من هذين النوعين. وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون "خضر" نعتا للثياب؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع "وإستبرق" عطفا على الثياب. وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي كلاهما بالخفض ويكون قوله: "خضر" نعتا للسندس، والسندس اسم جنس، وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له؛ وتقول: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض؛ ولكنه مستبعد في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عاليهم ثياب سندس خضر وثياب إستبرق.

وكلهم صرف الإستبرق، إلا ابن محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ "وإستبرق" نصبا في موضع الجر، على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم (ابن محيصن) أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب. وقرئ "واستبرق" بوصل الهمزة والفتح على أنه سمي باستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضا، لأنه معرب مشهور تعريبه، وأن أصله استبرك والسندس: ما رق من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وحلوا ﴾ عطف على "ويطوف". ﴿ أساور من فضة ﴾ وفي سورة فاطر ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ وفي سورة الحج ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ﴾ (الحج: ٢٣)، فقيل: حلي الرجل الفضة وحلي المرأة الذهب. وقيل: تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن الجنة؛ قاله سعيد بن المسيب. وقيل: أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم. ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ قال علي ﷺ في قوله تعالى: "وسقاهم ربهم شرابا طهورا" قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعث أشعارهم أبدا، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ (الزمر: ٧٣). وقال النخعي وأبو قلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طهرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رشح مسك، وضمرت بطونهم. وقال مقاتل: هو من عين ماء على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد، وما كان في جوفه من أذى وقذر. وهذا معنى ما روي عن علي، إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولا للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة "الفرقان" والحمد لله. وقال طيب الجمال: صليت خلف سهل بن عبد الله العتمة فقرأ "وسقاهم ربهم شرابا طهورا" وجعل يحرك شفتيه وفمه، كأنه يمص شيئا، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال: والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾ أي يقال لهم: إنما هذا جزاء لكم أي ثواب. ﴿ وكان سعيكم ﴾ أي عملكم ﴿ مشكورا ﴾ أي من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه. وروى سعيد عن قتادة قال: غفر لهم الذنب وشكر لهم الحسنى. وقال مجاهد: "مشكورا" أي مقبولا والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم. روي عن ابن عمر: أن رجلا حبشيا قال: يا رسول الله! فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به، وعملت بما عملت، أكائن أنا معك في الجنة؟ قال: (نعم والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام) ثم قال النبي ﷺ: (من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عهد، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة)، فقال الرجل: كيف نهلك

بعدها يا رسول الله؟ فقال: (إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطف الله برحمته). قال: ثم نزلت "هل أتى على الإنسان حين من الدهر" إلى قوله: "وملكا كبيرا" قال الحبشي: يا رسول الله! وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: (نعم) فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه. وقال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته ويقول: "إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا" قلنا: يا رسول الله وما هو؟ قال: (والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال أي عبدي لأبيضن وجهك ولأبوئنك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ ما افتريته ولا جئت به من عندك، ولا من تلقاء نفسك، كما يدعيه المشركون. ووجه اتصال هذه الآية بما قبل أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر ولا كهانة، ولا شعر، وأنه حق. وقال ابن عباس: أنزل القرآن متفرقا: آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال "نزلنا" وقد مضى القول في هذا مبينا والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لقضاء ربك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال. وقيل: أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة. ﴿ ولا تطع منهم آثما ﴾ أي ذا إثم ﴿ أو كفورا ﴾ أي لا تطع الكفار. فروى معمر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه. فأنزل الله عز وجل: "ولا تطع منهم آثما أو كفورا".

ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: "ولا تطع منهم آثما أو كفورا". قال مقاتل: الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة؛ قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوجك ابنتي من غير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر؛ فنزلت. ثم قيل: "أو" في قوله تعالى: "آثما أو كفورا" أوكد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت: لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: "لا تطع منهم آثما أو كفورا" "فأو" قد دلت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت: هذان أهل أن يتبعا وكل واحد منهما أهل لأن يتبع؛ قاله الزجاج. وقال الفراء: "أو" هنا بمنزلة "لا" كأنه قال: ولا كفورا؛ قال الشاعر:

لا وجد ثكلى كما وجدت ولا وجد عجول أضلها ربع
أو وجد شيخ أضل ناقته يوم توافى الحجيج فاندفعوا

أراد ولا وجد شيخ. وقيل: الآثم المنافق، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر؛ أي لا تطع منهم آثما ولا كفورا. وهو قريب من قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ﴾ أي صل لربك أول النهار وآخره، ففي أوله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر. ﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة. ﴿ وسبحه ليلا طويلا ﴾ يعني التطوع في الليل؛ قاله ابن حبيب. وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة. وقيل: هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وقال ابن زيد وغيره: إن قوله: "وسبحه ليلا طويلا" منسوخ بالصلوات الخمس وقيل: هو ندب. وقيل: هو مخصوص بالنبي ﷺ. وقد تقدم القول في مثله في سورة "المزمل" وقول ابن حبيب حسن. وجمع الأصيل: الأصائل والأصل؛ كقولك سفائن وسفن؛ قال:

ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

وقال في الأصائل، وهو جمع الجمع:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل

وقد مضى في آخر "الأعراف" مستوفى. ودخلت "من" على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿ يغفر لكم ذنوبكم﴾ (الصف: ١٢).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ﴾ توبيخ وتقريع؛ والمراد أهل مكة. والعاجلة الدنيا "ويذرون" أي ويدعون ﴿ وراءهم ﴾ أي بين أيديهم ﴿ يوما ثقيلا ﴾ أي عسيراً شديداً كما قال: ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ (الأعراف: ١٨٧). أي يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: "وراءهم" أي خلفهم، أي ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها. وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوته. وحبهم العاجلة: أخذهم الرشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعم. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمي ثقيلا لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: ﴿ نحن خلقناهم ﴾ أي من طين. ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ أي خلقهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم. والأسر الخلق؛ قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر أي الخلق. ويقال أسره الله جل ثناؤه إذا شدد خلقه؛ قال لبيد:

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك الكتد

وقال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. وقال مجاهد في تفسير الأسر: هو الشرج، أي إذا خرج الغائط والبول تقبض الموضع. وقال ابن زيد القوة. وقال ابن أحمر يصف فرسا:

يمشي بأوظفة شداد أسرها   صم السنابك لا تقي بالجدجد

واشتقاقه من الأسار وهو القد الذي يشد به الأقتاب؛ يقال: أسرت القتب أسرا أي شددته وربطته؛ ويقال: ما أحسن أسر قتبه أي شده وربطه؛ ومنه قولهم: خذه بأسره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله؛ كأنهم أرادوا تعكيمه وشده لم يفتح ولم ينقص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يكتف بالإسار. والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية. أي سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي. ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ قال ابن عباس: يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم. وعنه أيضا: لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها. كذلك روى الضحاك عنه. والأول رواه عنه أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن هذه ﴾ أي السورة ﴿ تذكرة ﴾ أي موعظة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أي طريقاً موصلاً إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: "سبيلا" أي وسيلة. وقيل وجهة وطريقا إلى الجنة. والمعنى واحد. ﴿ وما تشاءون ﴾ أي الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم، إلا أن تتقدم مشيئته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "وما يشاءون" بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه.

وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفراء: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" جواب لقوله: "فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا" ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: "وما تشاءون" ذلك السبيل "إلا أن يشاء الله" لكم. ﴿ إن الله كان عليماً ﴾ بأعمالكم ﴿ حكيما ﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع. ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي يدخله الجنة راحما له ﴿ والظالمين ﴾ أي ويعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أي المشركين ويكون ﴿ أعد لهم ﴾ تفسيراً لهذا المضمر؛ كما قال الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا   أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به   وحدي وأخشى الرياح والمطرا

أي أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيداً وعمرا أعددت لـه برا، فيختار النصب؛ أي وبررت عمـراً أو أبر عمـراً. وقـولـه فـي "الشورى": ﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ﴾ (الشورى: ٨) ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبلـه فارتفع بالابتداء. وها هنا قولـه: "أعد لـهم عذابا" يدل على ويعذب، فجاز النصب. وقرأ أبان بن عثمان "والظالمون" رفعـاً بالابتداء والخبر ﴿ أعد لـهم ﴾.

﴿ عذابا أليما ﴾ أي مؤلماً موجعاً. وقد تقدم هذا في سورة "البقرة" وغيرها والحمد لله. ختمت السـورة.

سورة المرسلات

مقدمة السورة:

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ (المرسلات: ٤٨) مدنية.

وقال ابن مسعود: نزلت "والمرسلات عرفا" على النبي ﷺ ليلة الجن ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت، فبينا نحن نتلقاها منه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حية، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت؛ فقال النبي ﷺ: (وقيتم شرها كما وقيت شركم)[1]. وعن كريب مولى ابن عباس قال: قرأت سورة "والمرسلات عرفا" فسمعتني أم الفضل امرأة العباس، فبكت وقالت: والله يا بني لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب. والله أعلم. وهي خمسون آية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿والمرسلات عرفا﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح. وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله؛ قاله ابن عباس. وقال أبو صالح: إنهم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات. وعن ابن عباس وابن مسعود: إنها الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح﴾ (الحجر: ٢٢). وقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ (الأعراف: ٥٧). ومعنى "عرفا" يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس؛ تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا. وهو نصب على الحال من "والمرسلات" أي والرياح التي أرسلت متتابعة. ويجوز أن تكون مصدرا أي تباعا. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر، كأنه قال: والمرسلات بالعرف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيها من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه. وقيل: إنها الزواجر والمواعظ. و"عرفا" على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس؛ قاله ابن مسعود. وقيل: جاريات؛ قاله الحسن؛ يعني في القلوب. وقيل: معروفات في العقول. ﴿فالعاصفات عصفا﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

الرياح بغير اختلاف؛ قالـه المهدوي. وعن ابن مسعود: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه؛ كما قال تعالى: ﴿ فيرسل عليكم قاصفا﴾ (الإسراء: ٦٩). وقيل: العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها. وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وناقة عصوف أي تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم. وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف. ﴿ والناشرات نشراً﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها. وقال ابن مسعود ومجاهد: هي الرياح يرسلـها الله تعالى نشرا بين يدي رحمته؛ أي تنشر السحاب للغيث.

وروي ذلك عن أبي صالح. وعنه أيضا: الأمطار؛ لأنها تنشر النبات، فالنشر بمعنى الإحياء؛ يقال: نشر الله الميت وأنشره أي أحياه. وروى عنه السدي: أنها الملائكة تنشر كتب الله عز وجل. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. الضحاك: إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد.

وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح. قال: "والناشرات" بالواو؛ لأنه استئناف قسم آخر. ﴿ فالفارقات فرقا﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ قالـه ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده. وعن سعيد عن قتادة قال: "الفارقات فرقا" الفرقان، فرق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال. وقالـه الحسن وابن كيسان. وقيل: يعني الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أي بينوا ذلك.

وقيل: السحابات الماطرة تشبيها بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتند في الأرض حين تضع، ونوق فوارق وفرق. (وربما) شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة؛ قال ذو الرمة:

أو مـزنة فـارق يجـلو غواربها   تبوج البرق والظلماء علجوم

﴿ فالملقيات ذكرا﴾ الملائكة بإجماع؛ أي تلقي كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام؛ قالـه المهدوي. وقيل: هو جبريل وسمي باسم الجمع؛ لأنه كان ينزل بها. وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم؛ قاله قطرب. وقرأ ابن عباس "فالملقيات" بالتشديد مع فتح القاف؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ وإنك لتلقى القرآن﴾ (النمل: ٦) ﴿ عذرا أو نذرا﴾ أي تلقى الوحي إعذارا من الله أو إنذارا إلى خلقه من عذابه؛ قالـه الفراء. وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يعذرون وينذرون. وروى سعيد عن قتادة "عذرا" قال: عذرا لله جل ثناؤه إلى خلقه، ونذراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به. وروى الضحاك عن ابن عباس. "عذراً" أي ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة "أو نذرا" ينذر أعداءه. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص "أو نذرا" بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال "عذرا" سوى ما رواه الجعفي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال. وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما. وقرأ إبراهيم التيمي وقتادة "عذراً ونذراً" بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفاً. وهما منصوبان على الفاعل لـه أي للإعذار أو للإنذار.

وقيل: على المفعول به، قيل: على البدل من "ذكرا" أي فالملقيات عذرا أو نذرا. وقال أبو علي: يجوز أن يكون العـذر والنـذر بالثقيل على جمع عاذر وناذر؛ كقولـه تعالى: ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ (النجم: ٥٦) فيكون نصبا على الحال من الإلقاء؛ أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار. أو يكون مفعولا "لذكرا" أي "فالملقيات" أي تذكر "عذرا أو نذرا". وقال المبرد: هما بالتثقيل جمع والواحد عذير ونذير.

قولـه تعالى: ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم؛ أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم. ثم بيّن وقت وقوعه فقال: ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي ذهب ضوؤها ومحي نورها كطمس الكتاب؛ يقال: طمس الشيء إذا درس وطمس فهو مطموس، والريح تطمس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس. ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي فتحت وشقت؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ (النبأ: ١٩). وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فرجت للطي. ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي ذهب بها كلـها بسرعة؛ يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته كلـه بسرعة. وكان ابن عباس والكلبي يقول: سويت بالأرض، والعرب تقول: فرس نسوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بشر:

نسوف للحزام بمرفقيها

ونسفت الناقة الكلأ: إذا رعته. وقال المبرد: نسفت قلعت من موضعها؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أنسفت رجلاه. وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها للرياح. ومنه نسف الطعام؛ لأنه يحرك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن. ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أي جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لـها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ (المائدة: ١٠٩). وقيل: هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لـها في إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفار ممهلون. وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأول أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطمس ونسف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به. التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أي جعل يوم الدين والفصل لـها وقتا. وقيل: أقتت وعدت وأجلت. وقيل: "أقتت" أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. والـهمزة في "أقتت" بدل من الواو؛ قالـه الفراء والزجاج. قال الفراء: وكل واو ضمت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة؛ تقول: صلى القوم إحدانا تريد وحدانا، ويقولون هذه وجوه حسان و(أجوه). وهذا لأن ضمة الواو ثقيلة. ولم يجز البدل في قولـه: ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ (البقرة: ٢٣٧) لأن الضمة غير لازمة.

وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر. وعن عاصم ومجاهد "وقتت" بالواو وتشديد القاف على الأصل. وقال أبو عمرو: وإنما يقرأ "أقتت" من قال في وجوه أجوه. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج "وقتت" بالواو وتخفيف القاف. وهو فعلت من الوقت ومنه "كتابا موقوتا". وعن الحسن أيضا: "ووقتت" بواوين، وهو فوعلت من الوقت أيضا مثل عوهدت. ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين

ألفا لجاز. وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلام "أقتت" بالـهمزة والتخفيف؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف.

قولـه تعالى: ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ أي أخرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو استفهام على التعظيم. أي ﴿ ليوم الفصل ﴾ أجلت. وروى سعيد عن قتادة قال: يفصل فيه بين الناس بأعمالـهم إلى الجنة أو إلى النار. وفي الحديث: (إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رؤوسهم الشمس شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل). ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أتبع التعظيم تعظيما؛ أي وما أعلمك ما يوم الفصل؟ ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي عذاب وخزي لمن كذب بالله وبرسلـه وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يقسم لـه من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قولـه: ﴿ جزاء وفاقا ﴾ (النبأ: ٢٦). وروي عن النعمان بن بشير قال: ويل: واد في جهنم فيه ألوان العذاب. وقاله ابن عباس وغيره. قال ابن عباس: إذا خبت جهنم أخذ من جمره فألقي عليها فيأكل بعضها بعضا. وروي أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: (عرضت علي جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من الويل) وروي أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض وانفطر، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسالات من الجيف وماء الحمامات؛ فذكر أن ذلك الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة، ولا أنتن منه نتنا، ولا أشد منه مرارة، ولا أشد سواداً منه؛ ثم وصفه رسول الله ﷺ بما تضمن من العذاب، وأنه أعظم واد في جهنم، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد ﷺ. ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أي نلحق الآخرين بالأولين. ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي مثل ما فعلناه بمن تقدم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف، وإما بالـهلاك. وقرأ العامة "ثم نتبعهم" بالرفع على الاستئناف، وقرأ الأعرج "نتبعهم" بالجزم عطفا على "نهلك الأولين" كما تقول: ألم تزرني ثم أكرمك. والمراد أنه أهلك قوما بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين. ثم استأنف بقولـه: "كذلك نفعل بالمجرمين" يريد من يهلك فيما بعد. ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفا من "نتبعهم" لتوالي الحركات. وروي عنه الإسكان للتخفيف. وفي قراءة ابن مسعود "ثم سنتبعهم" والكاف من "كذلك" في موضع نصب، أي مثل ذلك الـهلاك نفعلـه بكل مشرك. ثم قيل: معناه التهويل لـهلاكهم في الدنيا اعتباراً. وقيل: هو إخبار بعذابهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أي ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدم. وهذه الآية أصل لمن قال: إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده. وقد مضى القول فيه. ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ أي في مكان حريز وهو الرحم. ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوره. وقيل: إلى وقت الولادة. "فقدرنا" وقرأ نافع والكسائي "فقدرنا" بالتشديد. وخفف الباقون، وهما لغتان بمعنى. قاله الكسائي والفراء والقتبي. قال القتبي: قدرنا بمعنى قدرنا مشددة: كما تقول: قدرت كذا وقدرته؛ ومنه قول النبي ﷺ في الهلال: (إذا غم عليكم فاقدروا له)[1] أي قدروا له المسير والمنازل. وقال محمد بن الجهم عن الفراء: "فقدرنا" قال: وذكر تشديدها عن علي رضي الله عنه وتخفيفها، قال: ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً؛ لأن العرب تقول: قدر عليه الموت وقدر: قال الله تعالى: ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ (الواقعة: ٦٠) قرئ بالتخفيف، والتشديد، وقدر عليه رزقه وقدر. قال: واحتج الذين خففوا فقالوا: لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدرون. قال الفراء: وتجمع العرب بين اللغتين؛ قال الله تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ (الطارق: ١٧) قال الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وروي عن عكرمة "فقدرنا" مخففة من القدرة، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائي لقوله: ﴿ فنعم القادرون ﴾ ومن شدد فهو من التقدير، أي فقدرنا الشقي والسعيد فنعم المقدرون. رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ. وقيل: المعنى قدرنا قصيرا أو طويلا. ونحوه عن ابن عباس: قدرنا ملكنا. المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

قلت: هو صحيح فإن عكرمة هو الذي قرأ "فقدرنا" مخففا قال: معناه فملكنا فنعم المالكون، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين؛ أي قدرنا وقت الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرا سويا، أو الشقي والسعيد، أو الطويل والقصير، كله على قراءة التشديد. وقيل: هما بمعنى كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴾ أي ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

وقولـه ﷺ: (قصوا أظفاركم وادفنوا قلاماتكم)[1] وقد مضى. يقال: كفت الشيء أكفته: إذا جمعته وضممته، والكفت: الضم والجمع؛ وأنشد سيبويه:

كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أجحارهن من الصقيع

وقال أبو عبيد: "كفاتا" أوعية. ويقال للنحي: كفت وكفيت، لأنه يحوي اللبن ويضمه قال:

فأنت اليوم فوق الأرض حيا وأنت غدا تضمك في كفات

وخرج الشعبي في جنازة فنظر إلى الجبان فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء.

روي عن ربيعة في النباش قال تقطع يده فقيل لـه: لم قلت ذلك؟ قال: إن الله عز وجل يقول: "ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا" فالأرض حرز. وقد مضى هذا في سورة "المائدة". وكانوا يسمون بقيع الغرقد كفتة، لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلـهم والأموات في قبورهم. وأيضا استقرار الناس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمام منهم إليها. وقيل: هي كفات للأحياء يعني دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات في الأرض؛ إذ لا ضم في كون الناس عليها، والضم يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه. وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، أي الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت. وقال الفراء: انتصب، "أحياء وأمواتا" بوقوع الكفات عليه؛ أي ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات. فإذا نونت نصبت؛ كقولـه تعالى: ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ﴾ (البلد: ١٤). وقيل: نصب على الحال من الأرض، أي منها كذا ومنها كذا. وقال الأخفش: "كفاتا" جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر. ويقال: انكفت القوم إلى منازلـهم أي انقلبوا. فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهـرها وينقلبون إليها ويدفنـون فيها. ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الأرض ﴿ رواسي شامخات ﴾ يعني الجبال، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال؛ ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً. ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ أي وجعلنا لكم سقيا. والفرات: الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات. وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن. وفي صحيح مسلم: سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة.

قولـه تعالى: ﴿ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال للكفار سيروا "إلى ما كنتم به تكذبون" من العذاب يعني النار، فقد شاهدتموها عيانا. ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ أي دخان ﴿ ذي ثلاث شعب ﴾

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٤٠٩٢).

يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب. ثم وصف الظل فقال: ﴿لا ظليل﴾ أي ليس كالظل الذي يقي حر الشمس ﴿ولا يغني من اللهب﴾ أي لا يدفع من لهب جهنم شيئا. واللهب ما يعلو على النار إذ اضطرمت، من أحمر وأصفر وأخضر. وقيل: إن الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين؛ قاله الضحاك. وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان؛ لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا أضطرمت واشتدت. وقيل: عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب. فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين. وقيل: هو السرادق، وهو لسان من نار يحيط بهم، ثم يتشعب منه ثلاث شعب، فتظللهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار. وقيل: هو الظل من يحموم؛ كما قال تعالى: ﴿في سموم وحميم. وظل من يحموم. لا بارد ولا كريم﴾ (الواقعة: ٤٣) على ما تقدم. وفي الحديث: (إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومد ذلك اليوم، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهنالك يقولون: ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾[1] (الطور: ٢٧) ويقال للمكذبين: "انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون" من عذاب الله وعقابه "انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب". فيكون أولياء الله جل ثناؤه في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار). ثم وصف النار فقال: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ الشرر: واحدته شررة. والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجف. والقصر البناء العالي. وقراءة العامة "كالقصر" بإسكان الصاد: أي الحصون والمدائن في العظم وهو واحد القصور. قاله ابن عباس وابن مسعود. وهو في معنى الجمع على طريق الجنس. وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد، مثل جمرة، وجمر وتمرة وتمر. والقصرة: الواحدة من جزل الحطب الغليظ.

وفي البخاري عن ابن عباس أيضا: "ترمي بشرر كالقصر" قال كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل، فترفعه للشتاء، فنسميه القصر، وقال سعيد بن جبير والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقطع. وقيل: أعناقه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمي "كالقصر" بفتح الصاد، أراد أعناق النخل. والقصرة العنق، جمعها قصر وقصرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. قرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد، وهي أيضا جمع قصرة مثل بدرة وبدر وقصعة وقصع وحلقة وحلق، لحلق الحديد. وقال أبو حاتم: ولعله لغة، كما قالوا حاجة وحوج. وقيل: القصر: الجبل، فشبه الشرر بالقصر في مقاديره، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصفر، وهي الإبل السود؛ والعرب تسمي السود من الإبل صفرا؛ قال الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

أي هن سود. وإنما سميت السود من الإبل صفرا لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة؛ كما قيل لبيض الظباء: الأدم؛ لأن بياضها تعلوه كدرة: والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، لما ينوبها من صفرة. وفي شعر عمران بن حطان الخارجي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

دعتـــهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وضعف الترمذي هذا القول فقال: وهذا القول محال في اللغة، أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فنسب كلـه إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قد قال هذا، وقد قال الله تعالى: "جمالات صفر" فلا نعلم شيئا من هذا في اللغة. ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور فهي نار مضيئة، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار، حشا ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فاسودت من سلطانه وازدادت حدة، وصارت أشد سوادا من النار ومن كل شيء سواداً، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف، غضبا لغضب الله، والشرر هو أسود، لأنه من نار سوداء، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به، فهن سود من سواد النار، لا يصل ذلك إلى الموحدين؛ لأنهم في سرادق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الرب تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه. وكان ابن عباس يقول: الجمالات الصفر: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخاري. وكان يقرؤها "جمالات" بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحميد "جمالات" بضم الجيم، وهي الحبال الغلاظ، وهي قلوس السفينة أي حبالـها. وواحد القلوس: قلس. وعن ابن عباس أيضا على أنها قطع النحاس. والمعروف في الحبل الغليظ جمل بتشديد الميم كما تقدم في "الأعراف". و"جمالات" بضم الجيم: جمع جمالة بكسر الجيم موحدا، كأنه جمع جمل، نحو حجر وحجارة، وذكر وذكارة، وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق وعيسى والجحدري "جُمالة" بضم الجيم موحدا وهي الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض. وقرأ حفص وحمزة والكسائي "جمالة" وبقية السبعة "جمالات" قال الفراء: يجوز أن تكون الجمالات جمع جمال كما يقال: رجل ورجال ورجالات. وقيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضا. والقصر: واحد القصور. وقصر الظلام: اختلاطه. ويقال: أتيته قصرا أي عشيا، فهو مشترك؛ قال:

كأنهم قصرا مصابيح راهب بموزن روى بالسليط ذبالـها

مسألة: في هذه الآية دليل على جواز ادخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغاني مفاقره. وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي ﷺ يدخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباس هذا بقولـه: كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخره للشتاء وكنا نسميه القصر. وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ ولا يؤذن لـهم فيعتذرون ﴾ أي إن يوم القيامة لـه مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها، ولا يؤذن لـهم في الاعتذار والتنصل. وعن عكرمة عـن ابن عبـاس قال: سـأل ابن الأزرق عن قولـه تعالى: ﴿ هذا يوم لا

ينطقون ﴾ و﴿ فلا تسمع إلا همسا ﴾ (طه: ١٠٨) وقد قال تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ (الصافات: ٢٧) فقال لـه: إن الله عز وجل يقول: ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (الحج: ٤٧) فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان. وقيل: لا ينطقون بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق. قال الحسن: لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون. وقيل: إن هذا وقت جوابهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (المؤمنون: ١٠٨) وقد تقدم. وقال أبو عثمان: أسكتتهم رؤية الـهيبة وحياء الذنوب. وقال الجنيد: أي عذر لمن أعرض عن منعمه وجحده وكفر أياديه ونعمه؟ و"يوم" بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر؛ أي تقول الملائكة: "هذا يوم لا ينطقون" ويجوز أن يكون قولـه: ﴿ انطلقوا ﴾ (المرسلات: ٢٩) من قول الملائكة، ثم يقول الله لأوليائه: هذا يوم لا ينطق الكفار. ومعنى اليوم الساعة والوقت. وروى يحيى بن سلطان عن أبي بكر عن عاصم "هذا يوم لا ينطقون" بالنصب، ورويت عن ابن هرمز وغيره، فجاز أن يكون مبنيا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع. وهذا مذهب الكوفيين. وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم. وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بني عندهم إذا أضيف إلى مبني، والفعل ها هنا معرب. وقال الفراء في قولـه تعالى: "ولا يؤذن لـهم فيعتذرون" الفاء نسق أي عطف على "يؤذن" وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون. ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. وقد قال: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ (فاطر: ٣٦) بالنصب وكلـه صواب؛ ومثلـه: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه ﴾ (البقرة: ٢٤٥) بالنصب والرفع.

قولـه تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ أي ويقال لـهم هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق؛ فيتبين المحق من المبطل. ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ قال ابن عباس: جمع الذين كذبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبلـه. رواه عنه الضحاك. ﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أي حيلة في الخلاص من الـهلاك ﴿فكيدوني﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاووني ولن تجدوا ذلك. وقيل: أي "فإن كان لكم كيد" أي قدرتم على حرب ﴿ فكيدوني ﴾ أي حاربوني. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. قال: يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمدا ﷺ وتحاربونني فاليوم حاربوني. وقيل: أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم. وقيل: إنه من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود: ﴿ فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ﴾ (هود: ٥٥).

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غدا، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل في الشعب الثلاث. وفي سورة يس ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ (يس: ٥٦). ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي يتمنون. وقراءة العامة "ظلال". وقرأ الأعرج والزهري وطلحة "ظلل" جمع ظلة يعني في الجنة. ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي يقال لـهم غدا

هذا بدل ما يقال للمشركين "فإن كان لكم كيد فكيدون". فـ "كلوا واشربوا" في موضع الحال من ضمير "المتقين" في الظرف الذي هو "في ظلال" أي هـم مستقرون "في ظلال" مقولا لـهـم ذلك. ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالـهم في الدنيا.

قولـه تعالى: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين، وهو وعيد وتهديد وهو حال من "المكذبين" أي الويل ثابت لـهم في حال ما يقال لـهم: "كلوا وتمتعوا قليلا". ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي كافرون. وقيل: مكتسبون فعلا يضركم في الآخرة، من الشرك والمعاصي.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا قيل لـهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي إذا قيل لـهؤلاء المشركين: "اركعوا" أي صلوا "لا يركعون" أي لا يصلون؛ قالـه مجاهد. وقال مقاتل: نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم. قال مقاتل: قال لـهم النبي ﷺ: (أسلموا) وأمرهم بالصلاة فقالوا: لا ننحني فإنها مسبة علينا، فقال النبي ﷺ: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود)[1]. يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال لـه صبي: يا شيخ قم فاركع. فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا، فقيل لـه في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين "إذا قيل لـهم اركعوا لا يركعون". وقال ابن عباس: إنما يقال لـهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. قتادة: هذا في الدنيا. ابن العربي: هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزالـه ركنا في الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان لله يسجد يمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طبقا واحدا. وقيل: أي إذا قيل لـهم اخضعوا للحق لا يخضعون، فهو عام في الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالإيمان لأنها لا تصح من غير إيمان.

قولـه تعالى: ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدلالة على صدق الرسول ﷺ، فبأي شيء يصدقون! وكرر: "ويل يومئذ للمكذبين" لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر؛ كأنه ذكر شيئا فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها. ختمت السورة ولله الحمد.

---

(١) ضعيف.

سورة عَمَّ

مكيّة وتُسمى سورة "النبأ" وهي أربعون آية.

قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ عَمَّ ﴾ لفظ استفهام؛ ولذلك سقطت منها ألف "ما"، ليتميز الخبر عن الاستفهام. وكذلك (فيم، ومم) إذا استفهمت. والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا. وقال الزجاج: أصل "عم" عن ما فأدغمت النون في الميم، لأنها تشاركها في الغنة. والضمير في ﴿ يتساءلون ﴾ لقريش. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت "عم يتساءلون"؟ وقيل: "عم" بمعنى: فيم يتشدد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ أي يتساءلون "عن النبأ العظيم" فعن ليس تتعلق بـ "يتساءلون" الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون "عن النبأ العظيم" كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ"يتساءلون" الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر. وحسن ذلك لتقدم يتساءلون؛ قاله المهدوي. وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله: "عن" مكرر إلا أنه مضمر، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبأ العظيم؟ فعلى هذا يكون متصلا بالآية الأولى. و "النبأ العظيم" أي الخبر الكبير.

قوله تعالى: ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضا، فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن؛ دليله قوله: "قل هو نبأ عظيم. أنتم عنه معرضون" فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن.

وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدق ومكذب. وقيل: أمر النبي ﷺ. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: وذلك أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم، ثم هددهم فقال: ﴿ كلا سيعلمون ﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون البعث: أحق هو أم باطل. و "كلا" رد عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها. ويجوز أن يكون بمعنى حقا أو "ألا" فيبدأ بها. والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ (النبأ: ١٧) يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث. ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ أي حقا ليعلمن صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحاك: "كلا سيعلمون" يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم. "ثم كلا سيعلمون" يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم. وقيل: بالعكس أيضا. وقال الحسن: هو وعيد بعد وعيد. وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: "يتساءلون" وقوله: "هم فيه مختلفون". وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ دلهم على قدرته على البعث؛ أي قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة. والمهاد: الوطاء والفراش. وقد قال تعالى: ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ (البقرة: ٢٢) وقرئ "مهدا". ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينوم عليه ﴿ والجبال أوتادا ﴾ أي لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها. ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ أي أصنافا: ذكرا وأنثى. وقيل: ألوانا. وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول. ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ "جعلنا" معناه صيرنا؛ ولذلك تعدت إلى مفعولين. "سباتا" المفعول الثاني، أي راحة لأبدانكم، ومنه يوم السبت أي يوم الراحة؛ أي قيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئا. وأنكر ابن الأنباري هذا وقال: لا يقال للراحة سبات. وقيل: أصله التمدد؛ يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسبات كالمد، ورجل مسبوت الخلق: أي ممدود. وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبتا. وقيل: أصله القطع؛ يقال: سبت شعره سبتا: حلقه؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح. ويقال: سير سبت: أي سهل لين؛ قال الشاعر:

ومطوية الأقراب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميل

﴿ وجعلنا الليل لباسا ﴾ أي تلبسكم ظلمته وتغشاكم؛ قاله الطبري. وقال ابن جبير والسدي: أي سكنا لكم. ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾ فيه إضمار، أي وقت معاش، أي متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ "معاشا" على هذا اسم زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف. ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ أي سبع سموات محكمات؛ أي محكمة الخلق وثيقة البنيان. ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ أي وقادا وهي الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدت لمفعول واحد والوهاج الذي له وهج؛ يقال: وهج يهج وهجا ووهجا ووهجانا. ويقال للجوهر إذا تلألأ توهج. وقال ابن عباس. وهاجا منيرا متلألئا. ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾ قال مجاهد وقتادة: والمعصرات: الرياح. وقاله ابن عباس. كأنها تعصر السحاب. وعن ابن عباس أيضا: أنها السحاب. وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أي السحائب التي تنعصر بالماء ولما تمطر بعد، كالمرأة المعصر التي قد دنا حيضها ولم تحض، قال أبو النجم:

تمشـــي الـهوينى مائلا خمارها قد أعصرت أو قد دنا إعصارها

وقال آخر:

فكان مجني دون من كنت أتقـي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

وقال آخر:

وذي أشـــر كالأقحـــوان يزينه ذهاب الصبا والمعصرات الروائح

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء، النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر معصرات، والرياح تلقح السحاب، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات "ماء ثجاجا" وأصح الأقوال أن المعصرات؛ السحاب. كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان (بالمعصرات) لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحائب تعتصر بالمطر. وأعصر القوم أي أمطروا؛ ومنه قرأ بعضهم "وفيه يعصرون" والمعصر: الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز:

جـارية بســـفوان دارهــــا تمشي الـهوينى ساقطا خمارها

قد أعصرت أو قد دنا إعصارها

والجمع: معاصر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الغوث الأعرابي. قال غيره: والمعصر السحابة التي حان لـها أن تمطر؛ يقال أجن الزرع فهو مجن: أي صار إلى أن يجن، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرد: يقال سحاب معصر أي ممسك للماء، ويعتصر منه شيء بعد شيء، ومنه العصر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعصرة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة "يوسف" والحمد لله. وقال أبو زبيد:

صاديا يستغيث غير مغاث ولقـد كان عـصرة المنجود

ومنه المعصر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لـها معصر؛ لأنها تحبس في البيت، فيكون البيت لـها عصرا. وفي قراءة ابن عباس وعكرمة "وأنزلنا بالمعصرات". والذي في المصاحف "من المعصرات" قال أبي بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: "من المعصرات" أي من السموات. "ماء ثجاجا" صبابا متتابعا؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثججت دمه فأنا أثجه ثجا، وقد ثج الدم يثج ثجوجا، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعد. والثجاج في الآية المنصب. وقال الزجاج: أي الصباب، وهو متعد كأنه يثج: نفسه أي يصب. وقال عبيد بن الأبرص:

فثج أعلاه ثم ارتج أسفله وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح

وفي حديث النبي ﷺ أنه سئل عن الحج المبرور فقال: (العج والثج)[1] فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا. وقال ابن زيد: ثجاجا كثيرا. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ لنخرج به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ حبا ﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿ ونباتا ﴾ من الأب، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين ﴿ ألفافا ﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لف بالكسر ولف بالضم. ذكره الكسائي، قال:

جنة لُفٌّ وعيشٌ مغدق وندامى كلهم بيض زُهُرْ

وعنه أيضا وأبي عبيدة: لفيف كشريف وأشراف. وقيل: هو جمع الجمع. حكاه الكسائي. يقال: جنة لفاء ونبت لف والجمع لف بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع اللف ألفافا. الزمخشري: ولو قيل جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها. ويقال: شجرة لفاء وشجر لف وامرأة لفاء: أي غليظة الساق مجتمعة اللحم. وقيل: التقدير: ونخرج به جنات ألفافا، فحذف لدلالة الكلام عليه. ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ أي وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين، لما وعد الله من الجزاء والثواب. وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه. ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي للبعث ﴿ فتأتون ﴾ أي إلى موضع العرض.

﴿ أفواجا ﴾ أي أمما، كل أمة مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعات. الواحد: فوج. ونصب يوماً بدلا من اليوم الأول. وروي من حديث معاذ بن جبل قلت: يا رسول الله! أرأيت قول الله تعالى: ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ﴾ فقال النبي ﷺ: (يا معاذ بن جبل لقد سألت عن أمر عظيم) ثم أرسل عينيه باكيا، ثم قال: (يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صورهم، فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، فهي مدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعابا، يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشد نتنا من الجيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس ـ يعني النمام ـ وأما الذين على صورة الخنازير، فأهل

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (١١٠١) بلفظ: "أفضل الحج العج والثج".

السحت والحرام والمكس. وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم، فأكلة الربا، والعمي: من يجور في الحكم، والصم البكم: الذين يعجبون بأعمالـهم. والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولـهم فعلـهم. والمقطعة أيديهم وأرجلـهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله من أموالـهم. والذين يلبسون الجلابيب: فأهل الكبر والفخر والخيلاء)[١].

قولـه تعالى: ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ أي لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ (الفرقان: ٢٥). وقيل: تقطعت، فكانت قطعا كالأبواب فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف. وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلـها أبوابا. وقيل: أبوابها طرقها. وقيل: تنحل وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب. وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: بابا لعملـه، وبابا لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب. وفي حديث الإسراء: (ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا)[٢]. ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ أي لا شيء كما أن السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء.

وقيل: "سيرت" نسفت من أصولـها. وقيل: أزيلت عن مواضعها.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ﴾ مفعال من الرصد والرصد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن: إن على النار رصدا، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز حبس. وعن سفيان ﷺ قال: عليها ثلاث قناطر. وقيل "مرصادا" ذات أرصاد على النسب؛ أي ترصد من يمر بها. وقال مقاتل: محبسا. وقيل: طريقا وممرا، فلا سبيل إلى الجنة حتى يقطع جهنم.

وفي الصحاح: والمرصاد: الطريق. وذكر القشيري: أن المرصاد المكان الذي يرصد فيه الواحد العدو، نحو المضمار: الموضع الذي تضمر فيه الخيل. أي هي معدة لـهم؛ فالمرصاد بمعنى المحل؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم. وذكر الماوردي عن أبي سنان أنها بمعنى راصدة، تجازيهم

---

(١) لا يصح.

(٢) حديث الإسراء أخرجاه في الصحيحين.

بأفعالـهم. وفي الصحاح: الراصد الشيء: الراقب لـه؛ تقول: رصده يرصده رصدا ورصدا، والترصد: الترقب. والمرصد: موضع الرصد. الأصمعي: رصدته أرصده: ترقبته، وأرصدته: أعددت لـه. والكسائي: مثلـه.

قلت: فجهنم معدة مترصدة، متفعل من الرصد وهو الترقب؛ أي هي متطلعة لمن يأتي. والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار.

﴿ للطاغين مآبا ﴾ بدل من قولـه: "مرصادا" والمآب: المرجع، أي مرجعا يرجعون إليها؛ يقال: آب يؤوب أوبة: إذا رجع. وقال قتادة: مأوى ومنزلا. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

قولـه تعالى: ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حقب جاء حقب. والحقب بضمتين: الدهر والأحقاب الدهور. والحقبة بالكسر: السنة؛ والجمع حقب؛ قال متمم بن نويرة التميمي:

وكـنا كـندماني جذيمـة حقـبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلـما تفرقـنا كأنـي ومالـكا ... لطـول اجتمـاع لم نبت ليلة معا

والحقب بالضم والسكون: ثمانون سنة. وقيل: أكثر من ذلك وأقل، على ما يأتي، والجمع: أحقاب. والمعنى في الآية؛ لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لـها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة؛ أي أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب. ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحقب كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي يمكثون فيها أبدا. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود. والمعنى متقارب؛ وهذا الخلود في حق المشركين. ويمكن حمل الآية على العصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت فيكون لـهم نوع آخر من العقاب؛ ولـهذا قال: "لابثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميماً وغساقاً". و"لابثين" اسم فاعل من لبث، ويقويه أن المصدر منه اللبث بالإسكان، كالشرب. وقرأ حمزة والكسائي "لبثين" بغير ألف وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابث ولبث، مثل طمع وطامع، وفره وفاره. ويقال: هو لبث بمكان كذا: أي قد صار اللبث شأنه، فشبه بما هو خلقة في الإنسان نحو حذر وفرق؛ لأن باب فعل إنما هو لما يكون خلقة في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسم الفاعل من لابث.

والحقب: ثمانون سنة في قول ابن عمر وابن محيصن وأبي هريرة، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا، قالـه ابن عباس. وروى ابن عمر هذا مرفوعا إلى النبي ﷺ وقال أبو هريرة: والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما كل يوم مثل أيام الدنيا. وعن ابن عمر أيضا: الحقب: أربعون سنة. السدي: سبعون سنة. وقيل: إنه ألف شهر. رواه أبو أمامة مرفوعا. بشير بن كعب: ثلاثمائة

سنة. الحسن: الأحقاب لا يدري أحدكم هي، ولكن ذكروا أنها مائة حقب، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن أبي أمامة أيضا، عن النبي ﷺ: (إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألف سنة) ذكره المهدوي. والأول الماوردي. وقال قطرب: هو الدهر الطويل غير المحدود.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ، قال النبي ﷺ: (والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا، الحقب بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوما، كل يوم ألف سنة مما تعدون؛ فلا يتكلن أحدكم على أن يخرج من النار). ذكره الثعلبي. القُرظي: الأحقاب: ثلاثة وأربعون، حقبا كل حقب سبعون خريفا، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوما، كل يوم ألف سنة.

قلت: هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود، يحتاج إلى توقيف يقطع العذر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ. وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أولا؛ أي لابثين فيها أزمانا ودهورا، كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع. وقال ابن كيسان: معنى "لابثين فيها أحقابا" لا غاية لها انتهاء، فكأنه قال أبدا. وقال ابن زيد ومقاتل: إنها منسوخة بقوله تعالى: "فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا" يعني أن العدد قد انقطع، والخلود قد حصل.

قلت: وهذا بعيد؛ لأنه خبر، وقد قال تعالى: ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ (الأعراف: ٤٠) على ما تقدم. هذا في حق الكفار، فأما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص. والله أعلم. وقيل: المعنى "لابثين فيها أحقابا" أي في الأرض؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في "لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا" لجهنم. وقيل: واحد الأحقاب حقب وحقبة؛ قال:

فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها فأنت بما أحدثته بالمجرب

وقال الكميت:

مر لها بعد حقبة حقب

قوله تعالى: ﴿ لا يذوقون فيها ﴾ أي في الأحقاب ﴿ بردا ولا شرابا ﴾ البرد: النوم في قول أبي عبيدة وغيره؛ قال الشاعر:

ولو شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نُقاخا ولا بردا

وقاله مجاهد والسدي والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي؛ وأنشدوا قول الكندي:

بردت مراشفها علي فصدني عنها وعن تقبيلها البرد

يعني النوم. والعرب تقول: منع البرد البرد، يعني: أذهب البرد النوم.

قلت: وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل في الجنة نوم. فقال: (لا؛ النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها)[1] فكذلك النار؛ وقد قال تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ (فاطر: ٣٦) وقال ابن عباس: البرد: برد الشراب. وعنه أيضا: البرد: النوم، والشراب: الماء.

---

(١) صحيح، وقد سبق.

وقال الزجاج: أي لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظل، ولا نوم. فجعل البرد برد كل شيء لـه راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به، فلا ينفعهم، فلـهم منه من العذاب ما الله أعلم به. وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بردا: أي روحا وراحة؛ قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفـــيء أوقات العشي تذوق

قولـه تعالى: ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ﴾ جملة في موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان، والعامل فيه "لابثين" أو "لبثين" على تعدية فعل. ﴿ إلا حميما وغساقا ﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعلـه من البرودة كان بدلا منه. والحميم: الماء الحار؛ قالـه أبو عبيدة. وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يسقونه. قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى، ومنه "وظل من يحموم": إنما يراد به النهاية في الحر. والغساق: صديد أهل النار وقيحهم. وقيل الزمهرير. وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في "ص" القول فيه. ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أي موافقا لأعمالـهم. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما؛ فالوفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى المقاتلة. و"جزاء" نصب على المصدر، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالـهم؛ قاله الفراء والأخفش. وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوفق، والوفق واللفق واحد. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالـهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم. ﴿ إنهم كانوا لا يرجون ﴾ أي لا يخافون ﴿ حسابا ﴾ أي محاسبة على أعمالـهم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب حساب. الزجاج: أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم. ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ أي بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءة العامة "كذابا" بتشديد الذال، وكسر الكاف، على كذب، أي كذبوا تكذيبا كبيرا. قال الفراء: هي لغة يمانية فسيحة؛ يقولون: كذبت (به) كذابا، وخرقت القميص خراقا؛ وكل فعل في وزن (فعل) فمصدره فعال مشدد في لغتهم؛ وأنشد بعض الكلابيين:

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي وعن حـــوج قضاؤها من شفائنا

وقرأ علي رضي الله عنه "كذابا" بالتخفيف وهو مصدر أيضا. وقال أبو علي: التخفيف والتشديد جميعا: مصدر المكاذبة، كقول الأعشى:

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

أبو الفتح: جاءا جميعا مصدر كَذَب وكَذَّب جميعاً. الزمخشري: "كذابا" بالتخفيف مصدر كذب؛ بدليل قولـه:

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قولـه: ﴿ أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ (نوح: ١٧) يعني وكذبوا بآياتنا أفكذبوا كذابا. أو تنصبه بـ "كذبوا". لأنه يتضمن معنى كذبوا؛ لأن كل مكذب بالحق كاذب؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مكاذبة. وقرأ ابن عمر "كذابا" بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قالـه أبو حاتم. ونصبه على الحال الزمخشري. وقد يكون الكذاب:

بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب، كقولك حسان وبخال، فيجعله صفة لمصدر "كذبوا" أي تكذيبا كذابا مفرطا كذبه. وفي الصحاح: وقوله تعالى: ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا﴾ وهو أحد مصادر المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فعال) كذاب وعلى (تفعلة) مثل توصية، وعلى (مفعل)؛ "ومزقناهم كل ممزق". ﴿ وكل شيء أحصيناه كتابا ﴾ "كل" نصب بإضمار فعل يدل عليه "أحصيناه" أي وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السمال "وكل شيء" بالرفع على الابتداء.

"كتابا" نصب على المصدر؛ لأن معنى أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتابا. ثم قيل: أراد به العلم، فإن ما كتب كان أبعد من النسيان. وقيل: أي كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة. وقيل: أراد ما كتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين ﴾ (الانفطار: ١٠). ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ قال أبو برزة: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن؟ فقال: قوله تعالى: "فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا" أي ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ (النساء: ٥٦) و﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ (الإسراء: ٩٧).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ ذكر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله "مفازا" موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار. ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلا بالخلاص منها. ﴿ حدائق وأعنابا ﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل: "إن للمتقين مفازا" إن للمتقين حدائق؛ جمع حديقة، وهي البستان المحوط عليه؛ يقال أحدق به: أي أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي كروم أعناب، فحذف. ﴿ وكواعب أترابا ﴾ كواعب: جمع كاعب وهي الناهد؛ يقال: كَعَبت الجارية تكعَب كُعوبا، وكعَّبت تُكعِّب تكعيبا، ونهدت تنهد نهودا. وقال الضحاك: ككواعب العذارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم من حصان قد حوينا كريمة ومن كاعب لم تدر ما البؤس معصر

والأتراب: الأقران في السن. وقد مضى في سورة "الواقعة" الواحد: ترب. ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس: مترعة مملوءة؛ يقال: أدهقت الكأس: أي ملأتها، وكأس دهاق أي ممتلئة؛ قال:

ألا فاسقني صِرفا سقاني الساقي من مائها بكأسك الدهاق

وقال خداش بن زهير:

أتانا عامر يبغي قرانا فأترعنا له كأسا دهاقا

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وابن عَباس أيضا: متابعة، يتبع بعضها بعضا؛ ومنه ادهقت الحجارة ادهاقا، وهو شدة تلازُبها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتتابع كالمتداخل. وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم: صافية؛ قال الشاعر:

لأنـت إلى الفؤاد أحب قربا   من الصادي إلى كأس دهاق

وهو جمع دهق، وهو خشبتان يغمز بهما الساق. والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمرا ذات دهاق، أي عصرت وصفيت؛ قاله القشيري. وفي الصحاح: وأدهقت الماء: أي أفرغته إفراغا شديدا: قال أبو عمرو: والدهق ـ بالتحريك: ضرب من العذاب. وهو بالفارسية أشكنجه. المبرد: والمدهوق: المعذب بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه. ابن الأعرابي: دهقت الشيء كسرته وقطعته، وكذلك دهدقته: وأنشد لحجر بن خالد:

ندهدق بضع اللحم للباع والندى   وبعضهم تغلي بذم مناقعه

ودهمقته بزيادة الميم: مثله. وقال الأصمعي: الدهمقة: لين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء لين؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوما فقال: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

قوله تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ لغوا ولا كذابا ﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يلغى من الكلام ويطرح؛ ومنه الحديث: (إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت)[1] وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا. "ولا كذابا" تقدم، أي لا يكذب بعضهم بعضا، ولا يسمعون كذبا. وقرأ الكسائي "كذابا" بالتخفيف من كذبت كذابا أي لا يتكاذبون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنما خففها ها هنا لأنها ليست مقيدة بفعل يصير مصدرا له، وشدد قوله: "وكذبوا بآياتنا كذابا" لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذاب. ﴿ جزاء من ربك ﴾ نصب على المصدر. لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره، جزاءه وكذلك ﴿ عطاء ﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي أعطاهم عطاء. ﴿ حسابا ﴾ أي كثيرا، قاله قتادة؛ يقال: أحسبت فلانا: أي كثرت له العطاء حتى قاله حسبي. قال:

ونقفي وليد الحي إن كان جائعا   ونحسبه إن كان ليس بجائع

وقال القتبي: ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حسبي. وقال الزجاج: "حسابا" أي ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أحسبني كذا: أي كفاني. وقال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا. مجاهد: حسابا لما عملوا، فالحساب بمعنى العد. أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشرا، ووعد لقوم بسبعمائة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدارا؛ كما قال تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (الزمر: ١٠). وقرأ أبو هاشم "عطاء حسابا" بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فعال أي كفافا؛ قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته؛ وأنشد قول الشاعر:

إذا أتاه ضيفه يحسِّبه

وقرأ ابن عباس "حسانا" بالنون.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٠)، ومسلم (٨٥١).

قولـه تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم: "رَبُّ" بالرفع على الاستئناف، "الرحمن" خبره. أو بمعنى: هو رب السموات، ويكون "الرحمن" مبتدأ ثانيا. وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض، نعتا لقولـه: "جزاء من ربك" أي جزاء من ربك رب السموات الرحمن. وقرأ ابن عباس وعاصم وحمزة والكسائي: "رب السموات" خفضا على النعت، "الرحمن" رفعا على الابتداء، أي هو الرحمن. واختاره أبو عبيد وقال: هذا أعدلـها؛ خفض "رب" لقربه من قولـه: "من ربك" فيكون نعتا لـه، ورفع "الرحمن" لبعده منه، على الاستئناف، وخبره ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ أي لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لـهم فيه. وقال الكسائي: "لا يملكون منه خطابا" بالشفاعة إلا بإذنه. وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه؛ دليلـه: ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ (هود: ١٠٥).

وقيل: أراد الكفار "لا يملكون منه خطابا"، فأما المؤمنون فيشفعون. قلت: بعد أن يؤذن لـهم؛ لقولـه تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقولـه تعالى: ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن لـه الرحمن ورضي لـه قولا ﴾ (طه: ١٠٩).

قولـه تعالى: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ "يوم" نصب على الظرف؛ أي يوم لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح. واختلف في الروح على أقوال ثمانية: الأول: أنه ملك من الملائكة. قال ابن عباس: ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلـهم صفا، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم. ونحو منه عن ابن مسعود؛ قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال. وهو حيال السماء الرابعة، يسبح الله كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكا، فيجيء يوم القيامة وحده صفا، وسائر الملائكة صفا.

الثاني: أنه جبريل عليه السلام. قالـه الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير. وعن ابن عباس: إن عن يمين العرش نهرا من نور، مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل، فيزداد نورا على نوره، وجمالا على جمالـه، وعظما على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة. وقال وهب: إن جبريل عليه السلام واقف

بين يدي الله تعالى ترعد فرائصه؛ يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملك، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رؤوسهم، فإذا أذن الله لـهم في الكلام قالوا: لا إلـه إلا أنت؛ وهو قولـه تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن لـه الرحمن" في الكلام "وقال صوابا" يعني قولـه: "لا إلـه إلا أنت".

الثالث: روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (الروح في هذه الآية جند من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لـهم رؤوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام). ثم قرأ "يوم يقوم الروح والملائكة صفا" فإن هؤلاء جند، وهؤلاء جند. وهذا قول أبي صالح ومجاهد. وعلى هذا هم خلق على صورة بني آدم، كالناس وليسوا بناس. الرابع: أنهم أشراف الملائكة؛ قالـه مقاتل بن حيان. الخامس: أنهم حفظة على الملائكة؛ قالـه ابن أبي نجيح. السادس: أنهم بنو آدم، قالـه الحسن وقتادة. فالمعنى ذوو الروح. وقال العوفي والقرظي: هذا مما كان يكتمه ابن عباس؛ قال: الروح: خلق من خلق الله على صور بني آدم، وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح. السابع: أرواح بني آدم تقوم صفا، فتقوم الملائكة صفا، وذلك بين النفختين، قبل أن ترد إلى الأجساد؛ قالـه عطية. الثامن: أنه القرآن؛ قالـه زيد بن أسلم.

وقرأ "وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا". و "صفا": مصدر أي يقومون صفوفا. والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع، كالعدل، والصوم. ويقال ليوم العيد: يوم الصف. وقال في موضع آخر: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ (الفجر: ٢٢) هذا يدل على الصفوف، وهذا حين العرض والحساب. قال معناه القتبي وغيره. وقيل: يقوم الروح صفا، والملائكة صفا، فهم صفان. وقيل: يقوم الكل صفا واحدا. ﴿ لا يتكلمون ﴾ أي لا يشفعون ﴿ إلا من أذن لـه الرحمن ﴾ في الشفاعة ﴿ وقال صوابا ﴾ يعني حقا؛ قالـه الضحاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إلـه إلا الله. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يشفعون لمن قال لا إلـه إلا الله. وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة. وقيل: "لا يتكلمون" يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفا، لا يتكلمون هيبة وإجلالا "إلا من أذن لـه الرحمن" في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه. وقال الحسن: إن الروح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قولـه تعالى: "وقال صوابا".

قولـه تعالى: ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾ أي مرجعا بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيرا رده إلى الله عز وجل، وإذا عمل شرا عده منه. وينظر إلى هذا المعنى قولـه ﷺ: (والخير كلـه بيديك، والشر ليس إليك). وقال قتادة: "مآبا": سبيلا.

قولـه تعالى: ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ﴾ يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آت فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (النازعات: ٤٦) قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هي قتل قريش ببدر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت

والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخزي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ بين وقت ذلك العذاب؛ أي أنذرناكم عذابا قريبا في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أي يراه، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى. والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن؛ أي يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا، فيتمنى أن يكون ترابا. ولما قال: ﴿ ويقول الكافر ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن. وقيل: المرء ها هنا: أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط. "ويقول الكافر" أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب. وقال مقاتل: نزلت قوله: "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه" في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي: ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ﴾: في أخيه الأسود بن عبد الأسد. وقال الثعلبي: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر: ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب، وافتخر بأنه خلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه يكون بمكان آدم، فيقول: "يا ليتني كنت ترابا" قال: ورأيته في بعض التفاسير للقشيري أبي نصر. وقيل: أي يقول إبليس يا ليتني خلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم. وعن ابن عمر: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يوضع القصاص بين البهائم، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها: كوني ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: "يا ليتني كنت ترابا". ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ. وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة"، مجودا والحمد لله. ذكر أبو جعفر النحاس: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال حدثنا سلمة بن شبيب، قال حدثنا عبد الرزاق، قال حدثنا معمر، قال أخبرني جعفر بن برقان الجزري، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير كوني ترابا، فعند ذلك "يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا". وقال قوم: "يا ليتني كنت ترابا": أي لم أبعث، كما قال: "يا ليتني لم أوت كتابيه". وقال أبو الزناد: إذا قضي بين الناس، وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن: عودوا ترابا، فيعودون ترابا، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم "يا ليتني كنت ترابا". وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجن يعودون تراباً. وقال عمر بن عبد العزيز والزهري والكلبي ومجاهد: مؤمنو الجنة حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة "الرحمن" بيان هذا، وأنهم مكلفون: يثابون ويعاقبون، فهم كبني آدم، والله أعلم بالصواب.

سورة النازعات

مكيّة بإجماع . وهي ست وأربعون آية .

قولـه تعالى : ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ والنازعات غرقا ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، على أن القيامة حق . و" النازعات " : الملائكة التي تنزع أرواح الكفار ؛ قالـه علي ﷺ، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد : هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم . قال ابن مسعود : يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نزعا كالسفود ينزع من الصوف الرطب ، ثم يغرقها ، أي يرجعها في أجسادهم ، ثم ينزعها ؛ فهذا عملـه بالكفار . وقالـه ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : نزعت أرواحهم ، ثم غرقت ، ثم حرقت ؛ ثم قذف بها في النار . وقيل : يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرق . وقال السدي : و" النازعات " هي النفوس حين تغرق في الصدور . مجاهد : هي الموت ينزع النفوس . الحسن وقتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ؛ أي تذهب ، من قولـهم : نزع إليه أي ذهب ، أو من قولـهم : نزعت الخيل أي جرت . " غرقا " أي إنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقالـه أبو عبيدة وابن كيسان والأخفش . وقيل : النازعات القسي تنزع بالسهام ؛ قالـه عطاء وعكرمة . و" غرقا " بمعنى إغراقا ؛ وإغراق النازع في القوس أن يبلغ غاية المد ، حتى ينتهي إلى النصل . يقال : أغرق في القوس أي استوفى مدها ، وذلك بأن تنتهي إلى العقب الذي عند النصف الملفوف عليه . والاستغراق الاستيعاب . ويقال لقشرة البيضة الداخلة : " غرقئ " . وقيل : هم الغزاة الرماة .

قلت : هو والذي قبلـه سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقسي فالمراد النازعون بها تعظيما لـها ؛ وهو مثل قولـه تعالى : ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ (العاديات : ١) والله أعلم . وأراد بالإغراق : المبالغة في النزع وهو سائر في جميع وجوه تأويلـها . وقيل : هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر . حكاه يحيى ابن سلام . ومعنى " غرقا " أي إبعادا في النزع .

قولـه تعالى : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير : إذا حل عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال : والذي سمعت من العرب أن يقولوا أنشطت وكأنما أنشط من عقال . وربطها نشطها والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل في يد

البعير فقد نشطته، فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت منشط. وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفس المؤمنين عند الموت تنشط للخروج؛ وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا وتعرض عليه الجنة قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعد الله لـه من أزواجه وأهلـه من الحور العين، فهم يدعونه إليها، فنفسه إليهم نشطة أن تخرج فتأتيهم. وعنه أيضا قال: يعني أنفس الكفار والمنافقين تنشط كما ينشط العقب، الذي يعقب به السهم. والعقب بالتحريك: العصب الذي تعمل منه الأوتار، الواحدة عقبة؛ تقول منه: عقب السهم والقدح والقوس عقبا : إذا لوى شيئا منه عليه. والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة: عقدة يسهل انحلالـها إذا جذبت مثل عقدة التكة. وقال أبو زيد: نشطت الحجل أنشطه نشطا: عقدته بأنشوطة، وأنشطته أي حللته، وأنشطت الحبل أي مددته حتى ينحل. وقال الفراء: أنشط العقال أي حل، ونشط: أي ربط الحبل في يديه. وقال الليث: أنشطته بأنشوطة وأنشوطتين أي أوثقته، وأنشطت العقال: أي مددت أنشوطته فانحلت. قال: ويقال نشط بمعنى أنشط، لغتان بمعنى؛ وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أولا. وعنه أيضا: الناشطات الملائكة لنشاطها، تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان. وعنه أيضا وعن علي رضي الله عنهما: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار، ما بين الجلد والأظفار، حتى تخرجها من أجوافهم نشطا بالكرب والغم، كما تنشط الصوف من سفود الحديد، وهي من النشط بمعنى الجذب؛ يقال: نشطت الدلو أنشطها بالكسر، وأنشطها بالضم: أي نزعتها.

قال الأصمعي: بئر أنشاط: أي قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة. وبئر نشوط؛ قال: وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى تنشط كثيرا. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقيل: النازعات: أيدي الغزاة أو أنفسهم، تنزع القسي بإغراق السهام، وهي التي تنشط الأوهاق. عكرمة وعطاء: هي الأوهاق تنشط السهام. وعن عطاء أيضا وقتادة والحسن والأخفش: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق: أي تذهب. وكذا في الصحاح. "والناشطات نشطا" يعني النجوم من برج إلى برج، كالثور الناشط من بلد إلى بلد. والـهموم تنشط بصاحبها؛ قال هميان بن قحافة:

أمست همومي تنشط المناشطا الشام بي طورا وطورا واسطا

أبو عبيدة وعطاء أيضا: الناشطات: هي الوحش حين تنشط من بلد إلى بلد، كما أن الـهموم تنشط الإنسان من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هميان:

أمست همومي. . . (البيت).

وقيل: "والنازعات" للكافرين "والناشطات" للمؤمنين، فالملائكة يجذبون روح المؤمن برفق، والنزع جذب بشدة، والنشط جذب برفق. وقيل: هما جميعا للكفار والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قولـه تعالى: ﴿والسابحات سبحا﴾ قال علي ﷺ: هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين. الكلبي: هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، كالذي يسبح في الماء، فأحيانا ينغمس وأحيانا يرتفع، يسلونها سلا رفيقا بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح. وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من

السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه. وعن مجاهد أيضا: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها. وعنه أيضا: السابحات: الموت يسبح في أنفس بني آدم. وقيل: هي الخيل الغزاة؛ قال عنترة:

والخيل تعلم حين تسـ ـبح في حياض الموت سبحا

وقال امرؤ القيس:

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غبارا بالكديد المركل

قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، وكذا الشمس والقمر؛ قال الله تعالى: "كل في فلك يسبحون". عطاء: هي السفن تسبح في الماء. ابن عباس: السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج.

قوله تعالى: ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ قال علي ﷺ: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروق ومجاهد. وعن مجاهد أيضا وأبي روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه. وعن مجاهد أيضا: الموت يسبق الإنسان. مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. ابن مسعود: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور، شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت. وقال قتادة والحسن ومعمر: هي النجوم يسبق بعضها بعضا في السير. عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: يحتمل أن تكون السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار؛ قاله الماوردي. وقال الجرجاني: ذكر "فالسابقات" بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها؛ أي واللائي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب، ولو قلت: قام وذهب، لم يكن القيام سببا للذهاب.

قوله تعالى: ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ قال القشيري: أجمعوا على أن المراد الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول الثاني هي الكواكب السبعة. حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وفي تدبيرها الأمر وجهان: أحدهما: تدبير طلوعها وأفولها. الثاني: تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال. وحكى هذا القول أيضا القشيري في تفسيره، وأن الله تعالى علق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره. وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله؛ قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك؛ كما قال عز وجل: ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (الشعراء: ١٩٣). وكما قال تعالى: ﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ (البقرة: ٩٧). يعني جبريل نزله على قلب محمد ﷺ، والله عز وجل هو الذي أنزله.

وروى عطاء عن ابن عباس: ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾: الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة؛ جبريل وميكائيل وملك الموت واسمه عزرائيل وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس في البر والبحر، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل، وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام. وقيل: أي

وكلوا بأمور عرفهم الله بها. ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لنا ذلك إلا به عز وجل. وجواب القسم مضمر، كأنه قال: والنازعات وكذا وكذا لتبعثن ولتحاسبن. أضمر لمعرفة السامعين بالمعنى؛ قاله الفراء. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ ألست ترى أنه كالجواب لقولهم: "أئذا كنا عظاما نخرة" نبعث؟ فاكتفى بقوله: "أئذا كنا عظاما نخرة"؟ وقال قوم: وقع القسم على قوله: ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (النازعات: ٢٦) وهذا اختيار الترمذي بن علي. أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون "لعبرة لمن يخشى" ولكن وقع القسم على ما في السورة مذكورا ظاهرا بارزا أحرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيما قال ابن الأنباري: وهذا قبيح، لأن الكلام قد طال فيما بينهما. وقيل: جواب القسم "هل أتاك حديث موسى" لأن المعنى قد أتاك.

وقيل: الجواب ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ على تقدير ليوم ترجف، فحذف اللام. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره يوم ترجف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات غرقا. وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعات. ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام، والأول الوجه. وقيل: إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجف، وأبصارهم تخشع، فانتصاب "يوم ترجف الراجفة" على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه.

قال الزجاج: أي قلوب واجفة يوم ترجف، وقيل: انتصب بإضمار اذكر و"ترجف" أي تضطرب. والراجفة: أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرض، والرادفة الساعة. مجاهد: الراجفة الزلزلة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ الصيحة. وعنه أيضا وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي النفختان. أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى. وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: (بينهما أربعون سنة)[1] وقال مجاهد أيضا: الرادفة حين تنشق السماء وتحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة، وذلك بعد الزلزلة.

وقيل: الراجفة تحرك الأرض، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأرضين". فالله أعلم. وقد مضى في آخر "النمل" ما فيه كفاية في النفخ في الصور.

وأصل الرجفة الحركة، قال الله تعالى: "يوم ترجف الأرض" وليست الرجفة ههنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا: أي أظهر الصوت والحركة، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس فيها؛ قال:

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعدني وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا

وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال: (يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه)[2]. ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أي خائفة وجلة؛ قاله ابن عباس وعليه عامة المفسرين. وقال السدي: زائلة عن أماكنها. نظيره ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ (غافر: ١٨).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٥).

(٢) "حسن" انظر صحيح الجامع (٧٨٦٣)، وراجع الصحيحة (٩٥٢).

وقال المؤرخ: قلقة مستوفزة، مرتكضة غير ساكنة. وقال المبرد: مضطربة. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار؛ يقال وجف القلب يجف وجيفا إذا خفق، كما يقال: وجب يجب وجيبا، ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع، قال:

بدلـــن بعد جـرة صريفا وبعد طول النفس الوجيفا

و"قلوب" رفع بالابتداء و"واجفة" صفتها. و﴿أبصارها خاشعة﴾ خبرها؛ مثل قوله ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾ (البقرة: ٢٢١). ومعنى "خاشـعة" منكـسرة ذليلة مـن هول ما ترى. نظيره: ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهـم ذلة﴾ (القلم: ٤٣). والمعنى أبصـار أصحابها، فحـذف المضـاف. ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾ أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لـهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولـهم: "أئنا لمبعوثون خلقا جديدا" يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي رجع من حيث جاء؛ قاله قتادة. وأنشد ابن الأعرابي:

أحافرة على صلع وشيب معـاذ الله مـن سـفه وعار

يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت! ويقال: رجع على حافرته: أي الطريق الذي جاء منه. وقولـهم في المثل: النقد عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أول كلمة. ويقال: التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة. أي عند أول ما التقوا. وقيل: الحافرة العاجلة؛ أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟ قال الشاعر:

آليت لا أنساكم فاعلموا حتى يرد الناس في الحافره

وقيل: الحافرة: الأرض التي تحفر فيها قبورهم، فهي بمعنى المحفورة؛ كقولـه تعالى: "ماء دافق" و"عيشة راضية". والمعنى أئنا لمردودون في قبورنا أحياء. قاله مجاهد والخليل والفراء. وقيل: سميت الأرض الحافرة؛ لأنها مستقر الحوافر، كما سميت القدم أرضا؛ لأنها على الأرض. والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا. وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ "تلك إذاً كرة خاسرة". وقال مقاتل وزيد بن أسلم: هي اسم من أسماء النار. وقال ابن عباس: الحافرة في كلام العرب: الدنيا. وقرأ أبو حيوة: "الحفرة" بغير ألف، مقصور من الحافر. وقيل: الحفرة: الأرض المنتنة بأجساد موتاها؛ من قولـهم: حفرت أسنانه، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها. يقال: في أسنانه حفر، وقد حفرت تحفر حفرا، مثل كسر يكسر كسرا إذا فسدت أصولـها. وبنو أسد يقولون: في أسنانه حفر بالتحريك. وقد حفرت مثال تعب تعبا، وهي أردأ اللغتين؛ قالـه في الصحاح.

قولـه تعالى: ﴿أئذا كنا عظاما نخرة﴾ أي بالية متفتتة. يقال: نخر العظم بالكسر: أي بلي وتفتت؛ يقال: عظام نخرة. وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة، واختاره أبو عبيد؛ لأن الآثار التي تذكر فيها العظام، نظرنا فيها فرأينا نخرة لا ناخرة. وقرأ أبو عمرو وابنه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر "ناخرة" بألف، واختاره الفراء

والطبري وأبو معاذ النحوي؛ لوفاق رؤوس الآي. وفي الصحاح: والناخر من العظام التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولـها نخير. ويقال: ما بها ناخر، أي ما بها أحد. حكاه يعقوب عن الباهلي.
وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التي لم تنخر بعد، أي لم تبل ولا بد أن تنخر. وقيل: الناخر المجوفة. وقيل: هما لغتان بمعنى؛ كذلك تقول العرب: نخر الشيء فهو نخر وناخر؛ كقولـهم: طمع فهو طمع وطامع، وحذر وحاذر، وبخل وباخل، وفره وفاره؛ قال الشاعر:

يظل بها الشيخ الذي كان بادنا   يـدب علـى عـوج لـه نخرات

عوج: يعني قوائم. وفي بعض التفسير: ناخرة بالألف: بالية، ونخرة: تنخر فيها الريح أي تمر فيها، على عكس الأول؛ قال:

من بعد ما صرت عظاما ناخره

وقال بعضهم: الناخرة: التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها. والنخرة: التي فسدت كلـها. قال مجاهد: نخرة أي مرفوتة؛ كما قال تعالى: "عظاما ورفاتا" ونخرة الريح بالضم: شدة هبوبها. والنخرة أيضا والنخرة مثال الـهمـزة: مقدم أنف الفرس والحمـار والخنزير؛ يقـال: هشم نخرته: أي أنفـه.
﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أي رجعة خائبة، كاذبة باطلة، أي ليست كائنة؛ قالـه الحسن وغيره. الربيع بن أنس: "خاسرة" على من كذب بها. وقيل: أي هي كرة خسران. والمعنى أهلها خاسرون؛ كما يقال: تجارة رابحة أي يربح صاحبها. ولا شيء أخسر من كرة تقتضي المصير إلى النار.
وقال قتادة ومحمد بن كعب: أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحشرن بالنار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار. والكر: الرجوع؛ يقال: كره، وكر بنفسه، يتعدى ولا يتعدى. والكرة: المرة، والجمع الكرات.

قولـه تعالى: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال: "فإنما هي زجرة واحدة". وروى الضحـاك عن ابن عبـاس قال: نفخـة واحـدة ﴿ فإذا هـم ﴾ أي الخلائق أجمعـون ﴿ بالساهرة ﴾ أي على وجه الأرض، بعدما كانوا في بطنها. قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهرة، بمعنى ذات سهر؛ لأنه يسهر فيها خوفا منها، فوصفها بصفة ما فيها؛ واستدل ابن عباس والمفسرون بقول أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحمُ ساهرةٍ وبحـر   وما فاهوا به لـهم مقيم

وقال آخر يوم ذي قار لفرسه:

أقـدم محـاج إنهـا الأساوره   ولا يهولـنـك رجـل نـادره
فإنمـا قصـرك ترب الساهره   ثم تعـود بعدها في الحافره

من بعد ما صرت عظاما ناخره

وفي الصحاح. ويقال: الساهور: ظل الساهرة، وهي وجه الأرض. ومنه قولـه تعالى: "فإذا هم بالساهرة"، قال أبو كبير الـهذلي:

يرتدن ساهرة كأنّ جمـيمها   وعميمها أسداف ليل مظلم

ويقال: الساهور: كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت:

قمر وساهور يسل ويغمد

وأنشدوا الآخر في وصف امرأة:

كأنها عرق سام عند ضاربه   أو شقة خرجت من جوف ساهور

يريد شقة القمر. وقيل: الساهرة: هي الأرض البيضاء. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: أرض من فضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ. وقيل: أرض جددها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرة اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض. وقال الثوري: الساهرة: أرض الشام. وهب بن منبه: جبل بيت المقدس. عثمان بن أبي العاتكة: إنه اسم مكان من الأرض بعينه، بالشام، وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان يمده الله كيف يشاء. قتادة: هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم. وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ. وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم؛ أي يوقفون بأرض القيامة، فيدوم السهر حينئذ. ويقال: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة: جارية الماء، وفي ضدها: نائمة؛ قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحي السراب مجللا   لأقطارها قد جئتها متلثما

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى﴾ أي قد جاءك وبلغك "حديث موسى" وهذا تسلية للنبي ﷺ. أي إن فرعون كان أقوى من كفار عصرك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: "هل" بمعنى "ما" أي ما أتاك، ولكن أخبرت به، فإن فيه عبرة لمن يخشى. وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية. وفي "طوى" ثلاث قراءات: قرأ ابن محيصن وابن عامر والكوفيون "طوى" منونا واختاره أبو عبيد لخفة الاسم. الباقون بغير تنوين؛ لأنه معدول مثل عمر وقثم.

قال الفراء: طوى: واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول عن طاو، كما عدل عمر عن عامر. وقرأ الحسن وعكرمة "طوى" بكسر الطاء، وروي عن أبي عمرو، على معنى المقدس مرة بعد مرة؛ قاله الزجاج؛ وأنشد:

أعاذل إن اللوم في غير كنهه علـي طوى من غيك المتردد

أي هو لوم مكرر علي. وقيل: ضم الطاء وكسرها لغتان، وقد مضى في "طه" القول فيه. ﴿اذهب إلى فرعون﴾ أي ناداه ربه، فحذف، لأن النداء قول؛ فكأنه؛ قال لـه ربه "اذهب إلى فرعون". ﴿إنه طغى﴾ أي جاوز القدر في العصيان. وروي عن الحسن قال: كان فرعون علجا من همدان. وعن مجاهد قال: كان من أهل إصطخر. وعن الحسن أيضا قال: من أهل أصبهان، يقال لـه ذو ظفر، طوله أربعة أشبار. ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي تسلم فتطهر من الذنوب. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: هل لك أن تشهد أن لا إلـه إلا الله. ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي وأرشدك إلى طاعة ربك ﴿فتخشى﴾ أي تخافه وتتقيه. وقرأ نافع وابن كثير "تَزَّكَّى" بتشديد الزاي، على إدغام التاء في الزاي لأن أصلـها تتزكى. الباقون: "تزكى" بتخفيف الزاي على معنى طرح التاء. وقال أبو عمرو: "تزكى" بالتشديد (تتصدق بـ) الصدقة، و"تزكى" يكون زكيا مؤمنا. وإنما دعا فرعون ليكون زكيا مؤمنا. قال: فلـهذا اخترنا التخفيف. وقال صخر بن جويرية: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال لـه: "اذهب إلى فرعون" إلى قوله "وأهديك إلى ربك فتخشى" ولن يفعل، فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعل؟ فأوحى الله إليه أن امض إلى ما أمرتك به، فإن في السماء اثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر، فلم يبلغوه ولا يدركوه. ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي العلامة العظمى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تبرق كالشمس. وروى الضحاك عن ابن عباس: الآية الكبرى قال العصا. الحسن: يده وعصاه. وقيل: فلق البحر. وقيل: الآية: إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته. ﴿فكذب﴾ أي كذب نبي الله موسى ﴿وعصى﴾ أي عصى ربه عز وجل. ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي ولى مدبرا معرضا عن الإيمان "يسعى" أي يعمل بالفساد في الأرض. وقيل: يعمل في نكاية موسى. وقيل: "أدبر يسعى" هاربا من الحية. ﴿فحشر﴾ أي جمع أصحابه ليمنعوه منها. وقيـل: جمـع جنـوده للقتـال والمحاربـة، والسحـرة للمعارضـة. وقيـل: حشـر الناس للحضـور. ﴿فنادى﴾ أي قال لـهم بصوت عال ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ أي لا رب لكم فوقي. ويروى: إن إبليس تصور لفرعون في صورة الإنس بمصر في الحمام، فأنكره فرعون، فقال لـه إبليس: ويحك! أما تعرفني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ ألست القائل أنا ربكم الأعلى. ذكره الثعلبي في كتاب (العرائس). وقال عطاء: كان صنع لـهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها، فقال أنا رب أصنامكم. وقيل: أراد القادة والسادة. هو ربهم، وأولئك هم أرباب السفلة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر؛ لأن النداء يكون قبل الحشر. ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي نكال قولـه: ﴿ما علمت لكم من إلـه غيري﴾ (القصص: ٣٨) وقولـه بعد: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات: ٢٤) قالـه ابن عباس ومجاهد وعكرمة. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ابن عباس. والمعنى: أمهلـه في الأولى، ثم أخذه في الآخرة، فعذبه بكلمتيه. وقيل: نكال الأولى: هو أن أغرقه، ونكال الآخرة: العذاب في الآخرة. وقاله قتادة وغيره. وقال مجاهد: هو عذاب أول عمره وآخره. وقيل: الآخرة قولـه "أنا ربكم الأعلى" والأولى تكذيبه لموسى. عن قتادة أيضا. و"نكال"

منصوب على المصدر المؤكد في قول الزجاج؛ لأن معنى أخذه الله: نكل الله به، فأخرج (نكال) مكان مصدر من معناه، لا من لفظه. وقيل: نصب بنزع حرف الصفة. أي فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نزع الخافض نصب. وقال الفراء: أي أخذه الله أخذا نكالا، أي للنكال. والنكال: اسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة لـه حتى يعتبر به. يقال: نكل فلان بفلان: إذا أثخنه عقوبة. والكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل القيد. وقد مضى في سورة "المزمل" والحمد لله. ﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ أي اعتبارا وعظة. ﴿ لمن يخشى ﴾ أي يخاف الله عز وجل.

قولـه تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقا ﴾ يريد أهل مكة، أي أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم ﴿ أم السماء ﴾ فمن قدر على السماء قدر على الإعادة؛ كقولـه تعالى: ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (غافر: ٥٧) وقولـه تعالى: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلـهم ﴾ (يس: ٨١)، فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ. ثم وصف السماء فقال: ﴿ بناها ﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء. ﴿ رفع سمكها ﴾ أي أعلى سقفها في الـهواء؛ يقال: سمكت الشيء أي رفعته في الـهواء، وسمك الشيء سموكا: ارتفع. وقال الفراء: كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سمك. وبناء مسموك وسنام سامك تامك أي عال، والمسموكات: السموات. ويقال: اسْمُك في الديم، أي اصعد في الدرجة. قولـه تعالى: ﴿ فسواها ﴾ أي خلقها خلقا مستويا، لا تفاوت فيه، ولا شقوق، ولا فطور.

قولـه تعالى: ﴿ وأغطش ليلـها ﴾ أي جعلـه مظلما؛ غطش الليل وأغطشه الله؛ كقولك: ظلم (الليل) وأظلمه الله. ويقال أيضا: أغطش الليل بنفسه. وأغطشه الله كما يقال: أظلم الليل، وأظلمه الله. والغطش والغبش: الظلمة. ورجل أغطش: أي أعمى، أو شبيه به، وقد غطش، والمرأة غطشاء؛ ويقال: ليلة غطشاء، وليل أغطش وفلاة غطشى لا يهتدى لـها؛ قال الأعشى:

ويهماء بالليل غطشى الفلا ة يؤنسـني صوت فيادها

وقال الأعشى أيضا:

عقرت لـهم موهنا ناقتي وغامرهم مدلـهم غطش

يعني بغامرهم ليلـهم، لأنه غمرهم بسواده. وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل، لأن ظهورها بالليل.

قولـه تعالى: ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي أبرز نهارها وضوءها وشمسها. وأضاف الضحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أي بسطها. وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. وقد مضى القول فيه في أول

"البقرة" عند قولـه تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا، ثم استوى إلى السماء ﴾ (البقرة: ٢٩) مستوفى.

والعرب تقول: دحوت الشيء أدحوه دحوا: إذا بسطته. ويقال لعش النعامة أدحِي؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض. وقال أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهـم قطانها حتى التنادي

وأنشد المبرد:

دحـاها فـلما رآهـا اسـتوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وقيل: دحاها سواها؛ ومنه قول زيد بن عمرو:

وأسـلمت وجهـي لمـن أسـلمت لـه الأرض تحمـل صخرا ثقالا

دحـاهـا فـلما اسـتوت شـدها بأيـد وأرسـى عـليها الجبالا

وعن ابن عباس: خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان، قبل أن يخلق الدنيا بألف عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت. وذكر بعض أهل العلم أن "بعد" في موضع "مع" كأنه قال: والأرض مع ذلك دحاها؛ كما قال تعالى: ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ (القلم: ١٣). ومنه قولـهم: أنت أحمق وأنت بعد هذا سيئ الخلق، قال الشاعر:

فقلت لـها عني إليك فإنني حـرام وإني بعد ذاك لبيب

أي مع ذلك لبيب. وقيل: بعد: بمعنى قبل؛ كقولـه تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) أي من قبل الفرقان، قال أبو خراش الـهذلي:

حمـدت إلـهي بعـد عـروة إذ نجـا خراش وبعض الشر أهون من بعض

وزعموا أن خراشا نجا قبل عروة. وقيل: "دحاها": حرثها وشقها. قاله ابن زيد. وقيل: دحاها مهدها للأقوات. والمعنى متقارب وقراءة العامة "والأرض" بالنصب، أي دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون "والأرض" بالرفع، على الابتداء؛ لرجوع الـهاء. ويقال: دحا يدحو دحوا ودحى يدحى دحيا؛ كقولـهم: طغى يطغى ويطغو ، وطغي يطغى، ومحا يمحو ويمحى، ولحى العود يلحى ويلحو، فمن قال: يدحو قال دحوت ومن قال يدحى قال دحيت ﴿ أخرج منها ﴾ أي أخرج من الأرض ﴿ ماءها﴾ أي العيون المتفجرة بالماء. ﴿ ومرعاها ﴾ أي النبات الذي يرعى. وقال القتبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء. ﴿ والجبال أرساها ﴾ قراءة العامة "والجبال" بالنصب، أي وأرسى الجبال "أرساها" يعني: أثبتها فيها أوتادا لـها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم "والجبالُ" بالرفع على الابتداء. ويقال: هلا أدخل حرف العطف على "أخرج" فيقال: إنه حال بإضمار قد؛ كقولـه تعالى: ﴿ حصرت صدورهم ﴾ (النساء: ٩٠). ﴿ متاعا لكم ﴾ أي منفعة لكم ﴿ ولأنعامكم ﴾ من الإبل والبقر والغنم.

و "متاعا" نصب على المصدر من غير اللفظ؛ لأن معنى "أخرج منها ماءها ومرعاها" أمتع بذلك. وقيل: نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعا.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ أي الداهية العظمى، وهي النفخة الثانية، التي يكون معها البعث، قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه، وهو قول الحسن. وعن ابن عباس أيضا والضحاك: أنها القيامة؛ سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها؛ أي تقلبه. وفي أمثالهم:

جرى الوادي فطمَّ على القريِّ

المبرد: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طم الفرس طميما إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء إذا ملأ النهر كله. غيره: هي مأخوذة من طم السيل الركية أي دفنها، والطم: الدفن والعلو. وقال القاسم بن الوليد الهمداني: الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. وهو معنى قول مجاهد: وقال سفيان: هي الساعة التي يسلم فيها أهل النار إلى الزبانية. أي الداهية التي طمت وعظمت؛ قال:

إن بعض الحب يعمي ويصم وكذاك البغض أدهى وأطم

﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ أي ما عمل من خير أو شر. ﴿ وبرزت الجحيم ﴾ أي ظهرت. ﴿ لمن يرى ﴾ قال ابن عباس: يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصر. وقيل: المراد الكافر لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلى الكافر بالنار. وجواب "فإذا جاءت الطامة" محذوف أي إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة. وقرأ مالك بن دينار: "وَبَرَزَت الجحيُم". عكرمة: وغيره: "لمن ترى" بالتاء، أي لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. والخطاب له عليه السلام، والمراد به النّاس.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا ﴾ أي تجاوز الحد في العصيان. قيل: نزلت في النضر وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى. وروى جويبر عن الضحاك قال: قال حذيفة: أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون. ويروى أنه وجد في الكتب: إن الله جل ثناؤه قال "لا يؤثر عبد لي دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه وضيعته، ثم لا أبالي في أيها هلك". ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي مأواه. والألف واللام بدل من الهاء.

قولـه تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربه. وقال الربيع: مقامه يوم الحساب. وكان قتادة يقول: إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب فيقلع. نظيره: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن : ٤٦). ﴿ ونهى النفس عن الـهوى ﴾ أي زجرها عن المعاصي والمحارم. وقال سهل: ترك الـهوى مفتاح الجنة؛ لقولـه عز وجل: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الـهوى" قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحق الـهوى، وسيأتي زمان يقود الـهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمان. ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي المنزل. والآيتان نزلتا في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال: أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسر يوم بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه؛ فقال: ما هو لي بأخ، شدوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا. فأوثقوه حتى بعثت أمه في فدائه. "وأما من خاف مقام ربه" فمصعب بن عمير، وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص[1] في جوفه. وهي السهام، فلما رآه رسول الله ﷺ متشحطا في دمه قال: (عند الله أحتسبك) وقال لأصحابه: (لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعليه من ذهب). وقيل: إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامرا يوم بدر. وعن ابن عباس أيضا قال: نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزومي ومصعب بن عمير العبدري. وقال السدي: نزلت هذه الآية "وأما من خاف مقام ربه" في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك أن أبا بكر كان لـه غلام يأتيه بطعام، وكان يسألـه من أين أتيت بهذا، فأتاه يوما بطعام فلم يسأله وأكلـه، فقال لـه غلامه: لم لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام. فقال: تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطونيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبسته فنزلت: "وأما من خاف مقام ربه". وقال الكلبي: نزلت في من هم بمعصية وقدر عليها في خلوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عباس. يعني من خاف عند المعصية مقامه بين يدي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ قال ابن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة استهزاء، فأنزل الله عز وجل الآية. وقال عروة بن الزبير في قولـه تعالى: ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾؟ لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى نزلت هذه الآية ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾. ومعنى "مرساها" أي قيامها. قال الفراء: رسوها قيامها كرسو السفينة. وقال أبو عبيدة: أي

(١) المشاقص: جمع مِشْقَصُ وهو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض.

منتهاها، ومرسى السفينة حيث تنتهي. وهو قول ابن عباس. الربيع بن أنس: متى زمانها. والمعنى متقارب. وقد مضى في "الأعراف" بيان ذلك. وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة إلا بغضبة يغضبها ربك). "فيم أنت من ذكراها" أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ وليس لك السؤال عنها. وهذا معنى ما رواه الزهري عن عروة بن الزبير قال: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت: "فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها" أي منتهى علمها؛ فكأنه ﷺ لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك، فقيل له: لا تسأل، فلست في شيء من ذلك. ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين في مسألتهم له؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه، ولست ممن يعلمه. روي معناه عن ابن عباس. والذكرى بمعنى الذكر.

قوله تعالى: ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أي منتهى علمها، فلا يوجد عند غيره علم الساعة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ (الأعراف: ١٨٧) وقوله تعالى: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ (لقمان: ٣٤). ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي مخوف؛ وخص الإنذار بمن يخشى، لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذرا لكل مكلف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ (يس: ١١).

وقراءة العامة "منذر" بالإضافة غير منون؛ طلب التخفيف، وإلا فأصله التنوين؛ لأنه للمستقبل وإنما لا ينون في الماضي. قال الفراء: يجوز التنوين وتركه؛ كقوله تعالى: ﴿ بالغ أمره ﴾ (الطلاق: ٣) و﴿ بالغ أمره ﴾ و﴿ موهن كيد الكافرين ﴾ (الأنفال: ١٨) و"موهنٌ كيد الكافرين" والتنوين هو الأصل، وبه قرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن محيصن وحميد وعياش عن أبي عمرو "منذر" منونا، وتكون في موضع نصب، والمعنى نصب، إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة. وقال أبو علي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيد أمس؛ لأنه قد فعل الإنذار، الآية رد على من قال: أحوال الآخرة غير محسوسة، وإنما هي راحة الروح أو تألمها من غير حس. ﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ يعني الكفار يرون الساعة ﴿لم يلبثوا﴾ أي في دنياهم، ﴿ إلا عشية ﴾ أي قدر عشية ﴿ أو ضحاها ﴾ أي أو قدر الضحا الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (الأحقاف: ٣٥). وروى الضحاك عن ابن عباس: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا. وقيل: "لم يلبثوا" في قبورهم "إلا عشية أو ضحاها"، وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في القبور لما عاينوا من الهول. وقال الفراء: يقول القائل: وهل للعشية ضحا؟ وإنما الضحا لصدر النهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب؛ يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار؛ قال: وأنشدني بعض بني عقيل:

نحن صبحنا عامرا في دارها جردا تعادي طرفي نهارها

عشية الهلال أو سرارها

أراد: عشية الهلال، أو سرار العشية، فهو أشد من آتيك الغداة أو عشيتها.

سورة عَبَسَ

مكيّة في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية.

قولـه تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ عبس ﴾ أي كلح بوجهه؛ يقال: عبس وبسر. وقد تقدم. ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض بوجهه ﴿ أن جاءه ﴾ "أن" في موضع نصب لأنه مفعول لـه، المعنى لأن جاءه الأعمى، أي الذي لا يبصر بعينيه. فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية. قال مالك: إن هشام بن عروة حدثه عن عروة، أنه قال: نزلت "عبس وتولى" في ابن أم مكتوم؛ جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: (يا فلان، هل ترى بما أقول بأسا)؟ فيقول: (لا والدمى ما أرى بما تقول بأسا)؛ فأنزل الله: "عبس وتولى"[1]. وفي الترمذي مسندا قال: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، حدثني أبي، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: نزلت "عبس وتولى" في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: (أترى بما أقول بأسا) فيقول: لا؛ ففي هذا نزلت؛ قال: هذا حديث غريب.

الثانية: الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، واسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين، يقال كان الوليد بن المغيرة. ابن العربي: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس. وقال قتادة: هو أمية بن خلص وعنه: أبيّ بن خلف. وقال مجاهد: كانوا ثلاثة عتبة وشيبة إبنا ربيعة وأبيّ بن خلف. وقال عطاء: عتبة بن ربيعة. سفيان الثوري: كان النبي ﷺ مع عمه العباس. الزمخشري: كان عنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرهم. قال ابن العربي: أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفردا، ولا مع أحد.

الثالثة: أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل

---

(١) ضعيف.

بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد؛ فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية. قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط لـه رداءه ويقول: (مرحبا بمن عاتبني فيه ربي). ويقول: (هل من حاجة)؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما. قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع ومعه راية سوداء.

الرابعة: قال علماؤنا: ما فعلـه ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالما بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قولـه تعالى: ﴿ ما كان لنبي أن يكون لـه أسرى ﴾ (الأنفال: ٦٧) الآية على ما تقدم. وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب ابن مكتوم من الإيمان؛ كما قال: (إني لأصل الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه)[1].

الخامسة: قال ابن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاء منه. ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: "عبس وتولى" بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيما لـه ولم يقل: عبست وتوليت. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا لـه فقال: ﴿ وما يدريك ﴾ أي يعلمك ﴿ لعلـه ﴾ يعني ابن أم مكتوم ﴿ يزكى ﴾ بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه. وقيل: الضمير في "لعلـه" للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرأ الحسن "آأن جاءَهُ الأعْمَى" بالمد على الاستفهام فـ"أن" متعلقة بفعل محذوف دل عليه "عبس وتولى" التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على "وتولى"، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة.

السادسة: نظير هذه الآية في العتاب قولـه تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ (الأنعام: ٥٢) وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ (الكهف: ٢٨) وما كان مثلـه، والله أعلم.

﴿ أو يذكر ﴾ يتعظ بما تقول ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أي العظة. وقراءة العامة "فتنفعُه" بضم العين، عطفا على "يزكى". وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى "فتنفعه" نصبا. وهي قراءة السلمي وزر ابن حبيش، على جواب لعل، لأنه غير موجب؛ كقولـه تعالى: ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ (غافر: ٣٦) ثم قال: ﴿ فاطلع ﴾ (الصافات: ٥٥).

قولـه تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ أما من استغنى ﴾ أي كان ذا ثروة وغنى ﴿ فأنت لـه تصدى ﴾ أي تعرض لـه، وتصغي لكلامه. والتصدي: الإصغاء؛ قال الراعي:

تصـــدى لوضـاح كأن جـبينه   سراج الدجى يحني إليه الأساور

وأصلـه تتصدد من الصد، وهو ما استقبلك، وصار قبالتك؛ يقال: داري صدد داره أي قبالتها، نصب على الظرف. وقيل: من الصدى وهو العطش. أي تتعرض لـه كما يتعرض العطشان للماء، والمصاداة: المعارضة. وقراءة العامة "تصدى" بالتخفيف، على طرح التاء الثانية تخفيفا. وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام. ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ. ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وهو يخشى ﴾ أي يخاف الله. ﴿ فأنت عنه تلـهى ﴾ أي تعرض عنه بوجهك وتشغل بغيره. وأصلـه تتلـهى؛ يقال: لـهيت عن الشيء ألـهى: أي تشاغلت عنه. والتلـهي: التغافل. ولـهيتُ عنه وتليتُ: بمعنى.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا ﴾ كلمة ردع وزجر؛ أي ما الأمر كما تفعل مع الفريقين؛ أي لا تفعل بعدها مثلـها: من إقبالك على الغني، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي ﷺ كان ترك الأولى كما تقدم، ولو حمل على صغيرة لم يبعد؛ قالـه القشيري. والوقف على "كلا" على هذا الوجه: جائز. ويجوز أن تقف على "تلـهى" ثم تبتدئ "كلا" على معنى حقا. ﴿ إنها ﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي اتعظ بالقرآن. قال الجُرجاني: "إنها" أي القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر: "كلا إنه تذكرة". ويدل على أنه أراد القرآن قولـه: ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي كان حافظا لـه غير ناس؛ وذكر الضمير، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. وروى الضحاك عن ابن عباس في قولـه تعالى: "فمن شاء ذكره" قال من شاء الله تبارك وتعالى ألـهمه. ثم أخبر عن جلالته فقال: ﴿ في صحف ﴾ جمع صحيفة ﴿ مكرمة ﴾ أي عند الله؛ قالـه السدي. الطبري: "مكرمة" في الدين لما فيها من العلم والحكم. وقيل: "مكرمة" لأنها نزل بها كرام الحفظة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ. وقيل: "مكرمة" لأنها نزلت من كريم؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه. وقيل: المراد كتب الأنبياء؛ دليلـه: ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى ﴾ (الأعلى: ١٩). ﴿ مرفوعة ﴾ رفيعة القدر عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة، قالـه يحيى بن سلام. الطبري: مرفوعة الذكر والقدر. وقيل: مرفوعة عن الشبه والتناقض. ﴿ مطهرة ﴾ قال الحسن: من كل دنس. وقيل: مصانة عن أن ينالـها الكفار. وهو معنى قول السدي. وعن الحسن أيضا: مطهرة من أن تنزل على المشركين. وقيـل: أي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرؤونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة.

﴿ بأيدي سفرة ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها "بأيدي سفرة" قال: كتبة. وقاله مجاهد أيضا. وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، وأحدهم: سافر؛ كقولك: كاتب وكتبة. ويقال: سفرت أي كتبت، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار.

قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سفر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. قال: ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة: أصلحت بينهم. وقاله الفراء، وأنشد:

فما أدع السفارة بين قومي ولا أمشي بغش إن مشيت

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم والجمع: سفراء، مثل فقيه وفقهاء. ويقال للوراقين سفراء، بلغة العبرانية. وقال قتادة: السفرة هنا: هم القراء، لأنهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضا كقول ابن عباس. وقال وهب بن منبه: "بأيدي سفرة. كرام بررة" هم أصحاب النبي ﷺ. قال ابن العربي: لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة، كراما بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم. وروي في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة؛ ومثل الذي يقرؤه وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران)[1] متفق عليه، واللفظ للبخاري. ﴿ كرام ﴾ أي كرام على ربهم؛ قاله الكلبي. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وروى الضحاك عن ابن عباس في "كرام" قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو تبرز لغائطه. وقيل: أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم. ﴿ بررة ﴾ جمع بار مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بر وبار إذا كان أهلا للصدق، ومنه بر فلان في يمينه: أي صدق، وفلان يبر خالقه ويتبرره: أي يطيعه؛ فمعنى "بررة" مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم. وقد مضى في سورة "الواقعة" قولة تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون ﴾ (الواقعة: ٧٩) أنهم الكرام البررة في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

قولـه تعالى: ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾؟ "قتل" أي لعن. وقيل: عذب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن "قتل الإنسان" فإنما عني به الكافر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عتبة بن أبي لـهب، وكان قد آمن، فلما نزلت "والنجم" ارتد، وقال: آمنت بالقرآن كلـه إلا النجم، فأنزل الله جل ثناؤه فيه "قتل الإنسان" أي لعن عتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: ﴿اللهم سلط عليه كلبك أسد الغاضرة﴾ فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا، فجعلوه في وسط الرفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئا قط إلا كان. وروى أبو صالح عن ابن عباس "ما أكفره": أي شيء أكفره؟ وقيل: "ما" تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتلـه الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا؛ قال ابن جريج: أي ما أشد كفره! وقيل: "ما" استفهام أي: أي شيء دعاه إلى الكفر؟ فهو استفهام توبيخ. و"ما" تحتمل التعجب، وتحتمل معنى أي، فتكون استفهاما.

قولـه تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي اعجبوا لخلقه. ﴿ من نطفة ﴾ أي من ماء يسير مهين جماد ﴿ خلقه ﴾ فلم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين. ﴿ فقدره ﴾ في بطن أمه. كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي قدر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسنا ودميما، وقصيرا وطويلا، وشقيا وسعيدا. وقيل: "فقدره" أي فسواه كما قال: "أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا". وقال: "الذي خلقك فسواك". وقيل: "فقدره" أطوارا أي من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خلقه. ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسره للخروج من بطن أمه. مجاهد: يسره لطريق الخير والشر؛ أي بيّن لـه ذلك. دليلـه: "إنا هديناه السبيل" و"هديناه النجدين". وقالـه الحسن وعطاء وابن عباس أيضا في رواية أبي صالح عنه. وعن مجاهد أيضا قال: سبيل الشقاء والسعادة. ابن زيد: سبيل الإسلام. وقال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه لـه وقدره عليه؛ دليلـه قولـه ﷺ: (اعملوا فكل ميسر لما خلق لـه)[1].

قولـه تعالى: ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي جعل لـه قبرا يوارى فيه إكراما، ولم يجعلـه مما يلقى على وجه الأرض تأكلـه الطير والعوافي؛ قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: "أقبره": جعل لـه قبرا، وأمر أن يقبر. قال أبو عبيدة: ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أقبرنا صالحا؛ فقال: دونكموه. وقال: "أقبره" ولم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لو أسندت ميتا إلى نحرها   عـاش ولم ينقل إلى قابر

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي صيره بحيث يقبر، وجعل لـه قبرا؛ تقول العرب: بترت ذنب البعير، وأبتره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلانا، والله أطرده، أي

---

(١) أخرجاه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

صيره طريدا. ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي أحياه بعد موته. وقراءة العامة "أنشره" بالألف. وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة "شَاءَ نَشَرَه" بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونشره؛ قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للمـــيت الناشر

قولـه تعالى: ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ قال مجاهد وقتادة: "لما يقض": لا يقضي أحد ما أمر به. وكان ابن عباس يقول: "لما يقض ما أمره" لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم. ثم قيل: "كلا" ردع وزجر، أي ليس الأمر: كما يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال: ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ (فصلت: ٥٠) ربما يقول قد قضيت ما أمرت به. فقال: كلا لم يقض شيئا بل هو كافر بي وبرسولي. وقال الحسن: أي حقا لم يقض: أي لم يعمل بما أمر به. و"ما" في قولـه: "لما" عماد للكلام؛ كقولـه تعالى: ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وقول: ﴿ عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ (المؤمنون: ٤٠). وقال الإمام ابن فورك: أي: كلا لما يقض الله لـهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض لـه. ابن الأنباري: الوقف على "كلا" قبيح، والوقف على "أمره" و"نشره" جيد؛ فـ "كلا" على هذا بمعنى حقا.

قولـه تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسر من رزقه؛ أي فلينظر كيف خلق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ لـه أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد. وروي عن الحسن ومجاهد قالا: "فلينظر الإنسان إلى طعامه" أي إلى مدخلـه ومخرجه. وروى ابن أبي خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: قال لي النبي ﷺ: (يا ضحاك ما طعامك) قلت: يا رسول الله! اللحم واللبن؛ قال: (ثم يصير إلى ماذا) قلت إلى ما قد علمته؛ قال: (فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا). وقال أبي بن كعب: قال النبي ﷺ: (إن مطعم ابن آدم جعل مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير)[1] وقال أبو الوليد: سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه؛ قال: يأتيه الملك فيقول انظر ما بخلت به إلى ما صار؟

قولـه تعالى: ﴿ أنا صببنا الماء صبا ﴾ قراءة العامة "إنا" بالكسر، على الاستئناف، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب "أنا" بفتح الـهمزة، فـ"أنا" في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: "فلينظر الإنسان إلى طعامه" إلى "أنا صببنا" فلا يحسن الوقف على "طعامه" من هذه

(١) "حسن" بنحوه في صحيح الجامع (١٧٧٨) ولفظه: "إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا، وضرب مطعم ابن آدم مثلا للدنيا، وإن قزحه وملحه".

القراءة. وكذلك إن رفعت "أنا" بإضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي كذلك كان. وقرأ الحسين بن علي "أنى" ممال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على "طعامه" تام. ويقال: معنى "أنى" أين، إلا أن فيها كناية عن الوجوه؛ وتأويلها: من أي وجه صببنا الماء؛ قال الكميت:

أنى، ومن أين آبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب

"صببنا الماء صبا": يعني الغيث والأمطار. ﴿ ثم شققنا الأرض شقا ﴾ أي بالنبات ﴿ فأنبتنا فيها حبا ﴾ أي قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يحصد ويدخر ﴿ وعنبا وقضبا ﴾ وهو القت والعلف، عن الحسن: سمي بذلك لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القتبي وثعلب: وأهل مكة يسمون القت القضب. وقال ابن عباس: هو الرطب لأنه يقضب من النخل: ولأنه ذكر العنب قبله. وعنه أيضا: أنه الفصفصة وهو القت الرطب. وقال الخليل: القضب الفصفصة الرطبة. وقيل: بالسين، فإذا يبست فهو قت. قال: والقضب: اسم يقع على ما يقضب منَ أغصَان الشجرة، ليتخذ منها سهام أو قسي. ويقال: قضبا، يعني جميع ما يقضب، مثل القت والكراث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها. وفي الصحاح: والقضة والقضب الرطبة، وهي الإسفست بالفارسية، والموضع الذي ينبت فيه مقضبة. ﴿ وزيتونا ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ ونخلا ﴾ يعني النخيل ﴿ وحدائق ﴾ أي بساتين واحدها حديقة. قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حداقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة. ﴿ غلبا ﴾ عظاما شجرها؛ يقال: شجرة غلباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق، لا يلتفت إلا جميعا؛ قال العجاج:

ما زلـــت يوم البين ألوي صلبي والرأس حتى صرت مثل الأغلب

ورجل أغلب بين الغلب إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب فاستعير؛ قال عمرو بن معدي كرب:

يمشي بها غُلب الرقاب كأنهم بزل كُسين من الكحيل جلالا

وحديقة غلباء: ملتفة وحدائق غلب. واغلولب العشب: بلَغ والتف البعض بَالبعض.

قال ابن عباس: الغلب: جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ. وعنه أيضا الطوال. قتادة وابن زيد: الغلب: النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضا وعكرمة: عظام الأوساط والجذوع. مجاهد: ملتفة. ﴿ وفاكهة ﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرهما ﴿ وأبا ﴾ هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأب: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحصيد؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

له دعوة ميمونة ريحها الصبا بها ينبت الله الحصيدة والأبا

وقيل: إنما سمي أبا؛ لأنه يؤب أي يُؤَمّ وينتجع. والأب والأم: أخوان؛ قال:

جذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب بـه والمكرع

وقال الضحاك: والأب: كل شيء ينبت على وجه الأرض. وكذا قال أبو رزين: هو النبات. يدل عليه قول ابن عباس قال: الأب: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام. وعن ابن عباس أيضا

وابن أبي طلحة: الأب: الثمار الرطبة. وقال الضحاك: هو التين خاصة. وهو محكي عن ابن عباس أيضا؛ قال الشاعر:

فما لـهم مرتع للسوا م والأب عندهم يقدر

الكلبي: هو كل نبات سوى الفاكهة. وقيل: الفاكهة: رطب الثمار، والأب يابسها.

وقال إبراهيم التيمي: سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن تفسير الفاكهة والأب فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (خلقتم من سبع، ورزقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبع). وإنما أراد بقوله: (خلقتم من سبع) يعني ﴿ من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة ﴾ (الحج: ٥) الآية، والرزق من سبع، وهو قولـه تعالى: "فأنبتنا فيها حبا وعنبا" إلى قولـه: "وفاكهة" ثم قال: "وأبا" وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم. والله أعلم. ﴿ متاعا لكم ﴾ نصب على المصدر المؤكد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات. وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دثوره، كما تقدم بيانه في غير موضع. ويتضمن امتنانا عليهم بما أنعم به، وقد مضى في غير موضع أيضا.

قولـه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا لـه بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما امتن به عليهم. والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصخ الأسماع: أي تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لـها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي استمع إليه، ومنه الحديث: (ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس)[١]. وقال الشاعر:

يصـيخ للنبأة أسماعه إصاخة المنشد للمنشد

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأول، قال الخليل: الصاخة: صيحة تصخ الآذان صخا أي تصمها بشدة وقعتها. وأصل الكلمة في اللغة: الصك الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر: إذا صكه، قال الراجز:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٦).

يا جارتي هل لك أن تجالدي جـادة كالصـــك بالجلامد

ومن هذا الباب قول العرب: صختهم الصاخة وباتتهم البائتة، وهي الداهية. الطبري: وأحسبه من صخ فلان فلانا: إذا أصماه. قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم، وإنها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أصَمَّ بك الناعي وإن كان أسمعا

وقال آخر:

أصَـــمَّني سرُّهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بسر يورث الصمما

لعمر الله إن صيحة القيامة لمسمعةَ تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة.

قولـه تعالى: ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ أي يهرب، أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التبعات. وقيل: لئلا يروا ما هو فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا؛ كما قال: ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ (الدخان: ٤١). وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفر منهم لما تبين لـه من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والـهموم عنه، ولو ظهر لـه ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى.

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال: يفر قابيل من أخيه هابيل، ويفر النبي ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ابنه، ولوط من امرأته، وآدم من سوأة بنيه. وقال الحسن: أول من يفر يوم القيامة من أبيه: إبراهيم، وأول من يفر من ابنه نوح؛ وأول من يفر من امرأته لوط. قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ. "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه". في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) قلت، يا رسول الله! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: (يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[١]. خرَّجه الترمذي. عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: (يحشرون حفاة عراة غرلا) فقالت امرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: (يا فلانة) "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"[٢]. قال: حديث حسن صحيح. وقراءة العامة بالغين المعجمة؛ أي حال يشغله عن الأقرباء. وقرأ ابن محيصن وحميد "يَعْنيه" بفتح الياء، وعين غير معجمة؛ أي يعنيه أمره. وقال القتبي: يعنيه: يصرفه ويصده عن قرابته، ومنه يقال: اعْنِ عني وجهك: أي أصرفه واعن عن السفيه؛ قال خفاف:

سـيعنيك حـــرب بنـــي مالك عن الفحش والجهل في المحفل

قولـه تعالى: ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أي مشرقة مضيئة، قد علمت ما لـها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. ﴿ ضاحكة ﴾ أي مسرورة فرحة. ﴿ مستبشرة ﴾: أي بما آتاها الله من الكرامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧).

(٢) صحيح.

وقال عطاء الخراساني: "مسفرة" من طول ما اغبرت في سبيل الله جل ثناؤه. ذكره أبو نعيم. الضحاك: من آثار الوضوء. ابن عباس: من قيام الليل؛ لما روي في الحديث: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار)[1] يقال: أسفر الصبح إذا أضاء. ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أي غبار ودخان ﴿ ترهقها ﴾ أي تغشاها ﴿ قترة ﴾ أي كسوف وسواد. كذا قال ابن عباس. وعنه أيضا: ذلة وشدة. والقتر في كلام العرب: الغبار، جمع القترة، عن أبي عبيد؛ وأنشد الفرزدق:

متــوج برداء المــلك يتبعـــه   موج ترى فوقه الرايات والقترا

وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم: القترة: ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة: ما انحطت إلى الأرض، والغبار والغبرة: واحد. ﴿أولئك هم الكفرة ﴾ جمع كافر ﴿ الفجرة ﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ (يقال): فجر فجورا: أي فسق، وفجر: أي كذب. وأصلـه: الميل، والفاجر: المائل. وقد مضى بيانه والكلام فيه. والحمد لله وحده.

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (ح٥٨٢٨).

سورة التكوير

مقدمة السورة:

مكيّة في قول الجميع. وهي تسع وعشرون آية.

وفي الترمذي: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت * وإذا السماء انفطرت * وإذا السماء انشقت﴾)[1]. قال: هذا حديث حسن (غريب).

قولـه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

قولـه تعالى: ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال ابن عباس: تكويرها: إدخالـها في العرش. والحسن: ذهاب ضوئها. وقالـه قتادة ومجاهد. وروي عن ابن عباس أيضا. سعيد بن جبير: عُوِّرَتْ. أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحى. وقال الربيع بن خيثم: "كورت" رمي بها؛ ومنه: كورته فتكور أي: سقط.

قلت: وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لاثها وجمعها فهي تكور ويمحى ضوءها، ثم يرمى بها في البحر. والله أعلم. وعن أبي صالح: كورت: نكست.

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي تهافتت وتناثرت. وقال أبو عبيدة: انصبت كما تنصب العقاب إذا انكسرت. قال العجاج يصف صقرا:

أبصر خربان فضاء فانكدر تقضِّيَ البازي إذا البازي كسر

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض، حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا)، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تساقطت؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها. ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضا: انكدرت تغيرت فلم يبق لـها ضوء لزوالـها عن أماكنها. والمعنى متقارب.

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٦٢٩٣).

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ يعني قلعت من الأرض، وسيرت في الـهواء؛ وهو مثل قولـه تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ (الكهف: ٤٧). وقيل: سيرها تحولـها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبا مهيلا أي رملا سائلا وتكون كالعهن، وتكون هباء منثورا، وتكون سرابا، مثل السراب الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا. وقد تقدم في غير موضع والحمد لله. ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها؛ الواحدة عشراء أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضا. ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح: هاتوا مهري وقربوا مهري، ويسميه بمتقدم اسمه؛ قال عنترة:

لا تـذكـــري مهري وما أطعمته   فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

وقال أيضا:

وحملت مهري وسطها فمضاها

وإنما خص العشار بالذكر؛ لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يعطلـها أهلـها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل؛ أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلـها واشتغل بنفسه. وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضا، ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالـهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمهم أمرها. وخوطبت العرب بأمر العشار؛ لأن مالـها وعيشها أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ابن عباس: عطلت: عطلـها أهلـها، لاشتغالـهم بأنفسهم. وقال الأعشى:

هو الواهب المائة المصطفا   ة إمـا مخـاضا وإما عشارا

وقال آخر:

تـرى المـرء مهجورا إذا قل مالـه   وبيت الغنى يهدى لـه ويزار

وما ينفـع الزوار مال مزورهم   إذا سرحت شول لـه وعشار

يقال: ناقة عشراء، وناقتان عشراوان، ونوق عشار وعشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واوا. وقد عشرت الناقة تعشيراً: أي صارت عشراء. وقيل: العشار: السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل: الديار تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع. والأول أشهر، وعليه من الناس الأكثر.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أي جمعت والحشر: الجمع. عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ابن عباس: حشرها: موتها. رواه عنه عكرمة. وحشر كل شيء: الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوافيان يوم القيامة. وعن ابن عباس أيضا قال: يحشر كل شيء حتى الذباب. قال ابن عباس: تحشر الوحوش غدا: أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لـها كوني ترابا فتموت. وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة، وقد بيناه في كتاب "التذكرة" مستوفى، ومضى في سورة "الأنعام" بعضه. أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالـها

فكيف ببني آدم. وقيل: عني بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحارى، تنضم غدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم. قال معناه أبي بن كعب.

قوله تعالى: ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي ملئت من الماء؛ والعرب تقول: سجرت الحوض أسجره سجرا: إذا ملأته، وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وروى الربيع بن خيثم: سجرت: فاضت وملئت. وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك. قال ابن أبي زمنين: سجرت: حقيقته ملئت، فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا. وهو معنى قول الحسن. وقيل: أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها، حتى امتلأت. عن الضحاك ومجاهد: أي فجرت فصارت بحرا واحدا. القشيري: وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ (الرحمن: ٢٠)، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت الأرض كلها، وصارت البحار بحرا واحدا. وقيل: صارت بحرا واحدا من الحميم لأهل النار. وعن الحسن أيضا وقتادة وابن حيان: تيبس فلا يبقى من مائها قطرة. القشيري: وهو من سجرت التنور أسجره سجرا: إذا أحميته وإذا سلط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة وتسير الجبال حينئذ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال. وقال النحاس: وقد تكون الأقوال متفقة؛ يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض، بعضها إلى بعض، فتقلب نارا. قلت: ثم تسير الجبال حينئذ، كما ذكر القشيري، والله أعلم. وقال ابن زيد وشمر وعطية وسفيان ووهب وأبي وعلي بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه: أوقدت فصارت نارا. قال ابن عباس: يكور الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، ثم يبعث الله عليها ريحا دبورا، فتنفخه حتى يصير نارا. وكذا في بعض الحديث: (يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرون في البحر، ثم يبعث الله جل ثناؤه الدبور فيسجرها نارا، فتلك نار الله الكبرى، التي يعذب بها الكفار). قال القشيري: قيل في تفسير قول ابن عباس "سجرت" أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قعور من البحار، فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا، فإذا انقضت الدنيا سجرت، فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها. ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا. وفي الخبر: البحر نار في نار. وقال معاوية بن سعيد: بحر الروم وسط الأرض، أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيكون البحر نارا بحر الشمس. ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة. قلت: روي عن عبد الله بن عمرو: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم. وقال أبي بن كعب: ست آيات من قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، فصارت هباء منثورا، ففزعت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس، واختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. وقيل: معنى

"سجرت" : هو حمرة مائها، حتى تصير كالدم؛ مأخوذ من قولـهم: عين سجراء: أي حمراء. وقرأ ابن كثير "سُجِرَت" وأبو عمرو أيضا، إخبارا عن حالـها مرة واحدة. وقرأ الباقون بالتشديد إخبارا عن حالـها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال النعمان بن بشير: قال النبي ﷺ :(وإذا النفوس زوجت) قال: (يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعملـه). وقال عمر بن الخطاب: يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج ـ يعني صنفا ـ وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج. وعنه أيضا قال: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرن الكافر بالشياطين، وكذلك المنافقون، وعنه أيضا: قرن كل شكل بشكلـه من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثلـه، والمتوسط إلى مثلـه، وأهل المعصية إلى مثلـه؛ فالتزويج أن يقرن الشيء بمثلـه؛ والمعنى: وإذا النفوس قرنت إلى أشكالـها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان، كما قال تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الصافات: ٢٢). وقال عبد الرحمن بن زيد: جعلوا أزواجا على أشباه أعمالـهم ليس بتزويج، أصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج، والسابقون زوج؛ وقد قال جل ثناؤه: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الصافات: ٢٢) أي أشكالـهم. وقال عكرمة: "وإذا النفوس زوجت" قرنت الأرواح بالأجساد؛ أي ردت إليها. وقال الحسن: ألحق كل امرئ بشيعته: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، على جهة البغض والعداوة، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين. وقيل: قرنت النفوس بأعمالـها، فصارت لاختصاصها به كالتزويج.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت ﴾ الموؤودة المقتولة؛ وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من الـتراب، فيؤودها أي يثقلـها حتى تموت؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أي لا يثقلـه؛ وقال متمم بن نويرة:

وموؤودة مقبورة في مفازة بآمتـها موسـودة لم تمهد

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفا من السبي والاسترقاق. وقد مضى في سورة "النحل" هذا المعنى، عند قولـه تعالى: ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ (النحل: ٥٩) مستوفى. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال:

ومنا الذي منع الوائدات فأحيا الوئيـد فلم يوأد

يعني جده صعصعة كان يشتريهن من آبائهن. فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاما حبسته، ومنه قول الراجز:

سـميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن زميت

الزميت الوقور، والزميت مثال الفسيق أوقر من الزميت، وفلان أزمت الناس أي أوقرهم، وما أشد تزمته؛ عن الفراء. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: "وإذا الموؤودة سئلت" قال عمر في قوله تعالى: "وإذا الموؤودة سئلت" قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثماني بنات كن لي في الجاهلية، قال: (فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة) قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: (فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت).

وقوله تعالى: ﴿ سئلت ﴾ سؤال الموؤودة سؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها؛ لأنها قتلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأي ذنب ضربت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى: "سئلت" قال: طلبت؛ كأنه يريد كما يطلب بدم القتيل. قال: وهو كقوله: ﴿ وكان عهد الله مسؤولا ﴾ (الأحزاب: ١٥) أي مطلوبا. فكأنها طلبت منهم، فقيل أين أولادكم؟ وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبي صالح "وإذا الموؤودة سألت" فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟! فلا يكون له عذر؛ قال ابن عباس وكان يقرأ "وإذا الموؤودة سَأَلَتْ" وكذلك هو في مصحف أبي. وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بثدييها، ملطخا بدمائه، فيقول يا رب، هذه أمي، وهذه قتلتني). والقول الأول عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى: "أأنت قلت للناس"، على جهة التوبيخ والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموؤودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، فبأي ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها، كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلم. وقرئ "قُتِّلت" بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب.

قوله تعالى: ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أي فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (الكهف: ٤٩). وروى مرثد بن وداعة قال: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿ في جنة عالية ﴾ (الحاقة: ٢٢) إلى قوله: ﴿ الأيام الخالية ﴾ (الحاقة: ٢٤) وتقع صحيفة الكافر في يده "في سموم وحميم" إلى قوله ﴿ ولا كريم ﴾ (الواقعة: ٤٢). وروي عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة) فقلت: يا رسول الله فكيف بالنساء؟ قال: (شغل الناس يا أم سلمة). قلت: وما شغلهم؟ قال: (نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل). وقد مضى في سورة "الإسراء"[1] قول أبي الثوار العدوي: هما نشرتان وطية، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما

(١) وفي نسخة سورة "سبحان".

شئت، فإذا مت طويت، حتى إذا بعثت نشرت ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (الإسراء: ١٤). وقال مقاتل: إذا مات المرء طويت صحيفة عمله، فإذا كان يوم القيامة نشرت. وعن عمر ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو "نشرت" مخففة، على نشرت مرة واحدة، لقيام الحجة. الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع. وقيل: لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ الكشط: قلع عن شدة التزاق؛ فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، والقشط: لغة فيه. وفي قراءة عبد الله "وإذا السماء قُشطَت" وكشطت البعير كشطا: نزعت جلده ولا يقال سلخته؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشَطته أو جلدته، وانكشط: أي ذهب؛ فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى: ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) فكأن المعنى: قلعت فطويت. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها. يقال: سعرت النار وأسعرتها. وقراءة العامة بالتخفيف من السعير. وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرة. قال قتادة: سعرها غضب الله وخطايا بني آدم. وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة)[1] وروي موقوفا.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي دنت وقربت من المتقين. قال الحسن: إنهم يقربون منها؛ لا أنها تزول عن موضعها. وكان عبد الرحمن بن زيد يقول: زينت: أزلفت؟ والزلفى في كلام العرب: القربة؛ قال الله تعالى: ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ (الشعراء: ٩٠)، وتزلف فلان تقرب.

قولـه تعالى: ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ يعني ما عملت من خير وشر. وهذا جواب "إذا الشمس كورت" وما بعدها. قال عمر ﷺ لـهذا أجري الحديث. وروي عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرآها، فلما بلغا "علمت نفس ما أحضرت" قالا لـهذا أجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أحضرت من عملـها. وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه "وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم" بين يديه، فتستقبلـه النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل) وقال الحسن: "إذا الشمس كورت" قسم وقع على قولـه: "علمت نفس ما أحضرت". كما يقال: إذا نفر زيد نفر عمرو. والقول الأول أصح. وقال ابن زيد عن ابن عباس في قولـه تعالى: "إذا الشمس كورت" إلى قولـه: "وإذا الجنة أزلفت" اثنتا عشرة خصلة: ستة في الدنيا، وستة في الآخرة؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبي بن كعب.

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٢١٢٥).

قولـه تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلا أقسم ﴾ أي أقسم، و"لا" زائدة، كما تقدم. ﴿ بالخنس * الجوار الكنس ﴾ هي الكواكب الخمسة الدراري: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة، فيما ذكر أهل التفسير. والله أعلم. وهو مروي عن علي كرم الله وجهه. وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان: أحدهما: لأنها تستقبل الشمس؛ قاله بكر بن عبد الله المزني. الثاني: لأنها تقطع المجرة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت، وقاله علي ﷺ، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل؛ وتكنس في وقت غروبها؛ أي تتأخر عن البصر لخفائها، فلا ترى. وفي الصحاح: "الخنس": الكواكب كلـها. لأنها تخنس في المغيب، أو لأنها تخنس نهارا. ويقال: هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قولـه تعالى: "فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس": إنها النجوم الخمسة؛ زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد؛ لأنها تخنس في مجراها، وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خنسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خنس عنه يخنس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه. والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلـها خنس. وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قولـه تعالى: "فلا أقسم بالخنس" هي بقر الوحش. روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبد الله بن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش؛ قال: وأنا أرى ذلك. وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عكرمة قال: "الخنس": البقر و"الكنس": هي الظباء، فهي خنس إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن. القشيري: وقيل على هذا "الخنس" من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك.

قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد النجوم. وقد قيل: إنها الملائكة؛ حكاه الماوردي. والكنس الغيب؛ مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي يختفي فيه. قال أوس بن حجر:

ألـم تـر أن الله أنــزل مزنــه وعُفْرُ الظباء في الكناس تقمع

وقال طرفة:

كأن كناسي ضالة يكنفانها   وأطر قسي تحت صلب مؤيد

وقيل: الكنوس أن تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش والظباء. قال الأعشى في ذلك:

فلما أتينا الحي أتلع آنس   كما أتلعت تحت المكانس ربرب

يقال: تلع النهار ارتفع وأتلعت الظبية من كناسها: أي سمت بجيدها. وقال امرؤ القيس:

تعشى قليلا ثم أنحى ظلوفه   يثير التراب عن مبيت ومكنس

والكنس: جمع كانس وكانسة، وكذا الخنس جمع خانس وخانسة. والجواري: جمع جارية من جرى يجري. ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر؛ حكاه الجوهري. وقال بعض أصحابنا: إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. المهدوي: "والليل إذا عسعس" أدبر بظلامه؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وروي عنهما أيضا وعن الحسن وغيره: أقبل بظلامه. زيد بن أسلم: "عسعس" ذهب. الفراء: العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير. الخليل وغيره: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره؛ وقال علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبحُ لها تنفَّسا   وانجابَ عنها ليلها وعسعسا

وقال رؤبة:

يا هندُ ما أسرعَ ما تسعسعا   من بعد ما كان فتًى سرعرعا

وهذه حجة الفراء. وقال امرؤ القيس:

عسعس حتى لو يشاء ادَّنا   كان لنا من ناره مقبس

فهذا يدل على الدنو. وقال الحسن ومجاهد: عسعس: أظلم، قال الشاعر:

حتى إذا ما ليلهن عسعَسا   ركبن من حد الظلام حندسَا

الماوردي: وأصل العس الامتلاء؛ ومنه قيل للقدح الكبير عس لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه؛ وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه؛ لاستكمال امتلائه به. وأما قول امرئ القيس.

ألما على الربع القديم بعسعسا

فموضع بالبادية. وعسعس أيضا اسم رجل؛ قال الراجز:

وعسعس نعم الفتى تبياه

أي تعتمده. ويقال للذئب العسعس والعسعاس والعساس؛ لأنه يعس بالليل ويطلب. ويقال للقنافذ العساعس لكثرة ترددها بالليل. قال أبو عمرو: والتعسعس الشم، وأنشد:

كمنخر الذِّئبِ إذا تعسعسا

والتعسعس أيضا: طلب الصيد (بالليل).

قوله تعالى: ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي امتد حتى يصير نهارا واضحا؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: "إذا تنفس" أي انشق وانفلق؛ ومنه تنفست القوس أي تصدعت. ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ هذا جواب القسم. والرسول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك. والمعنى "إنه لقول رسول" عن الله "كريم" على الله. وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ (الواقعة: ٨٠) ليعلم أهل التحقيق في التصديق، أن الكلام لله عز وجل. وقيل: هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذي قوة ﴾ من جعله جبريل فقوته ظاهرة فروى الضحاك عن ابن عباس قال: من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه. ﴿ عند ذي العرش ﴾ أي عند الله جل ثناؤه ﴿ مكين ﴾ أي ذي منزلة ومكانة؛ فروي عن أبي صالح قال: يدخل سبعين سرادقا بغير إذن. ﴿ مطاع ثم ﴾ أي في السموات؛ قال ابن عباس: من طاعة الملائكة جبريل، أنه لما أسري برسول الله ﷺ قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان: افتح له، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمالك خازن النار: افتح له جهنم حتى ينظر إليها، فأطاعه وفتح له. ﴿ أمين ﴾ أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به. ومن قال: إن المراد محمد ﷺ فالمعنى "ذي قوة" على تبليغ الرسالة "مطاع" أي يطيعه من أطاع الله جل وعز. ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ يعني محمدا ﷺ بمجنون حتى يتهم في قوله. وهو من جواب القسم. وقيل: أراد النبي ﷺ أن يرى جبريل في الصورة التي يكون بها عند ربه جل وعز فقال: ما ذاك إلي؛ فأذن له الرب جل ثناؤه، فأتاه وقد سد الأفق، فلما نظر إليه النبي ﷺ خر مغشيا عليه، فقال المشركون: إنه مجنون، فنزلت: "إنه لقول رسول كريم" "وما صاحبكم بمجنون" وإنما رأى جبريل على صورته فهابه، وورد عليه ما لم تحتمل بنيته، فخر مغشيا عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أي رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح. "بالأفق المبين" أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين. أي من جهته ترى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها؛ قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكمُ   لنا قَمراها والنجومُ الطوالعُ

الماوردي: فعلى هذا، فيه ثلاثة أقاويل؛ أحدها: أنه رآه في أفق السماء الشرقي؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربي، حكاه ابن شجرة. الثالث: أنه رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة؛ قاله مجاهد. وحكى الثعلبي عن ابن عباس، قال النبي ﷺ لجبريل: (إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء) قال: لن تقدر على ذلك. قال: (بلى) قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال:

(بالأبطح) قال: لا يسعني. قال: (فبمنى) قال: لا يسعني. قال: (فبعرفات) قال: ذلك بالحري أن يسعني. فواعده فخرج ﷺ للوقت، فإذا هو قد أقبل بخشخشة وكلكلة من جبال عرفات، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشيا عليه، فتحول جبريل في صورته، وضمه إلى صدره. وقال: يا محمد لا تخف؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله، حتى يصير مثل الوصع - يعني العصفور- حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته[1]. وقيل: إن محمدا ﷺ رأى ربه عز وجل بالأفق المبين. وهو معنى قول ابن مسعود. وقد مضى القول في هذا في "والنجم" مستوفى، فتأمله هناك. وفي "المبين" قولان: أحدهما: أنه صفة الأفق؛ قاله الربيع. الثاني: أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد. "وما هو على الغيب بظَنين": بالظاء، قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، أي بمتهم، والظنة التهمة؛ قال الشاعر:

أما وكتاب الله لا عن شناءة هجرت ولكن الظنين ظنين

واختاره أبو عبيد؛ لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه؛ ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنما يقولون: ما أنت على هذا بمتهم. وقرأ الباقون "بضنين" بالضاد: أي ببخيل من ضننت بالشيء أضن ضنا فهو ضنين. فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يضن عليكم بما يعلم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. وقال الشاعر:

أجود بمكنون الحديث وإنني بسـرك عمن سالني لضنين

والغيب: القرآن وخبر السماء. ثم هذا صفة محمد ﷺ. وقيل: صفة جبريل عليه السلام. وقيل: بظنين: بضعيف. حكاه الفراء والمبرد؛ يقال: رجل ظنين: أي ضعيف. وبئر ظنون: إذا كانت قليلة الماء؛ قال الأعشى:

ما جعل الجد الظنون الذي جنب صوب اللجب الماطر
مثل الفراتي إذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر

والظنون: الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا؟ ومنه حديث علي رضي الله عنه في الرجل يكون له الدين الظنون، قال: يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا. والظنون: الرجل السيئ الخلق؛ فهو لفظ مشترك.

قوله تعالى: ﴿ وما هو ﴾ يعني القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ أي مرجوم ملعون، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال قتادة: فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته. كذا روى معمر عن قتادة؛ أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي. وقال الزجاج: فأي طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم. ويقال: أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام وخرجت

---

(١) موضوع.

العراق وانطلقت السوق: أي إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة؛ وأنشدني بعض بني عقيل:

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا وأي الأرض تذهب بالصياح

يريد إلى أي أرض تذهب، فحذف إلى. وقال الجنيد: معنى الآية مقرون بآية أخرى؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ (الحجر: ٢١) المعنى: أي طريق تسلكون أبين من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قول الزجاج. ﴿ إن هو ﴾ يعني القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أي موعظة وزجر. و"إن" بمعنى "ما". وقيل: ما محمد إلا ذكر. ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي يتبع الحق ويقيم عليه. وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت "لمن شاء منكم أن يستقيم" قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم ـ وهذا هو القدر؛ وهو رأس القدرية ـ فنزلت: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله، ولا شرا إلا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ (الأنعام: ١١١). وقال تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ (يونس: ١٠٠). وقال تعالى: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ (القصص: ٥٦) والآي في هذا كثير، وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام، وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع. ختمت السورة والحمد لله.

سورة الانفطار

مكيّة عند الجميع، وهي تسع عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي تشققت بأمر الله؛ لنزول الملائكة؛ كقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ (الفرقان: ٢٥). وقيل: تفطرت لهيبة الله تعالى. والفطر: الشق؛ يقال: فطرته فانفطر؛ ومنه فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: شقق، وسيف فطار أي فيه شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة وهو كمعي سلاحي لا أفل ولا فطارا

وقد تقدم في غير موضع. ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت؛ نثرت الشيء أنثره نثرا، فانتثر، والاسم النثار. والنثار بالضم: ما تناثر من الشيء، ودر منثر، شدد للكثرة. ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أي فجر بعضها في بعض، فصارت بحرا واحدا، على ما تقدم. قال الحسن: فجرت: ذهب ماؤها ويبست؛ وذلك أنها أولا راكدة مجتمعة؛ فإذا فجرت تفرقت، فذهب ماؤها. وهذه الأشياء بين يدي الساعة، على ما تقدم في ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ (التكوير: ١). ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أي قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء؛ يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهرا لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفراء: "بعثرت": أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها. ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ مثل: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ (القيامة: ١٣). وتقدم. وهذا جواب "إذا السماء انفطرت" لأنه قسم في قول الحسن وقع على قوله تعالى: "علمت نفس" يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت؛ فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك. وقيل: أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن المغيرة. وقال عكرمة: أبي بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجمحي. عن

ابن عباس أيضا: ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ "بربك الكريم" أي المتجاوز عنك. قال قتادة: غره شيطانه المسلط عليه. الحسن: غره شيطانه الخبيث. وقيل: حمقه وجهله. رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه. وروى غالب الحنفي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ (الانفطار: ٦) قال: "غره الجهل" وقال صالح بن مسمار: بلغنا أن رسول الله ﷺ قرأ "يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم"؟ فقال: "غره جهله"[1]. وقال عمر ﷺ: كما قال الله تعالى ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ (الأحزاب: ٧٢). وقيل: غره عفو الله، إذ لم يعاقبه في أول مرة. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه، فقال لك: ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾؟ (الانفطار: ٦) ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول غرني ستورك المرخاة، لأن الكريم هو الستار. نظمه ابن السماك فقال:

يا كاتم الذنب أما تستحي ... والله في الخلوة ثانيكا
غرك من ربك إمهاله ... وستره طول مساويكا

وقال ذو النون المصري: كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري:

يا من غلا في العجب والتيه ... وغره طول تماديه
أملى لك الله فبارزته ... ولم تخف غب معاصيه

وروي عن علي ﷺ أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب، فقال: ما لك لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ما غرك: ما خدعك وسول لك، حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يا ابن آدم ماذا غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ﴿ الذي خلقك ﴾ أي قدر خلقك من نطفة ﴿ فسواك ﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك "فعدَّلك" أي جعلك معتدلا سوي الخلق؛ كما يقال: هذا شيء معدل. وهذه قراءة العامة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفراء: وأبو عبيد: يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين: ٤). وقرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي: "فعدَلك" مخففا أي: أمالك وصرفك إلى أي صورة شاء، إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا. وقال (موسى بن علي بن أبي رباح اللخمي عن أبيه عن جده) قال: قال لي النبي ﷺ: (إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم). أما قرأت هذه الآية ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ فيما بينك وبين آدم، وقال عكرمة وأبو صالح: "في أي صورة

---

(١) ضعيف.

ما شاء ركبك" إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وقال مكحول: إن شاء ذكرا، وإن شاء أنثى. قال مجاهد: "في أي صورة" أي في أي شبه من أب أو أم أو عم أو خال أو غيرهم. و"في" متعلقة بـ"ركب"، ولا تتعلق بـ"عدلك"، على قراءة من خفف؛ لأنك تقول عدلت إلى كذا، ولا تقول عدلت في كذا؛ ولذلك منع الفراء التخفيف؛ لأنه قدر "في" متعلقة بـ"عدلك"، و"ما" يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في أي صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير، فـ"ما" بمعنى الشرط والجزاء؛ أي في صورة ما شاء يركبك ركبك.

قوله تعالى: ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ يجوز أن تكون "كلا" بمعنى حقا و"ألا" فيبتدأ بها. ويجوز أن تكون بمعنى "لا"، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقون. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ (الانفطار: ٦) وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غررت به. وقيل: أي ليس الأمر كما يقولون[١]، من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتتركوا التفكر في آياته. ابن الأنباري: الوقف الجيد على "الدين"، وعلى "ركبك"، والوقف على "كلا" قبيح. ﴿ بل تكذبون ﴾ يا أهل مكة ﴿ بالدين ﴾ أي بالحساب، و"بل" لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوما، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ أي رقباء من الملائكة ﴿ كراما ﴾ أي علي؛ كقوله: ﴿ كرام بررة ﴾ (عبس: ١٦). وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: روي عن رسول الله ﷺ (أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخراءة أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم "حائط" أو بغيره، أو ليستره أخوه)[٢]. وروي عن علي رضي الله عنه قال: (لا يزال الملك موليا عن العبد ما دام بادي العورة) وروي (إن العبد إذا دخل الحمام بغير مئزر لعنه ملكاه).

الثانية: واختلف الناس في الكفار هل عليهم حفظة أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال الله تعالى: ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (الرحمن: ٤١). وقيل: بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى: ﴿ كلا بل تكذبون بالدين. وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون ﴾ (الانفطار: ٩ ـ ١٢). وقال: ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ (الحاقة: ٢٥) وقال:

---

(١) في نسخة (تقولون).

(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي (٢٨٠٠).

﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ (الانشقاق: ١٠)، فأخبر أن الكفار يكون لهم كتاب، ويكون عليهم حفظة. فإن قيل: الذي على يمينه أي شيء يكتب ولا حسنة له؟ قيل له: الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب. والله أعلم.

الثالثة: سئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النتن. وقد مضى في "ق" قوله: ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨) زيادة بيان لمعنى هذه الآية. وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملك العبد عند ذلك. وقد مضى في آخر "آل عمران" القول في هذا. وعن الحسن: يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم. وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدثتم به أنفسكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم﴾ تقسيم مثل قوله: ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ (الشورى: ٧) وقال: ﴿ يومئذ يصدعون﴾ (الروم: ٤٣) الآيتين. ﴿ يصلونها﴾ أي يصيبهم لهبها وحرها﴿ يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء والحساب، وكرر ذكره تعظيما لشأنه؛ نحو قوله تعالى: ﴿ القارعة* ما القارعة* وما أدراك ما القارعة﴾ (القارعة: ١-٣) وقال ابن عباس فيما روي عنه: كل شيء من القرآن من قوله: "وما أدراك" فقد أدراه. وكل شيء من قوله "وما يدريك" فقد طوي عنه. ﴿ يوم لا تملك نفس﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو "يومُ" بالرفع على البدل من "يوم الدين" أو ردا على اليوم الأول، فيكون صفة ونعتا لـ "يوم الدين". ويجوز أن يرفع بإضمار هو. الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلا أنه، نصب، لأنه مضاف غير متمكن؛ كما تقول: أعجبني يوم يقوم زيد. وأنشد المبرد:

من أي يومي من الموت أفر   أيومَ لم يقدر أم يوم قدر

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة، عن الترجمة عن اليومين الأولين، إلا أنهما نصبا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محض. وهذا اختيار الفراء والزجاج. وقال قوم: اليوم الثاني منصوب على المحل، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا. وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يوم، أو على معنى يدانون يوم؛ لأن الدين يدل عليه، أو بإضمار اذكر. ﴿ والأمر يومئذ لله﴾ لا ينازعه فيه أحد، كما قال: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم﴾ (غافر: ١٧). تمت السورة والحمد لله.

سورة المطففين

مقدمة السورة:

سورة المطففين مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ومدنية في قول الحسن وعكرمة وهي ست وثلاثون آية. قال مقاتل: وهي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا ثماني آيات من قوله: "إن الذين أجرموا" إلى آخرها، مكي. وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة.

قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: روى النسائي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن ابن عباس أيضا قال: هي: أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وقال قوم: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، واسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر؛ قاله أبو هريرة ﷺ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ويل ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة. وقال ابن عباس: إنه واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فهو قوله تعالى: "ويل للمطففين" أي الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم. وروي عن ابن عمر قال: المطفف: الرجل يستأجر المكيال وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه. وقال آخرون: التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث. وفي الموطأ قال مالك: ويقال لكل شيء وفاء وتطفيف. وروي عن سالم بن أبي الجعد قال: الصلاة بمكيال، فمن أوفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك: "ويل للمطففين".

الثالثة: قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفيف، وهو القليل، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وإنما أخذ من طف الشيء وهو جانبه. وطفاف المكوك وطفافه بالكسر والفتح: ما ملأ أصباره، وكذلك طف المكوك وطففه؛ وفي الحديث: (كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملؤوه)[1]. وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل، والمعنى بعضكم من بعض قريب، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى. والطفاف والطفافة بالضم: ما فوق المكيال. وإناء طفاف: إذا بلغ الملء طفافه؛ تقول منه: أطففت. والتطفيف: نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أي جوانبه؛ يقال: أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها. وقول ابن عمر حين ذكر النبي ﷺ

---

(١) صحيح.

سبق الخيل: كنت فارسا يومئذ فسبقت الناس حتى طفف بي الفرس مسجد بني زريق، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي.

الرابعة: المطفف: هو الذي يخسر في الكيل والوزن، ولا يوفي حسب ما بيناه؛ وروى ابن القاسم عن مالك: أنه قرأ "ويل للمطففين" فقال: لا تطفف ولا تخلب، ولكن أرسل وصب عليه صبا، حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تمسك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف، وقال: إن البركة في رأسه. قال: وبلغني أن كيل فرعون كان مسحا بالحديد.

قولـه تعالى: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ قال الفراء: أي من الناس يقال: اكتلت منك: أي استوفيت منك ويقال اكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك. وقال الزجاج: أي إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل؛ والمعنى: الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبري: "على" بمعنى عند.

قولـه تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ أي كالوا لـهم أو وزنوا لـهم فحذفت اللام، فتعدى الفعل فنصب؛ ومثلـه نصحتك ونصحت لك، وأمرتك به وأمرتكه؛ قالـه الأخفش والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدين إلى الموسم المقبل. وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على "كالوا" و"وزنوا" حتى تصل به "هم" قال: ومن الناس من يجعلـها توكيدا، ويجيز الوقف على "كالوا" و"وزنوا" والأول الاختيار؛ لأنها حرف واحد. وهو قول الكسائي. قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلـها حرفين، ويقف على "كالوا" و"وزنوا" ويبتدئ "هم يخسرون" قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضا. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما: الخط؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا "كالوا" و"وزنوا" بالألف، والأخرى: أنه يقال: كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي؛ كما يقال: صدتك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك. قولـه: "يخسرون": أي ينقصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخسرته. و(هم) في موضع نصب، على قراءة العامة، راجع إلى الناس، تقديره (وإذا كالوا) الناس (أو وزنوهم يخسرون) وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد كالوا لـهم أو وزنوا لـهم، فحذف الجار، وأوصل الفعل، كما قال:

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

أراد: جنيت لك، والوجه الآخر: أن يكون على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف هو المكيل والموزون. وعن ابن عباس ؓ: إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال والميزان. وخص الأعاجم، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا، وكانا مفرقين في الحرمين؛ كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون. وعلى القراءة الثانية "هم" في موضع رفع بالابتداء؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لـهم فهم يخسرون. ولا يصح؛ لأنه تكون الأولى ملغاة، ليس لـها خبر، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها: وإذا كالوا هم ينقصون، أو وزنوا هم يخسرون.

الثانية: قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر)[1] خرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضا من حديث ابن عمر. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال مالك بن دينار: دخلت على جار لي قد نزل به الموت، فجعل يقول: جبلين من نار! جبلين من نار! فقلت: ما تقول؟ أتهجر؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أكيل بأحدهما، وأكتال بالآخر؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كسرتهما وقال: يا أبا يحيى، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما، فمات من وجعه. وقال عكرمة: أشهد على كل كيال أو وزان أنه في النار. قيل لـه: فإن ابنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. قال الأصمعي: وسمعت أعرابية تقول: لا تلتمس المروءة ممن مروءته في رؤوس المكاييل، ولا ألسنة الموازين. وروي ذلك عن علي ﷺ، وقال عبد خير: مر علي ﷺ على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فأكفأ الميزان، ثم قال: أقم الوزن بالقسط؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت. كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها، ويفضل الواجب من النفل. وقال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول: اتق الله وأوف الكيل والوزن بالقسط، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم. وقد روي أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي ﷺ إلى خيبر واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، فقال أبو هريرة: فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى "كهيعص" وقرأ في الركعة الثانية "ويل للمطففين" قال أبو هريرة: فأقول في صلاتي: ويل لأبي فلان، كان لـه مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألا يظن أولئك ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالـهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالـهم، ولا يخمنون تخمينا ﴿ أنهم مبعوثون ﴾ فمسؤولون عما يفعلون. والظن هنا بمعنى اليقين؛ أي ألا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط ﴿ ليوم عظيم ﴾ شأنه وهو يوم القيامة.

قولـه تعالى: ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: العامل في "يوم" فعل مضمر، دل عليه "مبعوثون" والمعنى يبعثون "يوم يقوم الناس لرب العالمين". ويجوز أن يكون بدلا من يوم في "ليوم عظيم"، وهو مبني. وقيل: هو في موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. وقيل: هو منصوب على الظرف أي في يوم، ويقال: أقم إلى

(١) "صحيح" أخرجه ابن ماجه والحاكم بأتم من هذا السياق، كما في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

يوم يخرج فلان، فتنصب يوم، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون: أقم إلى يوم خروج فلان. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم.

الثانية: وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابيا قال لي[1]: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين، بيان بليغ لعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حالـه من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل.

الثالثة: قرأ ابن عمر: "ويل للمطففين" حتى بلغ "يوم يقوم الناس لرب العالمين" فبكى حتى سقط، وامتنع من قراءة ما بعده، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول (يوم يقوم الناس لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حقويه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ أذنيه، حتى إن أحدهم ليغيب في رشحه كما يغيب الضفدع)[2]. وروى ناس عن ابن عباس قال: يقومون مقدار ثلثمائة سنة. قال: ويهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة. وروي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: (يقومون ألف عام في الظلة). وروى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه). وعنه أيضا عن النبي ﷺ: (يقوم مائة سنة). وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ لبشير الغفاري: (كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين، لا يأتيهم فيه خبر، ولا يؤمر فيه بأمر) قال بشير: المستعان الله.

قلت: قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: (إنه ليخفف عن المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا)[3] في ﴿ سأل سائل ﴾ (المعارج: ١). وعن ابن عباس: يهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة. وقيل: إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس؛ والدليـل على هذا من الكتاب قول الحق: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (يونس: ٦٢) ثم وصفهم فقال: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (يونس: ٦٣) جعلنا الله منهم بفضلـه وكرمه وجوده. ومنه آمين. وقيل: المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين؛ قاله ابن جبير وفيه بعد؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحة ثابتة، وحسبك بما في صحيح مسلم، والبخاري والترمذي من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ "يوم يقوم الناس لرب العالمين" قال: (يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه). ثم قيل: هذا القيام يوم يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء.

---

(١) وفي نسخة (له).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) صحيح.

الرابعة: القيام لله رب العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلف فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. وقد روي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر ابن أبي طالب واعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تيب عليه. وقول النبي ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بن معاذ: (قوموا إلى سيدكم)[١]. وقال أيضا: (من سره أن يتمثل لـه الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار)[٢]. وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه. وقد مضى في آخر سورة "يوسف" شيء من هذا.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية: "كلا" ردع وتنبيه، أي ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة، فليرتدعوا عن ذلك. فهي كلمة ردع وزجر، ثم استأنف فقال: "إن كتاب الفجار". وقال الحسن: "كلا" بمعنى حقا. وروى ناس عن ابن عباس "كلا" قال: ألا تصدقون؛ فعلى هذا: الوقف "لرب العالمين".

وفي تفسير مقاتل: إن أعمال الفجار. وروى ناس عن ابن عباس قال: إن أرواح الفجار وأعمالـهم "لفي سجين". وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: سجين صخرة تحت الأرض السابعة، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها. ونحوه عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب؛ قال كعب: تحتها أرواح الكفار تحت خد إبليس. وعن كعب أيضا قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة، مكتوب فيها اسم كل شيطان، تلقى أنفس الكفار عندها. وقال سعيد بن جبير: سجين تحت خد إبليس. يحيى بن سلام: حجر أسود تحت الأرض، يكتب فيه أرواح الكفار. وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها إبليس وذريته. وعن ابن عباس قال: إن الكافر يحضره الموت، وتحضره رسل الله، فلا يستطيعون لبغض الله لـه وبغضهم إياه، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سجين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا فيها كتابه. وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال: إن روح الفاجر إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلـها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبلـها، فتدخل في سبع أرضين، حتى ينتهى بها إلى سجين، وهو خد إبليس. فيخرج لـها من سجين من تحت خد إبليس رق، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس. وقال الحسن: سجين في الأرض السابعة. وقيل: هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالـهم التي ظنوا أنها تنفعهم. قال مجاهد: المعنى عملـهم

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) صحيح، انظر صحيح الجامع (٥٩٥٧).

تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء. وقال: سجين صخرة في الأرض السابعة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (سجين جب في جهنم وهو مفتوح) وقال في الفلق: (إنه جب مغطى). وقال أنس: هي دركة في الأرض السفلى. يوقال أنس قال النبي ﷺ: (سجين أسفل الأرض السابعة)[1]. وقال عكرمة: (سجين: خسار وضلال) كقولهم لمن سقط قدره: قد زلق بالحضيض. وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج: "لفي سجين" لفي حبس وضيق شديد، فعيل من السجين؛ كما يقول: فسيق وشريب؛ قال ابن مقبل:

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا

والمعنى: كتابهم في حبس؛ جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم، أو لأنه يحل من الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان. وقيل: أصله سجيل، فأبدلت اللام نونا. وقد تقدم ذلك. وقال زيد بن أسلم: سجين في الأرض السافلة، وسجيل في السماء الدنيا. القشيري: سجين: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار: "يشهده المقربون". ﴿وما أدراك ما سجين﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك. ثم فسره فقال: ﴿كتاب مرقوم﴾ أي مكتوب كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى. وقال قتادة: مرقوم أي مكتوب، رقم لهم بشر: لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. وقال الضحاك: مرقوم: مختوم، بلغة حمير؛ وأصل الرقم: الكتابة؛ قال:

سأرقم في الماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

وليس في قوله: "وما أدراك ما سجين" ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربيا، كما لا يدل في قوله: ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة﴾ (القارعة: ١-٣) بل هو تعظيم لأمر سجين، وقد مضى في مقدمة الكتاب ـ والحمد لله ـ أنه ليس في القرآن غير عربي.

قوله تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي شدة وعذاب يوم القيامة للمكذبين. ثم بيَّن تعالى أمرهم فقال: ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد. ﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾ أي فاجر جائز عن الحق، معتد على الخلق في معاملته إياهم وعلى نفسه، وهو أثيم في ترك أمر الله. وقيل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما؛ لقوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ وقراءة العامة "تتلى" بتاءين، وقراءة أبي حيوة وأبي سماك وأشهب العقيلي والسلمي: "إذا يُتْلَى" بالياء. وأساطير الأولين: أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها. واحدها أسطورة وإسطارة، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾

---

(١) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ "كلا": ردع وزجر، أي ليس هو أساطير الأولين. وقال الحسن: معناها حقا "ران على قلوبهم". وقيل: في الترمذي: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو على قلبه)، وهو الران الذي ذكر الله في كتابه: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون"[1]. قال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. قال مجاهد: هو الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تغشي الذنوب قلبه. قال مجاهد: هي مثل الآية التي في سورة البقرة: ﴿ بلى من كسب سيئة﴾ (البقرة: ٨١) الآية. ونحوه عن الفراء؛ قال: يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وروي عن مجاهد أيضا قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذنب انقبض، وضم أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يطبع على قلبه. قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرين، ثم قرأ: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون". ومثله عن حذيفة ﷺ سواء. وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمنخل، أو كالغربال، حتى لا يعي خيرا، ولا يثبت فيه صلاح. وقد بينا في "البقرة" القول في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا معنى لإعادتها. وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئا الله أعلم بصحته؛ قال: هو الران الذي يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذي يلبس في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل. وهذا مما لا يضمن عهدة صحته. فالله أعلم. فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا. وكذلك أهل اللغة عليه؛ يقال: ران على قلبه ذنبه يرين رينا وريونا أي غلب. قال أبو عبيدة في قولـه: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" أي غلب؛ وقال أبو عبيد: كل ما غلبك (وعلاك) فقد ران بك، ورانك، وران عليك؛ وقال الشاعر:

وكم ران من ذنب على قلب فاجر فتاب من الذنب الذي ران وانجلى

ورانت الخمر على عقلـه: أي غلبته، وران عليه النعاس: إذا غطاه؛ ومنه قول عمر في الأسيفع ـ أسيفع جهينة ـ: فأصبح قد رين به. أي غلبته الديون، وكان يدان؛ ومنه قول أبي زبيد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سكرا، فقال:

ثم لما رآه رانت به الخمـ ـــر وأن لا ترينه باتقاء

فقولـه: رانت به الخمر، أي غلبت على عقلـه وقلبه. وقال الأموي: قد أران القوم فهم مرينون: إذا هلكت مواشيهم وهزلت. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم، فلا يستطيعون احتمالـه. قال أبو زيد يقال: قد رين بالرجل رينا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل لـه وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهذا أشد من الرين،

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (١٦٧٠).

والإقفال أشد من الطبع. الزجاج: الرين: هو كالصدأ يغشي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال: غين على قلبه: غطي. والغين: شجر ملتف، الواحدة غيناء، أي خضراء، كثيرة الورق، ملتفة الأغصان. وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب. وذكر الثعلبي عن ابن عباس: "ران على قلوبهم": أي غطى عليها. وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل "ران" بالإمالة؛ لأن فاء الفعل الراء، وعينه الألف منقلبة من ياء، فحسنت الإمالة لذلك. ومن فتح فعلى الأصل؛ لأن باب فاء الفعل في (فعل) الفتح، مثل كال وباع ونحوه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ووقف حفص "بل" ثم يبتدئ "ران" وقفا يبين اللام، لا للسكت.

قوله تعالى: ﴿كلا إنهم﴾ أي حقا "إنهم" يعني الكفار ﴿عن ربهم يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لمحجوبون﴾ وقيل: "كلا" ردع وزجر، أي ليس كما يقولون، بل "إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون". قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون. وقال جل ثناؤه: ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة: ٢٢) فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال مجاهد في قوله تعالى: "لمحجوبون": أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه. ﴿ثم إنهم لصالو الجحيم﴾ أي ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها، ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾ (النساء: ٥٦) و﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ (الإسراء: ٩٧). ويقال: الجحيم الباب الرابع من النار. ﴿ثم يقال﴾ لهم أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ رسل الله في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ "كلا" بمعنى حقا، والوقف على "تكذبون". وقيل أي ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا بل كتابهم في سجين، وكتاب المؤمنين في عليين. وقال مقاتل: كلا، أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يصلونه. ثم استأنف فقال: "إن كتاب الأبرار" مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم. قال ابن عباس: أي في الجنة. وعنه أيضا قال: أعمالهم في كتاب الله في السماء. وقال الضحاك ومجاهد وقتادة: يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وروى ابن الأجلح عن الضحاك قال: هي سدرة المنتهى، ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها، فيقولون: ربِّ

عبدك فلان، وهو أعلم به منهم، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب. فذلك قوله تعالى: "كلا إن كتاب الأبرار". وعن كعب الأحبار قال: إن روح المؤمن إذا قبضت صعد بها إلى السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش، رق فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقربون. وقال قتادة أيضا: "في عليين" هي فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى. وقال البراء بن عازب قال النبي ﷺ: (عليون في السماء السابعة تحت العرش). وعن ابن عباس أيضا: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه. وقال الفراء: عليون ارتفاع بعد ارتفاع. وقيل: عليون أعلى الأمكنة. وقيل: معناه علو في علو مضاعف، كأنه لا غاية له؛ ولذلك جمع بالواو والنون. وهو معنى قول الطبري. قال الفراء: هو اسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من لفظه؛ كقولك: عشرون وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية، قالوا في المذكر والمؤنث بالنون. وهي معنى قول الطبري. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع، كما تقول: هذه قنسرون، ورأيت قنسرين. وقال يونس النحوي واحدها: علي وعلية. وقال أبو الفتح: عليين: جمع علي، وهو فعيل من العلو. وكان سبيله أن يقول علية كما قالوا للغرفة علية؛ لأنها من العلو، فلما حذف التاء من علية عوضوا منها الجمع بالواو والنون، كما قالوا في أرضين. وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم الملأ الأعلى؛ كما يقال: فلان في بني فلان؛ أي هو في جملتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن أهل عليين لينظرون إلى الجنة من كذا، فإذا أشرف رجل من أهل عليين أشرقت الجنة لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟ فيقال أشرف رجل من أهل عليين الأبرار أهل الطاعة والصدق)(١). وفي خبر آخر: (إن أهل الجنة ليرون أهل عليين كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء)(٢) يدل على أن عليين اسم الموضع المرتفع. وروى ناس عن ابن عباس في قوله "عليين" قال: أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة.

قوله تعالى: ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسره له فقال: ﴿ كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾. وقيل: إن "كتاب مرقوم" ليس تفسيرا لعليين، بل تم الكلام عند قوله "عليون" ثم ابتدأ وقال: "كتاب مرقوم" أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار؛ قاله القشيري. وروي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد، فيستقبلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفظة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سجين.

---

(١) ضعيف.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ يشهده المقربون ﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وقال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل عليه السلام، فإذا عمل المؤمن عمل البر، صعدت الملائكة بالصحيفة ولـه نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتى ينتهى بها إلى إسرافيل، فيختم عليها ويكتب فهو قولـه: "يشهده المقربون" أي يشهد كتابتهم.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الأبرار ﴾ أي أهل الصدق والطاعة. ﴿ لفي نعيم ﴾ أي نعمة، والنعمة بالفتح: التنعيم؛ يقال: نعمه الله وناعمه فتنعم، وامرأة منعمة ومناعمة بمعنى. أي إن الأبرار في الجنات يتنعمون. ﴿ على الأرائك ﴾ وهي الأسرة في الحجال ﴿ ينظرون ﴾ أي إلى ما أعد الله لـهم من الكرامات؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد. وقال مقاتل: ينظرون إلى أهل النار. وعن النبي ﷺ: (ينظرون إلى أعدائهم في النار) ذكره المهدوي. وقيل: على أرائك أفضالـه ينظرون إلى وجهه وجلالـه.

قولـه تعالى: ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي بهجته وغضارته ونوره؛ يقال: نضر النبات: إذا أزهر ونور. وقراءة العامة "تعرف" بفتح التاء وكسر الراء "نضرة" نصبا؛ أي تعرف يا محمد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق: "تُعْرَف" بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول "نضرة" رفعا. ﴿ يسقون من رحيق ﴾ أي من شراب لا غش فيه. قالـه الأخفش والزجاج. وقيل: الرحيق الخمر الصافية. وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر. والمعنى واحد. الخليل: أقصى الخمر وأجودها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال آخر:

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره أشهى إلي من الرحيق السلسل

﴿ مَّخْتُوم ختَامُهُ مِسْك ﴾ قال مجاهد: يختم به آخر جُرْعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما فى الكَأس، الخَتم ذلك بخاتم المسْك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله: قال المختوم الممزوج. وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار. وقرأ علي وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي "خاتمه" بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قالـه

علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمه مسكا، تريد آخره. والخاتم والختام متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر؛ قاله الفراء. وفي الصحاح: والختام: الطين الذي يختم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: ختم إناؤه بالمسك بدلا من الطين. حكاه المهدوي. وقال الفرزدق:

وبت أفض أغلاق الختام

وقال الأعشى:

وأبرزها وعليها ختم

أي عليها طينة مختومة؛ مثل نفض بمعنى منفوض، وقبض بمعنى مقبوض. وذكر ابن المبارك وابن وهب، واللفظ لابن وهب، عن عبد الله بن مسعود في قولـه تعالى: "ختامه مسك": خلطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم: إن خلطه من الطيب كذا وكذا. إنما خلطه مسك؛ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. وروى أبي بن كعب قال: قيل يا رسول الله ما الرحيق المختوم؟ قال: (غدران الخمر). وقيل: مختوم في الآنية، وهو غير الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم.

﴿ وفي ذلك ﴾ أي وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ أي فليرغب الراغبون يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة: أي ضننت به، ولم أحب أن يصير إليه. وقيل: الفاء بمعنى إلى، أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل؛ نظيره: "لمثل هذا فليعمل العاملون".

قولـه تعالى: ﴿ ومزاجه ﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل؛ ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور. وروي عن عبد الله قال: تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقربون صرفا، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب. وقال ابن عباس في قوله عز وجل: "ومزاجه من تسنيم" قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لـهم من قرة أعين ﴾ ﴿السجدة: ١٧). وقيل: التسنيم عين تجري في الـهواء بقدرة الله تعالى، فتنصب في أواني أهل الجنة على قدر مائها، فإذا امتلأت أمسك الماء، فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة، ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش. وكذا في مراسيل الحسن. وقد ذكرناه في سورة "الإنسان".

﴿ عينا يشرب بها المقربون ﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدن، وهم أفاضل أهل الجنة، صرفا، وهي لغيرهم مزاج. و"عينا" نصب على المدح. وقال الزجاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفة، ليس يعرف لـه اشتقاق، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ "عينا" نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقولـه تعالى: ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ﴾ (البلد: ١٤) وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم. وعند الأخفش بـ "يسقون" أي يسقون عينا أو من عين. وعند المبرد بإضمار أعني على المدح.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

نَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك. روى ناس عن ابن عباس قال: هو الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث؛ وأولئك ﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ من أصحاب محمد ﷺ مثل عمار، وخباب وصهيب وبـلال ﴿ يضحكـون ﴾ علـى وجـه السخريـة. ﴿ وإذا مـروا بهم ﴾ عنـد إتيـانهـم رسـول الله ﷺ ﴿ يتغامزون ﴾ يغمز بعضهم بعضا، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به يقال: غمزت الشيء بيدي؛ قال:

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

وقالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا سجد غمزني، فقبضت رجلي. الحديث؛ وقد مضى في "النساء". وغمزته بعيني. وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال غمزه: أي عابه، وما في فلان غمزة أي عيب. وقال مقاتل: نزلت في علي بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي ﷺ فلمزهم المنافقون، وضحكوا عليهم وتغامزوا.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا انقلبوا ﴾ أي انصرفوا إلى أهلـهم وأصحابهم وذويهم ﴿ انقلبوا فكهين ﴾ أي معجبين منهم. وقيل: معجبون بما هم عليه من الكفر، متفكهون بذكر المؤمنين. وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلمي: "فكهين" بغير ألف. الباقون بألف. قال الفراء: هما لغتان مثل طمع وطامع وحذر وحاذر، وقد تقدم في سورة "الدخان" والحمد لله. وقيل: الفكه: الأشر البطر والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿ وإذا رأوهم ﴾ أي إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد ﷺ ﴿ قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ في اتباعهم محمدا ﷺ ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ لأعمالـهم، موكلين بأحوالـهم، رقباء عليهم.

قولـه تعالى: ﴿ فاليوم ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يوم القيامة ﴿ الذين آمنوا ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ من الكفار يضحكون ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا. نظيره في آخر سورة "المؤمنين" وقد تقدم. وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قولـه تعالى: ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ قال: ذكر لنا أن كعبا كان يقول: إن بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان لـه في الدنيا اطلع من بعض الكوى؛ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ (الصافات: ٥٥) قال: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي. وذكر ابن المبارك أيضا: أخبرنا الكلبي عن أبي صالح في قولـه تعالى: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ (البقرة: ١٥) قال: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لـهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم؛ فذلك قولـه:

﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ (البقرة: ١٥) ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم فذلك قولـه تعالى: "فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون". ﴿ على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ وقد مضى هذا في أول سورة "البقرة". ومعنى "هل ثوب" أي هل جوزي بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ "ينظرون" أي ينظرون: هل جوزي الكفار؟ فيكون معنى هل التقرير وموضعها نصبا بـ "ينظرون". وقيل: استئناف لا موضع لـه من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض: "هل ثوب الكفار" أي أثيب وجوزي. وهو من ثاب يثوب أي رجع؛ فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عملـه، ويستعمل في الخير والشر. ختمت السورة والله أعلم.

سورة الانشقاق

مكيّة في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية.

قولـه تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أي: انصدعت، وتفطرت بالغمام، والغمام مثل السحاب الأبيض. وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس. وروي عن علي رضي الله عنه قال: تشق من المجرة. وقال: المجرة باب السماء، وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أي سمعت، وحق لـها أن تسمع. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما؛ ومنه قولـه ﷺ: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن)[1] أي ما استمع الله لشيء؛ قال الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

أي سمعوا. وقال قعنب ابن أم صاحب:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا وما هم أذنوا من صالح دفنوا

وقيل: المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك: حقت: أطاعت، وحق لـها أن تطيع ربها، لأنه خلقها؛ يقال: فلان محقوق بكذا. وطاعة السماء: بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب. وقال قتادة: حق لـها أن تفعل ذلك؛ ومنه قول كثير:

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا وحقت لـها العتبى لدينا وقلت

قولـه تعالى: ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت ودكت جبالـها. قال النبي ﷺ: (تمد مد الأديم) لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه وامتد واستوى. قال ابن عباس وابن مسعود: ويزاد، وسعتها كذا وكذا؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه، لكثرة الخلائق فيها. وقد مضى في سورة "إبراهيم" أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهي الساهرة في قول ابن عباس على ما تقدم عنه ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم. وقال ابن جبير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها كنوزها ومعادنها، وتخلت منها. أي خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالـها وبحارها. وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت؛ لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتا، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا. ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي في إلقاء موتاها ﴿ وحقت ﴾ أي وحق لـها أن تسمع أمره.
واختلف في جواب "إذا" فقال الفراء: "أذنت". والواو زائدة، وكذلك "وألقت". ابن الأنباري: قال بعض المفسرين: جواب "إذا السماء انشقت" "أذنت"، وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٤)، ومسلم (٧٩٢).

العرب لا تقحم الواو إلا مع "حتى - إذا" كقولـه تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ (الزمر: ٧١) ومع "لما" كقولـه تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه﴾(الصافات: ١٠٣) معناه "ناديناه" والواو لا تقحم مع غير هذين. وقيل: الجواب فاء مضمرة كأنه قال: "إذا السماء انشقت" فيا أيها الإنسان إنك كادح. وقيل: جوابها ما دل عليه "فملاقيه" أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه" "إذا السماء انشقت". قالـه المبرد. وعنه أيضا: الجواب "فأما من أوتي كتابه بيمينه" وهو قول الكسائي؛ أي إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح ما قيل فيه وأحسنه. قيل: هو بمعنى اذكر "إذا السماء انشقت". وقيل: الجواب محذوف لعلم المخاطبين به؛ أي إذا كانت هذه الأشياء علم المكذبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم. وقيل: تقدم منهم سؤال عن وقت القيامة، فقيل لـهم: إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة، فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها. والقرآن كالآية الواحدة في دلالة البعض على البعض. وعن الحسن: إن قولـه "إذا السماء انشقت" قسم. والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا﴾ المراد بالإنسان الجنس أي يا ابن آدم. وكذا روى سعيد. عن قتادة: يا ابن آدم، إن كدحك لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقيل: هو معين، قال مقاتل: يعني الأسود بن عبد الأسد. ويقال: يعني أبي بن خلف. ويقال: يعني جميع الكفار، أيها الكافر إنك كادح. والكدح في كلام العرب: العمل والكسب؛ قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقال آخر:

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياة وأنصب

أي أعمل. وروى الضحاك عن ابن عباس: "إنك كادح" أي راجع "إلى ربك كدحا" أي رجوعا لا محالة ﴿فملاقيه﴾ أي ملاق ربك. وقيل: ملاق عملك. القتبي "إنك كادح" أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك. والملاقاة بمعنى اللقاء أن[1] تلقى ربك بعملك. وقيل أي تلاقي كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضى ولـهذا قال: "فأما من أوتي كتابه بيمينه". قولـه تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهو المؤمن ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ لا مناقشة فيه. كذا روي عن رسول الله ﷺ من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (من حوسب يوم القيامة عذب) قالت: فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله "فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا" فقال: (ليس ذاك الحساب؛

---

(١) في نسخة أي.

إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[1] أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. وقال حديث حسن صحيح. ﴿وينقلب إلى أهلـه مسرورا ﴾ أزواجه في الجنة من الحور العين "مسرورا" أي مغتبطا قرير العين. ويقال إنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد، هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة. وقيل: إلى أهلـه الذين كانوا لـه في الدنيا، ليخبرهم بخلاصه وسلامته. والأول قول قتادة. أي إلى أهلـه الذين قد أعدهم الله لـه في الجنة.

قولـه تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة؛ قاله ابن عباس. ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر. قال ابن عباس: يمد يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه ملك، فيخلع يمينه، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك. ﴿فسوف يدعو ثبورا ﴾ أي بالـهلاك فيقول: يا ويلاه، يا ثبوراه. ﴿ويصلى سعيرا ﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرها. وقرأ الحرميان وابن عامر والكسائي "ويُصَلَّى" بضم الياء وفتح الصاد، وتشديد اللام، كقولـه تعالى: ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ (الحاقة: ٣١) وقولـه: ﴿وتصلية جحيم ﴾ (الواقعة: ٩٤). الباقون "ويصلى" بفتح الياء مخففا، فعل لازم غير متعد؛ لقولـه: ﴿إلا من هو صال الجحيم ﴾ (الصافات: ١٦٣) وقولـه: ﴿ يصلى النار الكبرى ﴾ (الأعلى: ١٢) وقولـه ﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ (المطففين: ١٦). وقراءة ثالثة رواها أبان عن عاصم وخارجة عن نافع وإسماعيل المكي عن ابن كثير "ويُصْلَى" بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففا؛ كما قرئ "وسيصلون" بضم الياء، وكذلك في "الغاشية" قد قرئ أيضا: "تصلى نارا" وهما لغتان صلى وأصلى؛ كقولـه: "نزل. وأنزل".

قولـه تعالى: ﴿إنه كان في أهلـه ﴾ أي في الدنيا ﴿مسرورا ﴾ قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: "إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم". قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه. فقال: "إنه كان في أهلـه مسرورا". ﴿إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب. يقال: حار يحور إذا رجع؛ قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وقال عكرمة وداود بن أبي هند، يحور كلمة بالحبشية، ومعناها يرجع. ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق؛ ومنه الخبز الحوارة[2]؛ لأنه يرجع إلى البياض. وقال ابن عباس: ما كنت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) وفي نسخة (الحُوَارَى).

أدري: ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لـها: حوري، أي ارجعي إلي، فالحور في كلام العرب الرجوع؛ ومنه قوله ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور)[1] يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم. وفي المثل "حور في محارة" أي نقصان في نقصان. يضرب للرجل إذا كان أمره يدبر، قال الشاعر:

واستعجلوا عن خفيف المضغ فازدردوا والـذم يبقى وزاد القـوم فـي حـور

والحور أيضا: الاسم من قولك: طحنت الطاحنة فما أحارت شيئا؛ أي ما ردت شيئا من الدقيق. والحور أيضا الـهلكة؛ قال الراجز:

في بئر لا حور سرى ولا شعر

قال أبو عبيدة: أي بئر حور، و"لا" زائدة. وروي "بعد الكون" ومعناه من انتشار الأمر بعد تمامه. وسئل معمر عن الحور بعد الكون، فقال: هو الكنتي. فقال لـه عبد الرزاق: وما الكنتي؟ فقال: الرجل يكون صالحا ثم يتحول رجل سوء. قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كنتي، كأنه نسب إلى قولـه: كنت في شبابي كذا. قال:

فأصبحت كنتياً وأصبحت عاجنا وشر خصال المرء كنت وعاجن

عجن الرجل: إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر. وقال ابن الأعرابي: الكنتي: هو الذي يقول: كنت شابا، وكنت شجاعا، والكاني هو الذي يقول: كان لي مال وكنت أهب، وكان لي خيل وكنت أركب.

قولـه تعالى: ﴿ بلى ﴾ أي ليس الأمر كما ظن، بل يحور إلينا ويرجع. ﴿ إن ربه كان به بصيرا ﴾ قبل أن يخلقه، عالما بأن مرجعه إليه. وقيل: بلى ليحورن وليرجعن. ثم استأنف فقال: "إن ربه كان به بصيرا" من يوم خلقه إلى أن بعثه. وقيل: عالما بما سبق لـه من الشقاء والسعادة.

قولـه تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلا أقسم ﴾ أي فأقسم و"لا" صلة. ﴿ بالشفق ﴾ أي بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة. قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم، كثير عددهم، عن مالك: الشفق الحمرة التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء. وروى ابن وهب قال: أخبرني غير واحد عن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس وأبي هريرة: أن الشفق الحمرة، وبه قال مالك بن أنس. وذكر غير ابن وهب من الصحابة: عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنسا وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير، ومن التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيـب وطاوس، وعبد الله

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم بنحوه.

ابن دينار، والزهري، وقال به من الفقهاء الأوزاعي ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيدة وأحمد وإسحاق وقيل: هو البياض؛ روي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه. وروي عن ابن عمر أيضا أنه البياض والاختيار الأول؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه، ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد لـه. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ: كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة؛ وقال الشاعر:

وأحمر اللون كمحمر الشفق

وقال آخر:

قـم يا غـلام أعنـــي غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

ويقال للمغرة الشفق. وفي الصحاح: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة. قال الخليل: الشفق: الحمرة، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل: غاب الشفق. ثم قيل: أصل الكلمة من رقة الشيء؛ يقال: شيء شفق أي لا تماسك لـه لرقته. وأشفق عليه. أي رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رقة القلب، وكذلك الشفق؛ قال الشاعر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا والموت أكـرم نـزال علـى الحرم

فالشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرقة عن ضوء الشمس. وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا. وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض، فرأيته يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب. وقال ابن أبي أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر. قال علماؤنا: فلما لم يتحدد وقته سقط اعتباره. وفي سنن أبي داود عن النعمان بن بشير قال: أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة؛ كان النبي ﷺ يصليها لسقوط القمر لثالثة. وهذا تحديد، ثم الحكم معلق بأول الاسم. لا يقال: فينقض عليكم بالفجر الأول، فإنا نقول الفجر الأول لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك؛ لأن النبي ﷺ بين الفجر بقوله وفعله فقال: "وليس الفجر أن تقول هكذا ـ فرفع يده إلى فوق ـ ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها"[1] وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة "البقرة"، فلا معنى للإعادة. وقال مجاهد: الشفق: النهار كلـه ألا تراه قال "والليل وما وسق" وقال عكرمة: ما بقي من النهار. والشفق أيضا: الرديء من الأشياء؛ يقال: عطاء مشفق أي مقلل قال الكميت:

ملك أغر من الملوك تحلبت للسـائلين يداه غير مشـفق

قولـه تعالى: ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع وضم ولف، وأصلـه من سورة السلطان وغضبه فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها، فسكن الخلق إليه ثم انذعروا[2] والتفوا وانقبضوا، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هولـه وحشا، وهو قولـه تعالـى: ﴿ ومـن رحمـته جـعل لكـم الليـل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ (القصص: ٧٣) أي بالليل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٧) وغيره.

(٢) في نسخة (ابذعَرّوا).

﴿ ولتبتغوا من فضلـه ﴾ (القصص: ٧٣) أي بالنهار على ما تقدم. فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرا بالنهار في تصرفه. هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم؛ قال ضابئ بن الحارث البرجُمِيّ:

فإني وإياكـم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تسقه أناملـه

يقول: ليس في يده من ذلك شيء كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء؛ فإذا جلل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت لـه، فقد وسقها. والوسق: ضمك الشيء بعضه إلى بعض، تقول: وسقته أسقه وسقا. ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع: وسق، وهو ستون صاعا. وطعام موسق: أي مجموع، وإبل مستوسقة أي مجتمعة؛ قال الراجز:

إن لنا قـلائصـا حـقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وقال عكرمة: "وما وسق" أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي، فالوسق بمعنى الطرد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر: وسيقة، قال الشاعر:

كما قاف آثار الوسيقة قائف

وعن ابن عباس: "وما وسق" أي وما جن وستر. وعنه أيضا: وما حمل، وكل شيء حملته فقد وسقته، والعرب تقول: لا أفعلـه ما وسقت عيني الماء، أي حملته. ووسقت الناقة تسق وسقا: أي حملت وأغلقت رحمها على الماء، فهي ناقة واسق، ونوق وساق مثل نائم ونيام، وصاحب وصحاب، قال بشر بن أبي خازم:

ألظ بهن يحدوهن حـتى تبينت الحيال من الوساق

ومواسيق أيضا. وأوسقت البعير: حملته حملـه، وأوسقت النخلة: كثر حملـها. وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان: حمل من الظلمة. قال مقاتل: أو حمل من الكواكب. القشيري: ومعنى حمل: ضم وجمع، والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها. ويكون هذا القسم قسما بجميع المخلوقات، لاشتمال الليل عليها، كقولـه تعالى: ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ (الحاقة: ٣٨ـ٣٩). وقال ابن جبير: "وما وسق" أي وما عمل فيه، يعني التهجد والاستغفار بالأسحار، قال الشاعر:

ويوما ترانا صالحين وتارة تقوم بنا كالواسق المتلبب

أي كالعامل.

قولـه تعالى: ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي تم واجتمع واستوى. قال الحسن: اتسق: أي امتلأ واجتمع. ابن عباس: استوى. قتادة: استدار. الفراء: اتساقه: امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر، وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان متسق: أي مجتمع على الصلاح منتظم. ويقال: اتسق الشيء: إذا تتابع: ﴿ لتركبن طبقا عن طبق ﴾ قرأ أبو عمر وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي وابن كثير وحمزة والكسائي "لَتَركَبَنّ" بفتح الباء خطابا للنبي ﷺ، أي لتركبن يا محمد حالا بعد حال، قاله ابن عباس. الشعبي: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة، في القربة

من الله تعالى. ابن مسعود: لتركبن السماء حالا بعد حال، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطي وكونها مرة كالمهل ومرة كالدهان. وعن إبراهيم عن عبد الأعلى: "طبقا عن طبق" قال: السماء تقلب حالا بعد حال. قال: تكون وردة كالدهان، وتكون كالمهل؛ وقيل: أي لتركبن أيها الإنسان حالا بعه حال، من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: "يا أيها الإنسان إنك كادح" هو اسم للجنس، ومعناه الناس. وقرأ الباقون "لتركبن" بضم الباء، خطابا للناس، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قال: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله. أي لتركبن حالا بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب واختلاق على الأنبياء.

قلت: وكله مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث، فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه، قال سمعت رسول ﷺ يقول: (إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل؛ إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك اكتب رزقه وأثره وأجله، واكتب شقيا أو سعيدا، ثم يرتفع ذلك الملك، ويبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان، ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه، فإذا أدخل حفرته رد الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فأنشطا كتابا معقودا في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائق والآخر شهيد) ثم قال الله عز وجل ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد ﴾ (ق: ٢٢). قال رسول الله ﷺ: "لتركبن طبقا عن طبق" قال: (حالا بعد حال) ثم قال النبي ﷺ: (إن قدامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم)[1] فقد اشتمل هذا الحديث على أحوال تعتري الإنسان، من حين يخلق إلى حين يبعث، وكله شدة بعد شدة، حياة ثم موت، ثم بعث ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدائد. وقال ﷺ: (لتركبن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ خرجه البخاري[2]: وأما أقوال المفسرين، فقال عكرمة: حالا بعد حال، فطيما بعد رضيع، وشيخا بعد شباب، قال الشاعر:

كذلك المرء إن ينسأ له أجل   يركب على طبق من بعده طبق

وعن مكحول: كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه: وقال الحسن: أمرا بعد أمر، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقما بعد صحة: سعيد بن جبير: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة: وقيل: منزلة عن منزلة، وطبقا عن طبق، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كل شيء يجري إلى شكله: ابن زيد: ولتصيرن من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة: وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموت، ثم

---

(١) ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

البعث، ثم العرض، والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد: وقع في بنات طبق، وإحدى بنات طبق، ومنه قيل للداهية الشديدة: أم طبق، وإحدى بنات طبق: وأصلـها من الحيات، إذ يقال للحية أم طبق لتحويها: والطبق في اللغة: الحال كما وصفنا، قال الأقرع بن حابس التميمي:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره   وساقني طبق منه إلى طبق

وهذا أدل دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع، قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه: وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على أن لـهذا العالم صانعا؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر النية: ونسخ العزيمة: ويقال: أتانا طبق من الناس وطبق من الجراد: أي جماعة: وقول العباس في مدح النبي ﷺ:

تنقل من صالب إلى رحم   إذا مضى عالم بدا طبق

أي قرن من الناس. يكون طباق الأرض أي ملأها. والطبق أيضا: عظم رقيق يفصل بين الفقارين ويقال: مضى طبق من الليل، وطبق من النهار: أي معظم منه. والطبق: واحد الأطباق، فهو مشترك. وقرئ "لتركبن" بكسر الباء، على خطاب النفس و"ليركبن" بالياء على ليركبن الإنسان. و"عن طبق" في محل نصب على أنه صفة لـ "طبقا" أي طبقا مجاوزا لطبق. أو حال من الضمير في "لتركبن" أي لتركبن طبقا مجاوزين لطبق، أو مجاوزا أو مجاوزة على حسب القراءة.

قولـه تعالى: ﴿ فما لـهم لا يؤمنون ﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعدما وضحت لـهم الآيات وقامت الدلالات. وهذا استفهام إنكار. وقيل: تعجب أي أعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات. ﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ أي لا يصلون. وفي الصحيح: إن أبا هريرة قرأ "إذا السماء انشقت" فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. وقد قال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى لا يذعنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. ابن العربي: والصحيح أنها منه، وهي رواية المدنيين عنه، وقد اعتضد فيها القرآن والسُّنّة. قال ابن العربي: لما أممت بالناس تركت قراءتها؛ لأني إن سجدت أنكروه، وإن تركتها كان تقصيرا مني، فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدي. وهذا تحقيق وعد الصادق بأن يكون المعروف منكرا، والمنكر معروفا؛ وقد قال ﷺ لعائشة: (لولا حدثان قومك بالكفر لـهدمت البيت، ولرددته على قواعد إبراهيم)[1]. ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع، وعند الرفع منه، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعلـه الشيعة، فحضر عندي يوما في محرس ابن الشواء بالثغر ـ موضع تدريسي ـ عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعدا على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تَحْت الميناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر، فلا يراكم أحد. فطار قلبي من بين جوانحي وقلت: سبحان الله هذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣).

الطرطوشي فقيه الوقت. فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهذا مذهب مالك، في رواية أهل المدينة عنه. وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته، فضحك وقال: ومن أين لي أن أقتل على سنة؟ فقلت لـه: ولا يحل لك هذا، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك. فقال: دع هذا الكلام، وخذ في غيره.

قولـه تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ محمدا ﷺ وما جاء به. وقال مقاتل: نزلت في بني عمرو بن عمير وكانوا أربعة، فأسلم اثنان منهم. وقيل: هي في جميـع الكفار. ﴿ والله أعلم بما يوعـون ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد: يكتمون من أفعالـهم. ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة؛ مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه؛ يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء؛ قال الشاعر:

الخير أبقى وإن طال الزمان بـه والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ووعاه أي حفظه؛ تقول: وعيت الحديث أعيه وعيا، وأذن واعية. وقد تقدم.

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي موجع في جهنم على تكذيبهم. أي اجعل ذلك بمنزلة البشارة. ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعملوا الصالحات، أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لـهم أجر ﴾ أي ثواب ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع؛ يقال: مننت الحبل: إذا قطعته. وقد تقدم. سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قولـه "لـهم أجر غير ممنون": فقال: غير مقطوع. فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول:

فترى خلفهن من سرعة الرجـ ـع مَنينا كأنـه أهـبـاء

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها. وكل ضَعيف منين وممنون. وقيل: "غير ممنون" لا يمن عليهم به. وذكر ناس من أهل العلم أن قولـه: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا. وقد مضى في "البقرة" القول فيه والحمد لله.

سورة البروج

مكيّة باتفاق، وهي إثنتان وعشرون آية.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾

قسم أقسم الله به جل وعز. وفي "البروج" أقوال أربعة: أحدها: ذات النجوم؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك. الثاني: القصور، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد أيضا. قال عكرمة: هي قصور في السماء. مجاهد: البروج فيها الحرس. الثالث: ذات الخلق الحسن؛ قاله المنهال بن عمرو. الرابع: ذات المنازل؛ قاله أبو عبيدة ويحيى بن سلام. وهي اثنا عشر برجا، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما، ثم يستسر ليلتين؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهرا. وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس والجدي، والدلو، والحوت. والبروج في كلام العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾(النساء: ٧٨). وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به. وهو قسم آخر، وهو يوم القيامة؛ من غير اختلاف بين أهل التأويل. قال ابن عباس: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه. ﴿وشاهد ومشهود ﴾ اختلف فيهما؛ فقال علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة ﷺ: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة. وهو قول الحسن. ورواه أبو هريرة مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ: (اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة. . .)[1] خرجه أبو عيسى الترمذي في جامعه، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره. وقد روى شعبة وسفيان الثوري وغير واحد من الأئمة عنه. قال القشيري فيوم الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه.

قلت: وكذلك سائر الأيام والليالي؛ فكل يوم شاهد، وكذا كل ليلة؛ ودليلـه ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: (ليس من يوم يأتي على العبد إلا ينادى فيه: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل في خيرا أشهد لك به غد، فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا، ويقول الليل مثل ذلك)[2]. حديث غريب من حديث معاوية، تفرد به عنه زيد العمري، ولا أعلمه مرفوعا عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد: التروية، والمشهود: يوم عرفة. وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي ﷺ: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر. وقالـه النخعي. وعن علي أيضا: المشهود يوم عرفة. وقال ابن عباس والحسين بن علي رضي

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٨٢٠١).
(٢) ضعيف.

الله عنهما: المشهود يوم القيامة؛ لقولـه تعالى: ﴿ ذلك يوم مجموع لـه الناس وذلك يوم مشهود﴾ (هود: ١٠٣).

قلت: وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشاهد، فقيل: الله تعالى؛ عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير؛ بيانه: ﴿ وكفى بالله شهيدا﴾ (النساء: ٧٩)، ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ (الأنعام: ١٩). وقيل: محمدﷺ ؛ عن ابن عباس أيضا والحسين بن علي؛ وقرأ ابن عباس﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (النساء: ٤١)، وقرأ الحسين﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ (الأحزاب: ٤٥).

قلت: وأقرأ أنا "ويكون الرسول عليكم شهيدا". وقيل: الأنبياء يشهدون على أممهم؛ لقولـه تعالى: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ (النساء: ٤١). وقيل: آدم. وقيل: عيسى ابن مريم؛ لقولـه: ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم﴾ (المائدة: ١١٧). والمشهود: أمته. وعن ابن عباس أيضـا ومحمد بن كعب: الشاهد الإنسان؛ دليلـه: ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (الإسراء: ١٤). مقاتل: أعضاؤه؛ بيانه: ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلـهم بما كانوا يعملون﴾ (النور: ٢٤). الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم؛ بيانه: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة: ١٤٣). وقيل: الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الليالي والأيام. وقد بيناه.

قلت: وقد يشهد المال على صاحبه، والأرض بما عمل عليها؛ ففي صحيح مسلم عن النبيﷺ : (إن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو كما قال رسول اللهﷺ ـ وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة)[1] . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول اللهﷺ هذه الآية: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها﴾ (الزلزلة: ٤) قال: (أتدرون ما أخبارها)؟ قالوا: الله ورسولـه أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها)[2] . قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلق، شهدوا لله عز وجل بالوحدانية. والمشهود لـه بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يوم الجمعة؛ كما روى أبو الدرداء قال: قال رسول اللهﷺ : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة...) وذكر الحديث. خرجه ابن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يوم عرفة مشهود، لأن الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النحر إن شاء الله. وقال أبو بكر العطار: الشاهد الحجر الأسود؛ يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين. والمشهود الحاج. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود محمدﷺ ؛ بيانه: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ إلى قولـه تعالى﴿ وأنا معكم من الشاهدين﴾ (آل عمران: ٨١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٥).
(٢) صحيح.

قولـه تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أي لعن. قال ابن عباس: كل شيء في القرآن "قتل" فهو لعن. وهذا جواب القسم ـ في قول الفراء ـ واللام فيه مضمرة؛ كقولـه: ﴿والشمس وضحاها ﴾ (الشمس: ١) ثم قال ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ (الشمس: ٩): أي لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج؛ قالـه أبو حاتم السجستاني. ابن الأنباري: وهذا غلط لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد على معنى قام زيد والله. وقال قوم: جواب القسم "إن بطش ربك لشديد" وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: "إن الذين فتنوا". وقيل: جواب القسم محذوف، أي والسماء ذات البروج لتبعثن. وهذا اختيار ابن الأنباري. والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد. ومنه الخد لمجاري الدموع، والمخدة؛ لأن الخد يوضع عليها. ويقال: تخدد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من جراح. قال طرفة:

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليـه نقـي اللـون لـم يتخـدد

﴿ النار ذات الوقود ﴾ "النار" بدل من "الأخدود" بدل الاشتمال. و"الوقود" بفتح الواو قراءة العامة وهو الحطب. وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر؛ أي ذات الاتقاد والالتهاب. وقيل: ذات الوقود بأبدان الناس. وقرأ أشهب العقيلي وأبو السمال العدوي وابن السميقع "النار ذات" بالرفع فيهما؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود.

قولـه تعالى: ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ أي الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقد اختلفت الرواة في حديثهم. والمعنى متقارب. ففي صحيح مسلم عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان لـه ساحر؛ فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاما يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلـها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال لـه الراهب: أي بني؛ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت فلا تدل علي. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال لـه

الملك: من رد عليك بصرك؟ قال ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال لـه الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ ! قال: أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب، فقيل لـه: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. ثم جيء بجليس الملك فقيل لـه: ارجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام فقيل لـه: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه؛ فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فرجف بهم الجبل، فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال لـه الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال لـه الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل لـه: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ـ أو قيل لـه اقتحم ـ ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبي لـها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لـها الغلام: (يا أمه اصبري فإنك على الحق)[1]. خرجه الترمذي بمعناه.

وفيه: (وكان على طريق الغلام راهب في صومعة) قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. وفيه: (أن الدابة التي حبست الناس كانت أسدا، وأن الغلام دفن ـ قال ـ: فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل). وقال: حديث حسن غريب. ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان ملك بنجران، وفي رعيته رجل لـه فتى، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فدخل في دين الراهب؛ فأقبل يوما فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجرا فقال باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلـها. وذكر نحو ما تقدم. وأن الملك لما رماه بالسهم وقتلـه قال أهل مملكة الملك: لا إلـه إلا إلـه عبد الله بن ثامر، وكان اسم الغلام، فغضب الملك، وأمر فخدت أخاديد، وجمع فيها حطب ونار، وعرض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه في النار. وجيء بامرأة مرضع فقيل لـها ارجعي عن دينك

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) وغيره.

وإلا قذفناك وولدك ـ قال ـ فأشفقت وهمت بالرجوع، فقال لـها الصبي المرضع: يا أمي، اثبتي على ما أنت عليه، فإنما هي غميضة؛ فألقوها وابنها. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم. وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفا وثمانين رجلا، وحفر لـهم أخدودا وأحرقهم فيه. حكاه الماوردي، وحكى الثعلبي عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجالا ونساء، فخدوا لـهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها. وقيل لـهم: تكفرون أو تقذفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ وقاله عطية العوفي. وروي نحو هذا عن ابن عباس. وقال علي ﷺ: إن ملكا سكر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعا في رعيته فلم يقبلوا؛ فأشارت إليه أن يخطب بأن الله ـ عز وجل ـ أحل نكاح الأخوات، فلم يسمع منه. فأشارت إليه أن يخد لـهم الأخدود، ويلقي فيه كل من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكحون الأخوات وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب.

وروي عن علي أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتبعه ناس، فخد لـهم قومهم أخدودا، فمن اتبع النبي رمي فيها، فجيء بامرأة لـها بني رضيع فجزعت، فقال لـها: يا أماه، امضي ولا تجزعي. وقال أيوب عن عكرمة قال: "قتل أصحاب الأخدود" قال: كانوا من قومك من السجستان. وقال الكلبي: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوما مؤمنين، فخدوا لـهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا. ثم طرح فيه النفط والحطب، ثم عرضوهم عليها؛ فمن أبى قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين. وقال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أما الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس. فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآنا، وأنزل قرآنا في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة، والآخر بنجران، أجر أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فرأت ابنة المستأجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة، بعدما رفع عيسى، فخد لـهم يوسف بن ذي نواس بن تُبَّع الحميري أخدودا، وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: مَن رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لـها ابنها: يا أماه، إني أرى أمامك نارا لا تطفأ، فقذفا جميعا أنفسهما في النار، فجعلـها الله وابنها في الجنة. فقذف في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا. وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم عليهما السلام، يقال لـه قيميون، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحا في القرى، لا يعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بناء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القرظي، وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحد الله وعبده، وجعل يسألـه عن

اسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يا ابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله تعالى اسما يعلمه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قدحا قدحا، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء، فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه علم اسم الله الأعظم الذي كتمه إياه، فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضر إلا قال: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل في ديني، فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له: أفسدت علي أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح عن رأسه، فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي وقتلتني. فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخد لهم الأخدود، فحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا. وقال وهب بن منبه: اثني عشر ألفا. وقال الكلبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً. قال وهب: ثم لما غلب أرياط على اليمن خرج ذو نواس هاربا، فاقتحم البحر بفرسه فغرق. قال ابن إسحاق: وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان أسعد الحميري، وكان أيضا يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعر تنوس، أي تضطرب، فسمي ذا نواس، وكان فعل هذا بأهل نجران، فأفلت منهم رجل اسمه دوس ذو ثعلبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر، ألقى نفسه فيه، وفيه يقول عمرو ابن معدي كرب:

أتوعدني كأنك ذو رعين	بأنعم عيشة أو ذو نواس
وكائن كان قبلك من نعيم	وملك ثابت في الناس راس
قديم عهده من عهد عاد	عظيم قاهر الجبروت قاس
أزال الدهر ملكهم فأضحى	ينقل من أناس في أناس

وذو رعين: ملك من ملوك حمير. ورعين حصن له وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير بن سبأ.

مسألة: قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم. ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حسب ما تقدم بيانه في سورة "النحل".

قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبرا عن لقمان: ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ (لقمان: ١٧): وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[١]: خرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وروى ابن سنجر (محمد بن سنجر) عن أميمة مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضئ النبي ﷺ، فأتاه رجل، قال: أوصني فقال: (لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار..)[٢] الحديث: قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك، وقد مضى في "النحل" أن هذا إجماع ممن قوي في ذلك، فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ دعاء على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى: وقيل: معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين، أي إنهم قتلوا بالنار فصبروا: وقيل: هو إخبار عن أولئك الظالمين، فإنه روي أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود: وقيل: إن المؤمنين نجوا، وأحرقت النار الذين قعدوا، ذكره النحاس، ومعنى "عليها" أي عندها وعلى بمعنى عند، وقيل: "عليها" على ما يدنو منها من حافات الأخدود، كما قال:

وبات على النار الندى والمحلق

العامل في "إذ": "قتل"، أي لعنوا في ذلك الوقت: ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي حضور: يعني الكفار، كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبى ألقوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد في ذلك: وقيل: "على" بمعنى مع، أي وهم: مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٢٢٠٩).
(٢) صحيح.

قولـه تعالى: ﴿ وما نقموا منهم ﴾ وقرأ أبو حيوة "نَقِمُوا" بالكسر، والفصيح هو الفتح، وقد مضى في "التوبة"[1] القول فيه: أي ما نقم الملك وأصحابه من الذين حرقهم. ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ أي إلا أن يصدقوا. ﴿ بالله العزيز ﴾ أي الغالب المنيع. ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في كل حال. ﴿ الذي لـه ملك السماوات والأرض ﴾ لا شريك لـه ولا نديد ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوهم بالنار. والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخلـه الكور لينظر جودته. ودينار مفتون. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة. ويقال للحرة فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها. ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لـهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام. ﴿ فلـهم عذاب جهنم ﴾ لكفرهم. ﴿ ولـهم عذاب الحريق ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدم عن ابن عباس. وقيل: "ولـهم عذاب الحريق" أي ولـهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: لـهم عذاب، وعذاب جهنم الحريق. والحريق: اسم من أسماء جهنم؛ كالسعير. والنار دركات وأنواع ولـها أسماء. وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذبون بعذاب الحريق. فالأول عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرها.

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله؛ أي صدقوا به وبرسلـه. ﴿ وعملوا الصالحات لـهم جنات ﴾ أي بساتين. ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى. ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ أي العظيم، الذي لا فوز يشبهه.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي أخذه الجبابرة والظلمة، كقولـه جل ثناؤه: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد ﴾ (هود: ١٠٢). وقد تقدم. قال المبرد: "إن بطش ربك" جواب القسم. المعنى: والسماء ذات البروج إن بطش ربك، وما بينهما معترض

---

(١) في نسخة (براءة).

مؤكد للقسم. وكذلك قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول: إن القسم واقع عما ذكر صفته بالشدة: ﴿ إنه هو يبدئ ويعيد﴾ يعني الخلق ـ عن أكثر العلماء ـ يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم عند البعث، وروى عكرمة قال: عجب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه الأموات، وقال ابن عباس: يبدئ لـهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة. وهذا اختيار الطبري. ﴿ وهو الغفور﴾ أي الستور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها. ﴿ الودود﴾ أي المحب لأوليائه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. وعنه أيضا "الودود" أي المتودد إلى أوليائه بالمغفرة، وقال مجاهد الواد لأوليائه، فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: الرحيم، وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحاق القاضي أن الودود هو الذي لا ولد لـه، وأنشد قول الشاعر:

وأركـب في الروع عريانة ذلول الجناح لقاحا ودودا

أي لا ولد لـها تحن إليه، ويكون معنى الآية: إنه يغفر لعباده وليس لـه ولد يغفر لـهم من أجلـه، ليكون بالمغفرة متفضلا من غير جزاء. وقيل: الودود بمعنى المودود، كركوب وحلوب، أي يوده عباده الصالحون ويحبونه.

قولـه تعالى: ﴿ ذو العرش المجيد﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما "المجيد" بالخفض، نعتا للعرش. وقيل: لـ "ربك"؛ أي إن بطش ربك المجيد لشديد، ولم يمتنع الفصل، لأنه جار مجرى الصفة في التشديد. الباقون بالرفع نعتا لـ"ذو" وهو الله تعالى. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر "المؤمنون". تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار؛ أي تناهيا فيه، حتى يقتبس منهما. ومعنى ذو العرش: أي ذو الملك والسلطان؛ كما يقال: فلان على سرير ملكه؛ وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثل عرشه: أي ذهب سلطانه. وقد مضى بيان هذا في "الأعراف" وخاصة في "كتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى". ﴿ فعال لما يريد﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريده. الزمخشري: "فعال" خبر ابتداء محذوف. وإنما قيل: "فعال" لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. وقال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. وقال الطبري: رفع "فعال" وهي نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب "الغفور الودود". وعن أبي السفر قال: دخل ناس من أصحاب النبيﷺ على أبي بكرﷺ يعودونه فقالوا: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد.

قولـه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ هل أتاك حديث الجنود﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم؛ يؤنسه بذلك ويسليه. ثم بينهم فقال: ﴿ فرعون وثمود﴾ وهما في موضع جر على البدل من "الجنود". المعنى: إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسلـه. ﴿ بل الذين كفروا﴾ أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك. ﴿ في تكذيب﴾ لك؛ كدأب من قبلـهم. وإنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون

كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الـهلاك؛ فدل بهما على أمثالـهما في الـهلاك. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون. والمحاط به كالمحصور. وقيل: أي والله عالم بهم فهو يجازيهم. ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل "مجيد": أي غير مخلوق. ﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أم الكتاب؛ ومنه انتسخ القرآن والكتب. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: "اللوح من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفلـه في حجر ملك يقال لـه ماطريون، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة؛ ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء؛ يرفع وضيعا، ويضع رفيعا، ويغني فقيرا، ويفقر غنيا؛ يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء؛ لا إلـه إلا هو". وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقيل: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وهو أم الكتاب. وقال ابن عباس: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ "إني أنا الله لا إلـه إلا أنا، محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إلـها سواي". وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية ﷺ يتوعده؛ فكتب إليه ابن الحنفية: "بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ؛ يعز ويذل، ويبتلي ويفرح، ويفعل ما يريد؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها ولا تتفرغ". وقال بعض المفسرين: اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرأونه.

وقرأ ابن السميقع وأبو حيوة "قرآن مجيد" على الإضافة؛ أي قرآن رب مجيد. وقرأ نافع "في لوح محفوظ" بالرفع نعتا للقرآن؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. الباقون (بالجر) نعتا للوح. والقراء متفقون على فتح اللام من "لوح" إلا ما روي عن يحيى بن يعمر؛ فإنه قرآن "لوح" بضم اللام، أي إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال الزمخشري: واللوح الـهواء؛ يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح. وفي الصحاح: لاح الشيء يلوح لوحا أي لمح. ولاحه السفر: غيره. ولاح لوحا ولواحا: عطش، والتاح مثلـه. واللوح: الكتف، وكل عظم عريض. واللوح: الذي يكتب فيه. واللوح (بالضم): الـهواء بين السماء والأرض. والحمد لله.

سورة الطارق

مكيّة وهي سبع عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والسماء والطارق ﴾ قسمان: "السماء" قسم، و"الطارق" قسم. والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقولـه: ﴿ وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب ﴾. واختلف فيه؛ فقيل: هو زحل: الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر لـه أخبارا، الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: إنه الثريا. وعنه أيضا أنه زحل؛ وقالـه الفراء. ابن عباس: هو الجدي. وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفراء: "النجم الثاقب": نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها. ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. وحكى الفراء: ثقب الطائر: إذا ارتفع وعلا. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعدا مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نورا، ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: (هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله) فعجب أبو طالب، ونزل: "والسماء والطارق". وروي عن ابن عباس أيضا "والسماء والطارق"[1] قال: السماء وما يطرق فيها. وعن ابن عباس وعطاء: "الثاقب": الذي ترمي به الشياطين. قتادة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلا فهو طارق. قال امرؤ القيس:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضعا   فألـهيتها عـن ذي تمائـم مغيل

وقال:

ألـم ترياني كلما جئت طارقا   وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث: (نهى النبي ﷺ أن يطرق المسافر أهلـه ليلا، كي تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة)[2]. والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقاً. يقال: طرق فلان إذا جاء بليل. وقد طرق يطرق طروقا، فهو طارق. ولابن الرومي:

يـا راقد الليل مسرورا بأولـه   إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تفرحـن بليل طاب أولـه   فـرب آخـر ليل أجـج النارا

وفي الصحاح: والطارق: النجم الذي يقال لـه كوكب الصبح. ومنه قول هند:

نحـن بنات طارق   نمشي على النمارق

أي إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء. الماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقا، لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إنه قد يكون نهارا. والعرب تقول:

---

(١) ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٩)، ومسلم (١٤٦٦).

أتيتك اليوم طرقتين: أي مرتين. ومنه قولـه ﷺ: (أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن)[1]. وقال جرير في الطروق:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيـــارة فارجعي بسلام

ثم بين فقال: ﴿ وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب ﴾ والثاقب: المضيء. ومنه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ (الصافات: ١٠). يقال: ثقب يثقب ثقوبا وثقابة: إذا أضاء. وثقوبه: ضوءه. والعرب تقول: أثقب نارك؛ أي أضئها. قال:

أذاع به في الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

الثقوب: ما تشعل به النار من دقاق العيدان. وقال مجاهد: الثاقب: المتوهج. القشيري: والمعظم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العموم، كما ذكرنا عن مجاهد. ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ تفخيما لشأن هذا المقسم به. وقال سفيان: كل ما في القرآن "وما أدراك"؟ فقد أخبره به. وكل شيء قال فيه "وما يدريك": لم يخبره به.

قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾

قال قتادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك. وعنه أيضا قال: قرينه يحفظ عليه عملـه: من خير أو شر. وهذا هو جواب القسم. وقيل: الجواب "إنه على رجعه لقادر" في قول الترمذي: محمد بن علي. و"إن": مخففة من الثقيلة، و"ما": مؤكدة، أي إن كل نفس لعليها حافظ. وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر. قال الفراء: الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبي. وقال أبو أمامة: قال النبي ﷺ: (وكـل بالمؤمـن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب. ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين)[2]. وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة "لما" بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل: يقول قائلـهم: نشدتك لما قمت. الباقون بالتخفيف، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا. ونظير هذه الآية قولـه تعالى: ﴿ لـه معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (الرعد: ١١)، على ما تقدم. وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لـها لم تبق. وقيل: الحافظ عليه عقلـه، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضاره.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل: ﴿ فالله خير حافظا ﴾ (يوسف: ٦٥)، وقال: ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ (الأنبياء: ٥٢). وما كان مثلـه.

قولـه تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ أي ابن آدم ﴿ مم خلق ﴾ وجه الاتصال بما قبلـه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره. و"مم خلق"؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال: ﴿ خلق ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿من ماء دافق ﴾ أي من المني. والدفق: صب الماء، دفقت الماء أدفقه دفقا: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق، كما قالوا: سر كاتم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دفق الماء، على ما لم يسم فاعلـه. ولا يقال: دفق الماء. ويقال: دفق الله روحه: إذا دعي عليه بالموت. قال الفراء والأخفش: "من ماء دافق" أي مصبوب في الرحم، الزجاج: من ماء ذي اندفاق. يقال: دارع وفارس ونابل؛ أي ذو فرس، ودرع، ونبل. وهذا مذهب سيبويه. فالدافق هو المندفق بشدة قوته. وأراد ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكـن جعلـهما مـاء واحـدا لامتزاجهـما. وعن عكرمـة عـن ابن عبـاس: "دافـق" لـزج. ﴿ يخرج ﴾ أي هذا الماء ﴿ من بين الصلب ﴾ أي الظهر. وفيه لغات أربع: صُلْب، وصُلُب ـ وقرئ بهما ـ وصلب (بفتح اللام)، وصالب (على وزن قالب)؛ ومنه قول العباس:

تنقل من صالب إلى رحم

﴿ والترائب ﴾ أي الصدر، الواحدة: تريبة؛ وهي موضع القلادة من الصدر. قال امرؤ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضـة ترائبها مصقولة كالسجنجل

والصلب من الرجل، والترائب من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضع القلادة. وعنه: ما بين ثدييها؛ وقال عكرمة. وروي عنه: يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين؛ وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبير: هو الجيد. مجاهد: هو ما بين المنكبين والصدر. وعنه: الصدر. وعنه: التراقي. وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربع أضلاع من هذا الجانب. وحكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. وقال معمر بن أبي حبيبة المدني: الترائب عصارة القلب؛ ومنها يكون الولد. والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر. وقال دريد بن الصمة:

فإن تدبروا نأخذكم في ظهوركم وإن تقبلـوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر:

وبدت كأن ترائبا من نحرها جمر الغضى في ساعد تتوقد

وقال آخر:

والزعفران على ترائبها شرق به اللبات والنحر

وعن عكرمة: الترائب: الصدر؛ ثم أنشد:

نظام در على ترائبها

وقال ذو الرمة:

ضرجن البرود عن ترائب حرة

أي شققن. ويروى "ضرحن" بالحاء، أي ألقين. وفي الصحاح: والتريبة: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والثندوة. قال الشاعر:

أشرف ثدياها على التريب

وقال المثقب العبدي:

ومن ذهب يسن على تريب كلون العاج ليس بذي غضون

عن غير الجوهري: الثندوة للرجل: بمنزلة الثدي للمرأة. وقال الأصمعي: مغرز الثدي. وقال ابن السكيت: هي اللحم الذي حول الثدي؛ إذا ضممت أولها همزت، وإذا فتحت لم تهمز. وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب. ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدم؛ وقاله الأعمش. وقد تقدم مرفوعا في أول سورة "آل عمران". والحمد لله - وفي (الحجرات) ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ (الحجرات: ٣١) وقد تقدم. وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين. وهذا لا يعارض قوله: "من بين الصلب"؛ لأنه إن نزل من الدماغ، فإنما يمر بين الصلب والترائب. وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب. وقال الحسن: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة. ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا. وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني. وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء. وروى إسماعيل عن أهل مكة "يخرج من بين الصلُب" بضم اللام. ورويت عن عيسى الثقفي. حكاه المهدوي وقال: من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في "يخرج" للماء. ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان. وقرئ "الصلب"، بفتح الصاد واللام. وفيه أربع لغات: صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب. قال العجاج:

في صلب مثل العنان المؤدم

وفي مدح النبي ﷺ:

تنقل من صالب إلى رحم

الأبيات مشهورة معروفة. ﴿ إنه ﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿ على رجعه ﴾ أي على رد الماء في الإحليل، ﴿ لقادر ﴾ كذا قال مجاهد والضحاك. وعنهما أيضا أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب؛ وقاله عكرمة. وعن الضحاك أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر. وعنه أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر. وكذا في المهدوي. وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء

حتى لا يخرج، لقادر. وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا: إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر. وهو اختيار الطبري. الثعلبي: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ (الطارق: ٩) قال الماوردي: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: العامل في ﴿ يوم ﴾ ـ وفي قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان ـ قوله "لقادر"، ولا يعمل فيه "رجعه" لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر "إن". وعلى الأقوال الأخر التي في "إنه على رجعه لقادر"، يكون العامل في "يوم" فعل مضمر، ولا يعمل فيه "لقادر"؛ لأن المراد في الدنيا. و﴿ تبلى ﴾ أي تمتحن وتختبر؛ وقال أبو الغول الطهوي:

ولا تبلى بسالتهم وإن هـــم صلوا بالحرب حينا بعد حين

ويروى تبلى بسالتهم. فمن رواه "تبلى" ـ بضم التاء ـ جعلـه من الاختبار؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة؛ كأنه قال: لا يعرف لـهم فيها كراهة. و"تبلى" تعرف. وقال الراجز:

قد كنت قبل اليوم تزدريني فاليـوم أبلـوك وتبتلـيني

أي أعرفك وتعرفني. ومن رواه "تبلى" ـ بفتح التاء ـ فالمعنى: أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان. وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هدته وأضعفته. وقيل: "تبلى السرائر": أي تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر، وأضمره من إيمان أو كفر؛ كما قال الأحوص:

سيبقى لـها في مضمر القلب والحشا سريرة ود يـوم تبـلى السـرائر

الثانية: روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ائتمن الله تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغسل، وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة)[1]. ذكره المهدوي. وقال ابن عمر قال النبي ﷺ: (ثلاث من حافظ عليها فهو ولي الله حقا، ومن اختانهن فهو عدو الله حقا: الصلاة؛ والصوم، والغسل من الجنابة)[2] ذكره الثعلبي. وذكر الماوردي عن زيد بن أسلم: قال رسول الله ﷺ: (الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة؛ فإن شاء قال صليت ولم يصل. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة؛ فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرؤوا إن شئتم "يوم تبلى السرائر"[3])، وذكره الثعلبي عن عطاء. وقال مالك في رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: "يوم تبلى السرائر": أبلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدث به فلا. والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصل. ومن السرائر ما في القلوب؛ يجزي الله به العباد. قال ابن العربي: قال ابن

(١) ضعيف.
(٢) ضعيف. انظر ضعيف الجامع (٢٥٤٢).
(٣) ضعيف.

مسعود يغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشد ذلك الوديعة؛ تمثل لـه على هيئتها يوم أخذها؛ فيرمى بها في قعر جهنم، فيقال لـه: أخرجها، فيتبعها فيجعلـها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دهر الداهرين. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. قال أشهب: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت لم أحض وأنا حامل صدقت، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة. وفي الحديث: (غسل الجنابة من الأمانة)[1]. وقال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل سر خفي، فيكون زينا في الوجوه، وشينا في الوجوه. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

قولـه تعالى: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فما لـه ﴾ أي للإنسان ﴿ من قوة ﴾ أي منعة تمنعه. ﴿ ولا ناصر ﴾ ينصره مما نزل به. وعن عكرمة "فما لـه من قوة ولا ناصر" قال: هؤلاء الملوك، ما لـهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر. وقال سفيان: القوة: العشيرة. والناصر: الحليف. وقيل: "فما لـه من قوة" في بدنه. "ولا ناصر" من غيره يمتنع به من الله. وهو معنى قول قتادة.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أي ذات المطر. ترجع كل سنة بمطر بعد مطر. كذا قالـه عامة المفسرين. وقال أهل اللغة: الرجع: المطر، وأنشدوا للمتنخل يصف سيفا شبهه بالماء:

أبيضُ كالرجع رسوبٌ إذا مـا ثـاخ فـي محـتفل يختلي

(ثاخت قدمه في الوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه؛ قالـه الجوهري). قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، والرجع أيضا: نبات الربيع. وقيل: "ذات الرجع". أي ذات النفع. وقد يسمى المطر أيضا أوبا، كما يسمى رجعا، قال:

ربَّـاءُ شـماءُ لا يـأوي لقُلَّـــتها إلا السحابُ وإلا الأوبُ والسبلُ

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وهذا قسم. ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قسم آخر؛ أي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره ﴿ ثم شققنا الأرض شقا ﴾ (عبس: ٢٦) الآية. والصدع: بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض. وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة. وقيل: ذات الحرث، لأنه يصدعها. وقيل: ذات الأموات: لانصداعها عنهم للنشور. ﴿ إنه لقول فصل ﴾ على هذا وقع القسم. أي إن القرآن يفصل بين الحق والباطل. وقد تقدم في مقدمة

---

(١) ضعيف.

الكتاب ما رواه الحارث عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتاب فيه خبر ما قبلكم وحكم ما بعدكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله)[1]. وقيل: المراد بالقول الفصل: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: "إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر". ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي ليس القرآن بالباطل واللعب. والهزل: ضد الجد، وقد هزل يهزل. قال الكميت:

يُجَد بنا في كل يوم ونهزل

﴿ إنهم ﴾ أي إن أعداء الله ﴿ يكيدون كيدا ﴾ أي يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرا. ﴿ وأكيد كيدا ﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم. وقيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر. وقيل: كيد الله: استدراجهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أول "البقرة"، عند قوله تعالى: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ (البقرة: ١٥). مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أخرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارض بما يدبره في أمورهم. ثم نسخت بآية السيف ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥). ﴿ أمهلهم ﴾ تأكيد. ومهل وأمهل: بمعنى؛ مثل نزل وأنزل. وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلا، والاسم: المهلة. والاستمهال: الاستنظار. وتمهل في أمره أي اتأد. واتمهل اتمهلالا: أي اعتدل وانتصب. والاتمهلال أيضا: سكون وفتور. ويقال: مهلا يا فلان؛ أي رفقا وسكونا. ﴿ رويدا ﴾ أي قريبا؛ عن ابن عباس. قتادة: قليلا. والتقدير: أمهلهم إمهالا قليلا. والرويد في كلام العرب: تصغير رود. وكذا قاله أبو عبيد. وأنشد:

كأنها ثمل يمشي على رود

أي على مهل. وتفسير "رويدا": مهلا، وتفسير رويدك: أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعل دون غيره، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين، فنصب نصب المصادر، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أرود يرود. وله أربعة أوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك: رويد عمرا؛ أي أرود عمرا، بمعنى أمهله. والصفة نحو قولك: ساروا سيرا رويدا. والحال نحو قولك: سار القوم رويدا؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالا لها. والمصدر نحو قولك: رويد عمرو بالإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿ فضرب الرقاب ﴾ (محمد: ٤). قال جميعه الجوهري. والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتا للمصدر؛ أي إمهالا رويدا. ويجوز أن يكون للحال؛ أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب. ختمت السورة.

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي عن علي وأوله: "إنها ستكون فتنة..." وانظر ضعيف الجامع (٢٠٨١).

سورة الأعلى

مكيّة في قول الجمهور. وقال الضحاك: مدنية. وهي تسع عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ "سبح اسم ربك الأعلى" أن يقول عقبه: سبحان ربي الأعلى؛ قالـه النبي ﷺ، وقالـه جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: (إن لله تعالى ملكا يقال لـه حزقيائيل، لـه ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر لـه خاطر هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان لـه ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام. ثم أوحى الله إليه: أيها الملك، أن طر، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله لـه في الأجنحة والقوة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضا؛ فأوحى الله إليه أيها الملك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي. فقال الملك: سبحان ربي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: "سبح اسم ربك الأعلى". فقال النبي ﷺ: (اجعلوها في سجودكم)[1]. ذكره الثعلبي في (كتاب العرائس) لـه. وقال ابن عباس والسدي: معنى "سبح اسم ربك الأعلى" أي عظم ربك الأعلى. والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى؛ كما قال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون. وذكر الطبري أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمي به أحدا سواه. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسمى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل على اسم الله؛ فإن اسم الله هو الأعلى. وروى أبو صالح عن ابن عباس: صلّ بأمر ربك الأعلى. قال: وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى. وروي عن علي ﷺ، وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود ﷺ: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربي الأعلى؛ امتثالا لأمره في ابتدائها. فيختار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن؛ كما قالـه بعض أهل الزيغ. وقيل: إنها في قراءة أبيّ: "سبحان ربي الأعلى". وكان ابن عمر يقرؤها كذلك. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: (سبحان ربي الأعلى).

قال أبو بكر الأنباري: حدثني محمد بن شهريار، قال: حدثنا حسين بن الأسود، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حماد قال: حدثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ علي بن أبي طالب ﷺ في الصلاة "سبح اسم ربك الأعلى"، ثم قال: سبحان ربي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل لـه: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أمرنا بشيء

---

(١) موضوع.

فقلته، وعن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت "سبح اسم ربك الأعلى" قال رسول الله ﷺ: (اجعلوها في سجودكم)[١]. وهذا كلـه يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربك الأعلى. وقيل: إن أول من قال (سبحان ربي الأعلى) ميكائيل عليه السلام. وقال النبي ﷺ لجبريل: (يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته). فقال: (يا محمد، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولـها في سجوده أو في غير سجوده، إلا كانت لـه في ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيا، ويقول الله تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت لـه، وأدخلته الجنة. فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حملـه على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يا رب شفعني فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة)[٢]. وقال الحسن: "سبح اسم ربك الأعلى" أي صل لربك الأعلى. وقيل: أي صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قبح الإلـه وجوه تغلب كلما سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ قد تقدم معنى التسوية في "الانفطار" وغيرها. أي سوى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبيج. وقال الزجاج: أي عدل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوي في أرحام الأمهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف. ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ قرأ علي رضي الله عنه والسلمي والكسائي "قدر" مخففة الدال، وشدد الباقون. وهما بمعنى واحد. أي قدر ووفق لكل شكل شكله. ﴿ فهدى ﴾ أي أرشد. قال مجاهد: قدر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا. وروي عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قولـه "فهدى" قالوا: عَرّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى؛ كما قال في (طه): ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طه: ٥٠) أي الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها لـه. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقيل "قدر فهدى": قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به. يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت، وقد ألـهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها؛ فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولـها وعلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩).

(٢) موضوع.

عماها، حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى. وهدايات الإنسان إلى ما لا يحد من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلـهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع، وشوط بطين، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى. وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم. وقال الفراء: أي قدر، فهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقولـه تعالى: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: ٨١). ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقولـه تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ (الشورى: ٥٢). أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان. وقيل: "فهدى" أي دلـهم بأفعالـه على توحيده، وكونه عالما قادرا. ولا خلاف أن من شدد الدال من "قدر" أنه من التقدير؛ كقولـه تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ (الفرقان: ٢). ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتمل أن يكون من القدرة والملك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوى وقدر فهدى. هو تفسير العلو الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قولـه تعالى: ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي النبات والكلأ الأخضر. قال الشاعر:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

﴿ فجعلـه غثاء أحوى ﴾ الغثاء: ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش. وكذلك الغثاء (بالتشديد). والجمع: الأغثاء، قتادة: الغثاء: الشيء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس: غثاء وهشيم. وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غثاء؛ كما قال:

كـأن طمـية المـجيمر غــدوة من السيل والأغثاء فلكة مغزل

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجَفَأ. وكذلك الماء: إذا علاه من الزبد والقماش ما لا ينتفع به. والأحوى: الأسود؛ أي أن النبات يضرب إلى الحوة من شدة الخضرة كالأسود. والحوة: السواد؛ قال الأعشى:

لمياء في شفتيها حوة لعــــس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

وفي الصحاح: والحوة: سمرة الشفة. يقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وقد حويت. وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفوة. وتصغير أحوى أحيو؛ في لغة من قال أسيود. ثم قيل: يجوز أن يكون "أحوى" حالا من "المرعى"، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعلـه غثاء. يقال: قد حوي النبت؛ حكاه الكسائي، وقال:

وغيث من الوسميّ حُوٌّ تلاعه تبطـنته بشـيظم صــــلتان

ويجوز أن يكون "أحوى" صفة لـ "غثاء". والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. وقال أبو عبيدة: فجعلـه أسود من احتراقه وقدمه؛ والرطب إذا يبس اسودّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى

أخضر، ثم لما يبس اسود من احتراقه، فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

قولـه تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

قولـه تعالى: ﴿ سنقرئك ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿ فلا تنسى ﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك. وهذه بشرى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كفيتكه. قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولـها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت: "سنقرئك فلا تنسى" بعد ذلك شيئا، فقد كفيتكه.

قولـه تعالى: ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ ووجه الاستثناء على هذا ما قالـه الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئا؛ كقولـه تعالى: ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ (هود: ١٠٨). ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألا يمنعه شيئا. فعلى هذا مجاري الإيمان؛ يستثنى فيها ونية الحالف التمام. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، "إلا ما شاء الله". وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا؛ "إلا ما شاء الله". وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ولكنه لم ينسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا. وقد روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نسخت، فسألـه فقال: (إني نسيتها). وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل. النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة. قال الفرغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهل البسط من العلوم، وكان يغشاه ابن كيسان النحوي، وكان رجلا جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: "سنقرئك فلا تنسى"؟ فأجابه مسرعا ـ كأنه تقدم لـه السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تنسى العمل به. فقال ابن كيسان: لا يفضض الله فاك! مثلك من يصدر عن رأيه. وقولـه "فلا": للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء لأن رؤوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما. وأيضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزالـه. وقيل: المعنى فجعلـه غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن ينال بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قولـه تعالى: ﴿ إنه يعلم الجهر﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿ وما يخفى ﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. "وما يخفى" هو ما نسخ من صدرك. ﴿ ونيسرك ﴾: معطوف على "سنقرئك" وقولـه: "إنه يعلم الجهر وما يخفى" اعتراض. ومعنى ﴿ لليسرى ﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيرا. ابن مسعود: "لليسرى" أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

قولـه تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فذكر ﴾ أي فعظ قومك يا محمد بالقرآن. ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ أي الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي. وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: ٨١). وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم. وقيل: إن "إنْ" بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون "إن" بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شجرة. وذكر بعض أهل العربية: "أن" "إنْ" بمعنى إذ؛ أي إذ نفعت؛ كقولـه تعالى: ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران: ١٣٩) أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

قولـه تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

أي من يتقي الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم. الماوردي: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء. وقيل: أي عمم أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القشيري.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويتجنبها ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها. ﴿ الأشقى ﴾ أي الشقي في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قالـه الفراء. وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا؛ وقالـه يحيى بن سلام. ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لـها طعم

وقد مضى في "النساء" وغيرها حديث أبي سعيد الخدري، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم - وهي النار الصغرى على قول الفراء - احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يشفع فيهم. خرجه مسلم. وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، هذا الوعيد للأشقى، وإن كان ثم شقي لا يبلغ هذه المرتبة.

قولـه تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ قد أفلح ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تطهر من الشرك بإيمان؛ قالـه ابن عباس وعطاء وعكرمة. وقال الحسن والربيع: من كان عملـه زاكيا ناميا. وقال معمر عن قتادة: "تزكى" قال بعمل صالح. وعنه وعن عطاء وأبي العالية: نزلت في صدقة الفطر. وعن ابن سيرين "قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى" قال: خرج فصلى بعدما أدى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿ قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى ﴾. وروي عن أبي سعيد الخدري وابن عمر: أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سقاية الماء. وروى كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ في قولـه تعالى: "قد أفلح من تزكى" قال: (أخرج زكاة الفطر)، "وذكر اسم ربه فصلى" قال: (صلاة العيد)[١]. وقال ابن عباس والضحاك: "وذكر اسم ربه" في طريق المصلى "فصلى" صلاة العيد. وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلـها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء. وروى ابن جريج قال: قلت لعطاء: "قد أفلح من تزكى" للفطر؟ قال: هي للصدقات كلـها. وقيل: هي زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال، أي تطهر في أعمالـه من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال في المال: زكى، لا تزكى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: ("قد أفلح من تزكى" أي من شهد أن لا إلـه إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله)[٢]. وعن ابن عباس "تزكى" قال: لا إلـه إلا الله. وروى عنه عطاء قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال: كان بالمدينة منافق كانت لـه نخلة بالمدينة، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البسر والرطب إلى دار الأنصاري، فيأكل هو وعيالـه، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: (إن أخاك الأنصاري ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعيالـه، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلـها)؟ فقال: أبيع عاجلا بآجل لا أفعل. فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت "قد أفلح من تزكى". ونزلت في المنافق "ويتجنبها الأشقى"[٣]. وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الثانية: وقد ذكرنا القول في زكاة الفطر في السورة "البقرة" مستوفى. وقد تقدم أن هذه السورة مكية؛ في قول الجمهور، ولـم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر. القشيري: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

---

(١) ضعيف.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٠١) وعزاه إلى البزار، وسنده ضعيف.

(٣) ضعيف.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي ذكر ربه. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه، فعبده وصلى لـه. وقيل: ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قولـه: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها. وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل. وهذه مسألة خلافية بين الفقهاء. وقد مضى القول في هذا في أول سورة "البقرة". وقيل: هي تكبيرات العيد. قال الضحاك: "وذكر اسم ربه" في طريق المصلى "فصلى"؛ أي صلاة العيد. وقيل: "وذكر اسم ربه" وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لـها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه. وقيل: هو أن يفتتح أول كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم. "فصلى" أي فصلى وذكر. ولا فرق بين أن تقول: أكرمتني فزرتني، وبين أن تقول: زرتني فأكرمتني. قال ابن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس. وقيل: الدعاء؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخدري وابن عمر وغيرهما. وقد تقدم. وقيل: هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص، وهو مقتضى قول عطاء. وروي عن عبد الله قال: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة لـه.

قولـه تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾

قراءة العامة "بل تؤثرون" بالتاء؛ تصديقه قراءة أبيّ "بل أنتم تؤثرون". وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم "بل يؤثرون" بالياء على الغيبة؛ تقديره: بل يؤثرون الأشقون الحياة الدنيا. وعلى الأول فيكون تأويلـها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا، للاستكثار من الثواب. وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها، والآخرة غيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل. وروى ثابت عن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فريا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة. ثم قال: يا أنس، ما ثَبَّر الناس! ما بطأ بهم؟ قلت الدنيا والشيطان والشهوات. قال: لا، ولكن عجلت الدنيا، وغيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عدلوا ولا ميلوا[(١)].

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾

أي والدار الآخرة؛ أي الجنة. ﴿ خير ﴾ أي أفضل. ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم من الدنيا. وقال النبي ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)[(٢)] صحيح. وقد تقدم. وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى، على ذهب يفنى. قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى.

---

(١) الأثر أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) صحيح، انظر صحيح الجامع (٥٥٤٧).

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ قال قتادة وابن زيد: يريد قولـه "والآخرة خير وأبقى". وقالا: تتابعت كتب الله جل ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا. وقال الحسن: "إن هذا لفي الصحف الأولى" قال: كتب الله جل ثناؤه كلـها. الكلبي: "إن هذا لفي الصحف الأولى" من قولـه: "قد أفلح" إلى آخر السورة؛ لحديث أبي ذر على ما يأتي. وروى عكرمة عن ابن عباس: "إن هذا لفي الصحف الأولى" قال: هذه السورة. وقال الضحاك: إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى. ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما. ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وروى الآجري من حديث أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: (كانت أمثالا كلـها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم. فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون لـه ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد، ومرمة لمعاش، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه. ومن عد كلامه من عملـه قل كلامه إلا فيما يعنيه). قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: (كانت عبرا كلـها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلـها كيف يطمئن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل)!. قال: قلت يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: (نعم اقرأ يا أبا ذر: "قد أفلح من تزكى* وذكر اسم ربه فصلى* بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى* إن هذا لفي الصحف الأولى* صحف إبراهيم وموسى)[١]. وذكر الحديث.

---

(١) أخرجه بطوله أبو نعيم في "الحلية"، (١/ ١٦٦ ـ ١٦٨) وسنده ضعيف.

سورة الغاشية

وهى مكية في قول الجميع، وهي ست وعشرون آية.

قولـه تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ ﴾

"هل" بمعنى قد؛ كقولـه: ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ (الإنسان: ١)؛ قالـه قطرب. أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالـها وأفزاعها؛ قالـه أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب: "الغاشية": النار تغشى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح عن ابن عباس؛ ودليلـه قولـه تعالى: ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ (إبراهيم: ٥٠). وقيل: تغشى الخلق. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق. وقيل: "الغاشية" أهل النار يغشونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى "هل أتاك" أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا. وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسولـه؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي.

قولـه تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ ﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿ وجوه يومئذ ﴾ أي يوم القيامـة. ﴿ خاشعة ﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. وخشع الصوت: خفي؛ قال الله تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ (طه: ١٠٨). والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتادة وابن زيد: "خاشعة" أي في النار. والمراد وجوه الكفار كلـهم؛ قالـه يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قالـه ابن عباس. ثم قال: ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا "خاشعة" في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملا. ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملا. وذا سحاب عمل. قال الـهذلي:

حتى شأآها كليل موهنا عـــمل   باتت طرابا وبات الليل لم ينم

﴿ ناصبة ﴾ أي تعبة. يقال: نصب (بالكسر) ينصب نصباً: إذا تعب، ونصبا أيضا، وأنصبه غيره. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا لـه.

وقال سعيد عن قتادة: "عاملة ناصبة" قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم

كان مقداره خمسين ألف سنة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب لـه، فأعملـها وأنصبها في جهنم. وقال الكلبي: يجرون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في حدور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس. وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل. عن ابن كثير "ناصبة" بالنصب على الحال. وقيل: على الذم. الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على "خاشعة". ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبرا بعد خبر عن "وجوه"، فلا يوقف على "خاشعة". وقيل: "عاملة ناصبة" أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة. وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة. قال عكرمة والسدي: عملت في الدنيا بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرهبان أصحاب الصوامع؛ وقالـه ابن عباس. وقد تقدم في رواية الضحاك عنه. وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال لـه: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، ـ وقرأ قول الله عز وجل ـ "وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة". قال الكسائي: التقهل: رثاثة الـهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيئ الحال، مثل المتقحل. وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة. وأنشد:

لعواً إذا لاقيته تقهلا

والقهل: كفران الإحسان. وقد قهل يقهل قهلا: إذا أثنى ثناء قبيحا. وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه. وانقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري. وعن علي رضي الله عنه أنهم أهل حروراء؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالـهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة. . .)[1] الحديث.

قولـه تعالى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ تصلى ﴾ أي يصيبها صلاؤها وحرها. ﴿ حامية ﴾ شديدة الحر؛ أي قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة. ومنه حمي النهار (بالكسر)، وحمي التنور حميا فيهما؛ أي اشتد حره. وحكى الكسائي: اشتد حمي الشمس وحموها: بمعنى. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب "تُصلى" بضم التاء. الباقون بفتحها. وقرئ "تُصلّى" بالتشديد. وقد تقدم القول فيها في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (الانشقاق: ١). الماوردي: فإن قيل فما معنى وصفها بالحمي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالـها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه: أحدها: أن المراد بذلك أنها دائمة الحمي، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها. الثاني: أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبي ﷺ: (إن

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٦٠٤).

لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه. ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[١]. الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مماستها؛ كما يحمي الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الحامي

الرابع: أنها حامية حمى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدة الانتقام. ولم يرد حمى جرم وذات؛ كما يقال: قد حمي فلان: إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بيّن الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ (الملك: ٨).

قوله تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ ﴾

الآني: الذي قد انتهى حره؛ من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه (آنيت وآذيت). وآناه يؤنيه إيناء، أي أخره وحبسه وأبطأه. ومنه ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ (الرحمن: ٤٤). وفي التفاسير "من عين آنية" أي تناهى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت. وقال الحسن: "آنية" أي حرها أدرك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها وردا عطاشا. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها.

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليس لهم ﴾ أي لأهل النار. ﴿ طعام إلا من ضريع ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضريع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامة المفسرين. إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شيء يرمي به البحر، يسمى الضريع، من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلا. والصحيح ما قاله الجمهور: أنه نبت. قال أبو ذؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعا بان منه النحائص

وقال الهذلي وذكر إبلا وسوء مرعاها:

وحبسن في هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين حرود

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر منتن الريح، يرمي به البحر. وقال الوالبي عن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وقال سعيد بن جبير: هو الحجارة، وقاله عكرمة. والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعا)[٢]. وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية "ليس لهم طعام إلا من ضريع" قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حملها القيح والدم، أشد مرارة من الصبر، فذلك طعامهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) ضعيف.

وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلبا للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن آكله يضرع في أن يعفى منه، لكراهته وخشونته. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقا من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شربه ذليل تلحقه ضراعة. وعن الحسن أيضا: هو الزقوم. وقيل: هو واد في جهنم. فالله أعلم. وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم. ولا طعام إلا من غسلين ﴾ (الحاقة: ٣٥ ـ ٣٦). وقال هنا: "إلا من ضريع" وهو غير الغسلين. ووجه الجمع أن النار دركات؛ فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد. قال الكلبي: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى. ويجوز أن تحمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ (الرحمن: ٤٤). القتبي: ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار. وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار. قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا؛ فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة. وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها. القشيري: وأمثل من قول القتبي أن نقول: إن الذي يبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب، يبقي النبات وشجرة الزقوم في النار، ليعذب بها الكفار. وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا ينبت في النار، ولا أنهم يأكلونه. فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس. وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلا، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلا، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع. قال الترمذي الحكيم: وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا، فلا النار تحرق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفئ النار؛ فقال تعالى: ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (يس: ٨٠). وكما قيل حين نزلت ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ (الإسراء: ٩٧): قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: (الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم)[١]. فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب. أو ليس قد أخبرنا أنه ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ (النساء: ٥٦)، وقال: ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ (إبراهيم: ٥٠)، وقال: ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ (المزمل: ١٢) أي قيودا. ﴿ وجحيما وطعاما ذا غصة ﴾ (المزمل: ١٢، ١٣) قيل: ذا شوك. فإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾

يعني الضريع لا يسمن آكله. وكيف يسمن من يأكل الشوك! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت: "لا يسمن ولا يغني من جوع". وكذبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رطبا، فإذا يبس لم تأكله. وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة. فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦٠).

قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي ذات نعمة. وهي وجوه المؤمنين؛ نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح. ﴿ لسعيها ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا. ﴿راضية ﴾ في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها. ومجازه: لثواب سعيها راضية. وفيها واو مضمرة. المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. والوجوه عبارة عن الأنفس. ﴿ في جنة عالية ﴾ أي مرتفعة، لأنها فوق السموات حسب ما تقدم. وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١)﴾

قوله تعالى: ﴿ لاغية ﴾ أي كلاما ساقطا غير مرضي. وقال: "لاغية"، واللغو واللغا واللاغية: بمعنى واحد. قال:

عن اللَّغا ورَفَث التَّكلم

وقال الفراء والأخفش أي لا تسمع فيها كلمة لغو. وفي المراد بها ستة أوجه: أحدها: يعني كذبا وبهتانا وكفرا بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثاني: لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع: المعصية؛ قاله الحسن. الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفراء. وقال الكلبي: لا يسمع في الجنة حالف بيمين برة ولا فاجرة. السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفراء أيضا. وهو أحسنها لأنه يعم ما ذكر. وقرأ أبو عمرو وابن كثير "لا يسمع" بياء غير مسمى الفاعل. وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه. ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة "لاغية" نصا على إسناد ذلك للوجوه، أي لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

قوله تعالى: ﴿ فيها عين جارية ﴾ أي بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود. وقد تقدم في سورة "الإنسان" أن فيها عيونا. فـ "عين": بمعنى عيون. والله أعلم. ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية. وروي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله. ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ أي أباريق وأوان. والإبريق: هو ما له عروة وخرطوم. والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم. وقد تقدم هذا في سورة "الزخرف" وغيرها. "ونمارق" أي وسائد، الواحدة نمرقة. ﴿ مصفوفة ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى. قال الشاعر:

وإنا لنجري الكأس بين شروبنا وبين أبي قابوسَ فوق النمارق

وقال آخر:

كهول وشبان حسان وجوهم على سـرر مصفوفة ونمارق

وفي الصحاح: النُّمرق والنمرقة: وسادة صغيرة. وكذلك النِّمرقة (بالكسر) لغة حكاها يعقوب. وربما سموا الطنفسة التي فوق الرحل نمرقة؛ عن أبي عبيد. ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ قال أبو عبيدة: الزرابي: البسط. وقال ابن عباس: الزرابي: الطنافس التي لها خمل رقيق، واحدتها: زربية؛ وقال الكلبي والفراء. والمبثوثة: المبسوطة؛ قال قتادة. وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة. وقيل كثيرة؛ قاله الفراء. وقيل: متفرقة في المجالس؛ قاله القتبي.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة. ومنه ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ (البقرة: ١٦٤). وقال أبو بكر الأنباري: وحدثنا أحمد بن الحسين، قال حدثنا حسين بن عرفة، قال حدثنا عمار بن محمد، قال: صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: "هل أتاك حديث الغاشية"، وقرأ فيها: "وزرابي مبثوثة": متكئين فيها ناعمين.

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين، تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا؛ فذكرهم الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض. ثم ذكر الإبل أولا، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه؛ قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم. وقيل: لما ذكر السرر المرفوعة قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تبرك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع. قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما. وقيل: الإبل هنا القطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرد. قال الثعلبي: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يبرك فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم. ومن قرأها بالتثقيل فقال: "الإبل"، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر. وقال الماوردي: وفي الإبل وجهان: أحدهما: وهو أظهرهما وأشهرهما: أنها الإبل من النعم. الثاني: أنها السحاب. فإن كان المراد بها السحاب، فلما فيها من

الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها الإبل من النعم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة. والإبل تجمع هذه الخلال الأربع؛ فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم. وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النوى والقتّ، وتخرج اللبن. وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره. وكان شريح يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت. والإبل: لا واحد لـها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لـها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لـها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الـهاء، فقلت: أبيلة وغنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ أي رفعت عن الأرض بلا عمد. وقيل: رفعت، فلا ينالـها شيء. ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أي كيف نصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دحيت مادت، فأرساها بالجبال. كما قال: ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ (الأنبياء: ٣١). ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت ومدت. وقال أنس: صليت خلف علي ﷺ، فقرأ "كيف خلقت" و"رفعت" و"نصبت" و"سطحت"، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السميقع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتها. وكذلك سائرها. وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو رجاء: "سطّحت" بتشديد الطاء وإسكان التاء. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا الطاء. وقدم الإبل في الذكر، ولو قدم غيرها لجاز. قال القشيري: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرف الناس بها. وأيضا: مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخر؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العلف، وكثرة الحمل، وهي معظم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومن هذا حالـه تفكر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأمروا بالنظر في هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

قولـه تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فذكر ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم. ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ أي واعظ. ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ أي بمسلط عليهم فتقتلـهم. ثم نسختها آية السيف. وقرأ هارون الأعور "بمسيطَر" (بفتح الطاء)، و﴿ المسيطَرون ﴾ (الطور: ٣٧). وهي لغة تميم. وفي الصحاح: "المسيطر والمصيطر:

المسلّط على الشيء، ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر، لأن من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: "لست عليهم بمسيطر". وسطره أي صرعه. ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير. ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهي جهنم الدائم عذابها. وإنما قال: "الأكبر" لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل. ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود: "إلا من تولى وكفر فإنه يعذبه الله". وقيل: هو استثناء متصل. والمعنى: لست بمسلط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير. وروي أن عليا أتى برجل ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ "إلا من تولى وكفر". وقرأ ابن عباس وقتادة "ألا" على الاستفتاح والتنبيه، كقول امرئ القيس:

ألا رب يوم لك منهن صالح

و "من" على هذا: للشرط. والجواب "فيعذبه الله" والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: إلا من تولى وكفر يعذبه الله. ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي رجوعهم بعد الموت. يقال: آب يؤوب؛ أي رجع. قال عبيد:

وكل ذي غيبة يؤوب   وغائب الموت لا يؤوب

وقرأ أبو جعفر "إيابهم" بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمخشري: وقرأ أبو جعفر المدني "إيابهم" بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فيعالا: مصدر أيب، قيل من الإياب. أو أن يكون أصله إوابا فعالا من أوب، ثم قيل: إيوابا كديوان في دوان. ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه.

سورة الفجر

مكية، وهي ثلاثون آية.

قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿ والفجر ﴾ أقسم بالفجر. ﴿ وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر ﴾ أقسام خمسة. واختلف في "الفجر"، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علي وابن الزبير وابن عباس ﷺ. وعن ابن عباس أيضا أنه النهار كله، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله. وقال ابن محيصن عن عطية عن ابن عباس: يعني الفجر يوم المحرم. ومثله قال قتادة. قال: هو فجر أول يوم من المحرم، منه تنفجر السنة. وعنه أيضا: صلاة الصبح. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: "والفجر": يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله؛ إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد. وقال عكرمة: "والفجر" قال: انشقاق الفجر من يوم جمع. وعن محمد بن كعب القرظي: "والفجر" آخر أيام العشر، إذا دفعت من جمع. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: "وليال عشر" أي ليال عشر من ذي الحجة. وكذا قال مجاهد والسدي والكلبي في قوله: "وليال عشر" هو عشر ذي الحجة، وقال ابن عباس. وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وهي أفضل أيام السنة. وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (والفجر وليال عشر) ـ قال: (عشر الأضحى) فهي ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة. وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها، فلو عرفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضا: هي العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضا ويمان والطبري: هي العشر الأول من المحرم، التي عاشرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس "وليال عشر" بالإضافة يريد: وليالي أيام عشر.

قوله تعالى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختلف في ذلك؛ فروي مرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال (الشفع والوتر: الصلاة، منها شفع، ومنها وتر)[1]. وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: ("والفجر وليال عشر" ـ قال: هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع:

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في "التفسير"، (٣٣٤٢) وسنده ضعيف.

يوم النحر). وهو قول ابن عباس وعكرمة. واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ﷺ، وهو أصح إسنادا من حديث عمران بن حصين. فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها. وعن أبي أيوب قال: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ والشفع والوتر ﴾ فقال: (الشفع: يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر). وقال مجاهد وابن عباس أيضا: الشفع خَلْقُهُ، قال الله تعالى: ﴿ وخلقناكم أزواجا﴾ (النبأ: ٨) والوتر هو الله عز وجل. فقيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ. ونحوه قال محمد ابن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق، قال الله تعالى: ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ (الذاريات: ٤٩): الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجن والإنس. والوتر: هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد ﴾ (الإخلاص: ٢). وقال النبي ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسما، والله وتر يحب الوتر)[1]. وعن ابن عباس أيضا: الشفع: صلاة الصبح، والوتر: صلاة المغرب. وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة. وقال ابن الزبير: الشفع: يوما منى: الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى: 'فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه'. وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة. وهو قول عطاء. وقيل: إن الشفع والوتر: آدم وحواء؛ لأن آدم كان فردا فشفع بزوجته حواء، فصار شفعا بعد وتر. رواه ابن أبي نجيح، وحكاه القشيري عن ابن عباس. وفي رواية: الشفع: آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. وقيل: الشفع والوتر: الخلق؛ لأنهم شفع ووتر، فكأنه أقسم بالخلق.

وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ (الليل: ٣). ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه؛ كما قال: ﴿ والشمس وضحاها ﴾، ﴿ والسماء وما بناها ﴾ (الشمس: ٥)، ﴿ والسماء والطارق ﴾ (الطارق: ١). وقيل: الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان. والوتر، دركات النار؛ لأنها سبعة. وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة. وقال مقاتل بن حيان: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضا؛ لقوله تعالى: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ (المجادلة: ٧). وقال أبو بكر الوراق: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين: العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والخرس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمى، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وازاها. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

وقيل: الشفع: مسجدي مكة والمدينة، وهما الحرمان. والوتر: مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع: القرن بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفراد فيه. وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثى. والوتر: الجماد. وقيل: الشفع: ما ينمي، والوتر: ما لا ينمي. وقيل غير هذا. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي وحمزة وخلف "والوتر" بكسر الواو. والباقون (بفتح الواو)، وهما لغتان بمعنى واحد. وفي الصحاح: الوتر بالكسر: الفرد، والوتر (بفتح الواو): الذحل. هذه لغة أهل العالية. فأما لغة أهل الحجاز فبالضد منهم. فأما تميم فبالكسر فيهما.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وهذا قسم خامس. وبعدما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى "يسري" أي يسرى فيه؛ كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم. قال:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطيِّ بنائم

ومنه قولـه تعالى: ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ (سبأ: ٣٣). وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القتبي والأخفش. وقال أكثر المفسرين: معنى "يسري": سار فذهب. وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل. وروي عن إبراهيم: "والليل إذا يسر" قال: إذا استوى. وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد ابن كعب في قولـه: "والليل": هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله. وقيل: ليلة القدر؛ لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها. وقيل: إنه أراد عموم الليل كله.

قلت: وهو الأظهر، كما تقدم. والله أعلم. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب "يسري" بإثبات الياء في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي. قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف، اتباعا للمصحف. ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعا؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عبيد، اتباعا للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقا لرؤوس الآي. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلـها. وأنشد بعضهم:

كفـاك كـفٌ مـا تليــق درهـــما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

يقال: فلان ما يليق درهما من جوده؛ أي ما يمسكه، ولا يلصق به. وقال المؤرج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من "يسر" فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة؛ فقال: الليل لا يَسْري وإنما يَسْرَى فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه؛ ألا ترى إلى قولـه تعالى: ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ (مريم: ٢٨)، لم يقل بغية، لأنه صرفها عن باغية. الزمخشري: وياء "يسري" تحذف في الدرج، اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف

فتحذف مع الكسرة. وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، وهو ليعذبن؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ (الفجر: ١٣). وقال ابن الأنباري هو ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ (الفجر: ١٤). وقال مقاتل: "هل" هنا في موضع إن؛ تقديره: إن في ذلك قسما لذي حجر. فـ"هل" على هذا، في موضع جواب القسم. وقيل: هي على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير؛ كقولك: ألم أنعم عليك؛ إذا كنت قد أنعمت. وقيل: المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه. والمعنى": بل في ذلك مقنع لذي حجر. والجواب على هذا: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ (الفجر: ١٤). أو مضمر محذوف.

قوله تعالى: ﴿ لذي حجر ﴾ أي لذي لب وعقل. قال الشاعر:

وكيف يرجى أن تتوب وإنما يرجى من الفتيان من كان ذا حجر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال: "لذي حجر": لذي ستر من الناس. وقال الحسن: لذي حلم. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجر، ولذي عقل، ولذي حلم، ولذي ستر؛ الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر: المنع. يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر؛ ومنه سمي الحجر، لامتناعه بصلابته: ومنه حجر الحاكم على فلان، أي منعه وضبطه عن التصرف؛ ولذلك سميت الحجرة حجرة، لامتناع ما فيها بها. وقال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر: إذا كان قاهرا لنفسه، ضابطا لها؛ كأنه أخذ من حجرت على الرجل.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ أي مالكك وخالقك. ﴿ بعاد إرم ﴾ قراءة العامة "بعاد" منونا. وقرأ الحسن وأبو العالية "بعاد إرم" مضافا. فمن لم يضف جعل "إرم" اسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادا اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة؛ وجعله بدلا منه، أو عطف بيان. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم. وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢) ولم تنصرف ـ قبيلة كانت أو أرضا ـ للتعريف والتأنيث. وقراءة العامة "إرم" بكسر الهمزة. وعن الحسن أيضاً "بعادَ إرَمَ" مفتوحتين، وقرئ "بعاد أرْمَ" بسكون الراء على التخفيف؛ كما قرئ "بورقكم". وقرئ "بعاد إرَم ذات العماد" بإضافة "إرمَ" ـ إلى ـ "ذات العماد". والإرم: العلم. أي بعادَ أهل ذات العلم. وقُرئ "بعاد إرمّ ذات العماد" أي جعل الله ذات العماد رميما. وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة "أرَمَ" بفتح الهمزة. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدها: أرم. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمرصاد ألم تر. أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد. وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد عام. وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا؛ إذ كانوا في بلاد العرب، وحجر ثمود موجود اليوم. وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب. وقد تقدم هذا المعنى في سورة "البروج" وغيرها "بعاد" أي بقوم عاد. فروى شهر بن

حوشب عن أبي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها.

و"إرم" قيل هو سام بن نوح؛ قاله ابن إسحاق. وروى عطاء عن ابن عباس ـ وحكى عن ابن إسحاق أيضا ـ قال: عاد بن إرم. فإرم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وعلى القول الأول: هو اسم جد عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأرفخشذ بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وقال مجاهد: "إرم" أمة من الأمم. وعنه أيضا: أن معنى إرم: القديمة، ورواه ابن أبي نجيح. وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية. وقال قتادة: هي قبيلة من عاد. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرم؛ قال الله عز وجل: ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ (النجم: ٥٠). فقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد؛ كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم: تسمية لهم باسم جدهم. ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. قال ابن الرقيات:

مجدا تليدا بناه أولهم أدرك عادا وقبله إرما

وقال معمر: "إرم": إليه مجمع عاد وثمود. وكان يقال: عاد إرم، وعاد ثمود. وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. ﴿ ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه. وروي عن ابن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا. ابن العربي: وهو باطل؛ لأن في الصحيح: (إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن)[1]. وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا. قال أبو عبيدة: "ذات العماد" ذات الطول. يقال: رجل معمد إذا كان طويلا. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد. وعن قتادة أيضا: كانوا عمادا لقومهم؛ يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي سيدهم. وعنه أيضا: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم. وقيل: "ذات العماد" أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: "ذات العماد" يعني إحكام البنيان بالعمد. وفي الصحاح: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث. قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحي خرت على الأحفاض نمنع من يلينا

والواحدة عمادة. وفلان طويل العماد: إذا كان منزله معلما لزائره. والأحفاض: جمع حفض ـ بالتحريك ـ وهو متاع البيت إذا هيئ ليحمل؛ أي خرت على المتاع. ويروى؛ عن الأحفاض أي خرت عن الإبل التي تحمل خرثي البيت. وقال الضحاك: "ذات العماد" ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ (فصلت: ١٥). وروى عوف عن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

خالد الربعي "إرم ذات العماد" قال: هي دمشق. وهو قول عكرمة وسعيد المقبري. رواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية.

قولـه تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ التي لم يخلق مثلـها في البلاد ﴾ الضمير في "مثلـها" يرجع إلى القبيلة. أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة؛ عن الحسن وغيره. وفي حرف عبد الله "التي لم يخلق مثلـهم في البلاد". وقيل: يرجع للمدينة. والأول أظهر، وعليه الأكثر، حسب ما ذكرناه. ومن جعل "إرم" مدينة قدر حذفا؛ المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم. وإرم على هذا: مؤنثة معرفة. واختار ابن العربي أنها دمشق، لأنه ليس في البلاد مثلـها. ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها. ثم قال: وإن في الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لـها أمثال، فأما دمشق فلا مثل لـها. وقد روى معن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية، فلم يدر ما هو؟ فإذا فيه: أنا شداد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتها حين لا شيب ولا موت. قال مالك: إن كان لتمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة. وذكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شداد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي بطن الواد، وأنا الذي كنزت كنزا على سبعة أذرع، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ. وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا، ودانت لـه ملوكها؛ فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلـها. فبنى إرم في بعض صحارى عدن، في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل لـه، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسألـه، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلـها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل لـه؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل. وقيل: أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد. فالكناية للعماد. والعماد على هذا: جمع عمد. وقيل: الإرم: الـهلاك؛ يقال: أرم بنو فلان: أي هلكوا؛ وقاله ابن عباس. وقرأ الضحاك: "أرم ذات العماد"؛ أي أهلكهم، فجعلـهم رميما.

قولـه تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾

ثمود: هم قوم صالح. و"جابوا": قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد، أي يقطعها. وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب؛ أي قطع. قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة، فكتب لـه بستين وسقا يأخذها بالكوفة. فقال:

راحـت رواحا قلوصي وهي حامدة آل الـزبير ولم تعـدل بهـم أحـدا
راحـت بسـتين وسـقا في حقيبـتها ما حملت حملـها الأدنى ولا السددا
مـا إن رأيـت قلوصـا قبلـها حملـت سـتين وسـقا ولا جابـت به بلدا

أي قطعت. قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام: ثمود. فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلـها من الحجارة. ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف، كلـها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ (الحجر: ٨٢). وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم. ﴿ بالوادي ﴾ أي بوادي القرى؛ قالـه محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال: أتى رسول الله ﷺ في غزاة تبوك على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: (أسرعوا السير، فإنكم في واد ملعون)[1]. وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتا ودورا وأحواضا. وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو واد.

قولـه تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

أي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشد ملكه؛ قالـه ابن عباس. وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا؛ تجبرا منه وعتوا. وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته؛ حسب ما تقدم في آخر سورة "التحريم". وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت لـه صخرة ترفع بالبكرات، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد لـه أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه. وقد مضى في سورة "ص" من ذكر أوتاده ما فيه كفاية. والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ يعني عادا وثمود وفرعون "طغوا" أي تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان. ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ أي الجور والأذى. و"الذين طغوا" أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم. ويجوز أن يكون مرفوعا على: هم الذين طغوا، أو مجرورا على وصف المذكورين: عاد، وثمود، وفرعون. ﴿ فصب عليهم ربك ﴾ أي أفرغ عليهم وألقى؛ يقال: صب على فلان خلعة، أي ألقاها عليه. وقال النابغة:

فصب عليه الله أحسن صنعه وكان لـه بـين البريـة ناصرا

﴿ سوط عذاب ﴾ أي نصيب عذاب. ويقال: شدته؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به. قال الشاعر:

ألـم تـر أن الله أظـهر دينـه وصب على الكفار سوط عذاب

(١) ضعيف.

وقال الفراء: وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم: ساطه يسوطه سوطا أي خلطه، فهو سائط. فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض؛ ومنه سمي المسواط. وساطه أي خلطه، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال: سوط فلان أموره. قال:

فسطها ذميم الرأي غير موفق فلست على تسويطها بمعان

قال أبو زيد: يقال أموالهم سويطة بينهم؛ أي مختلطة. حكاه عنه يعقوب. وقال الزجاج: أي جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يسوطها؛ أي ضربها بسوطه. وعن عمرو ابن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطا كثيرة، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

أي يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به؛ قاله الحسن وعكرمة. وقيل: أي على طريق العباد لا يفوته أحد. والمرصد والمرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة "التوبة" والحمد لله. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاما جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة، فان جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة. ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يُسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يُسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادي مناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت؛ فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل: "إن ربك لبالمرصاد". وقال الثوري: "لبالمرصاد" يعني جهنم؛ عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرحم، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى.

قلت: أي حكمته وإرادته وأمره. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضا "لبالمرصاد" أي يسمع ويرى.

قلت: هذا قول حسن؛ "يسمع" أقوالهم ونجواهم، و"يرى" أي يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازي كلا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال: "إن ربك لبالمرصاد" يا أبا جعفر! قال الزمخشري: عرض له في هذا النداء، بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة؛ فلله دره. أي أسد فراس كان بين يديه؟ يدق الظلمة بإنكاره، ويقمع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأما الإنسان ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة. وقيل: أمية بن خلف. وقيل: أبي بن خلف. ﴿ إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أي امتحنه واختبره بالنعمة. و"ما": زائدة صلة. ﴿ فأكرمه ﴾ بالمال. ﴿ ونعمه ﴾ بما أوسع عليه. ﴿ فيقول ربي أكرمني ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده. ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أي امتحنه بالفقر واختبره. ﴿ فقدر ﴾ أي ضيق ﴿ عليه رزقه ﴾ على مقدار البُلغة. ﴿ فيقول ربي أهانن ﴾ أي أولاني هوانا. وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث: وإنما الكرامة عنده والـهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قلت: الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهلـه: لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله. وكذا إن قتر عليه يظن أن ذلك لـهوانه على الله. وقراءة العامة "فقدر" مخففة الدال. وقرأ ابن عامر مشددا، وهما لغتان. والاختيار التخفيف؛ لقولـه: ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ (الطلاق: ٧). قال أبو عمرو: "قدر" أي قتر. و"قدر" مشددا: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال "ربي أهانن". وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو "ربي" بفتح الياء في الموضعين. وأسكن الباقون. وأثبت البزي وابن محيصن ويعقوب الياء من "أكرمن"، و"أهانن" في الحالين؛ لأنها اسم فلا تحذف. وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف، اتباعا للمصحف. وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف. الباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة ألا يخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا ﴾ ردّ، أي ليس الأمر كما يُظَن، فليس الغنى لفضلـه، ولا الفقر لـهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفراء: "كلا" في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر. وفي الحديث: (يقول الله عز وجل: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي)[1].

قولـه تعالى: ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل مالـه إسرافا وبدارا أن يكبروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوب "يكرمون"، و"يحضون" و"يأكلون"، و"يحبون" بالياء، لأنه تقدم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبر عنه بلفظ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لـهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن

---

(١) ضعيف.

حقه، وأكل مالـه كما ذكرنا. قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيما في حجر أمية بن خلف.

قولـه تعالى: ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ أي لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم. وقرأ الكوفيون "ولا تحاضون" بفتح التاء والحاء والألف. أي يحض بعضهم بعضا. وأصلـه تتحاضون، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها. وهو اختيار أبي عبيد. وروي عن إبراهيم والشيزري عن الكسائي والسلمـي "تحاضون" بضـم التاء، وهو تفاعلـون من الحض، وهو الحث. ﴿ وتأكلون التراث ﴾ أي ميراث اليتامى. وأصلـه الوراث من ورثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا في تجاه وتخمة وتكأة وتؤدة ونحو ذلك. وقد تقدم. ﴿ أكلا لما ﴾ أي شديدا؛ قالـه السدي. قيل "لما": جمعا؛ من قولـهم: لممت الطعام لما إذا أكلته جمعا؛ قالـه الحسن وأبو عبيدة. وأصل اللم في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لممت الشيء ألمه لما: إذا جمعته، ومنه يقال: لم الله شعثه، أي جمع ما تفرق من أموره. قال النابغة:

ولـست بمسـتبق أخـا لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب

ومنه قولـهم: إن دارك لَمُومَة، أي تلم الناس وتربهم وتجمعهم. وقال المرناق الطائي يمدح علقمة بن سيف:

لأحَبَّني حُبَّ الصبي ولَمَّني   لمَّ الـهديّ إلى الكريم الماجد

وقال الليث: اللم الجمع الشديد؛ ومنه حجر ملموم، وكتيبة ملمومة. فالآكل يلم الثريد، فيجمعه لقما ثم يأكلـه. وقال مجاهد: يسفه سفا: وقال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب غيره. قال الحطيئة:

إذا كـان لما يتـبع الـذم ربـه   فلا قدّس الرحمن تلك الطواحنا

يعني أنهم يجمعون في أكلـهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم. وقال ابن زيد: هو أنه إذا أكل مالـه ألم بمال غيره فأكلـه، ولا يفكر: أكل من خبيث أو طيب. قال: وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك، فيَلُمّ في الأكل بين حرامه وحلالـه. ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلا مهلا، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكلـه أكلا واسعا، جامعا بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوراث البطالون.

قولـه تعالى: ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾ أي كثيرا، حلالـه وحرامه. والجم الكثير. يقال: جم الشيء يجم جموما، فهو جم وجام. ومنه جم الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر. وقال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما   وأي عـبد لـك لا ألمـا

والجمة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه. والجموم: البئر الكثيرة الماء. والجمُومُ: المصدر؛ يقال: جم الماء يجم جموما: إذا كثر في البئر واجتمع، بعدما استقي ما فيها.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو رد لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لـها؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تدك الأرض، ولا ينفع الندم. والدك: الكسر والدق؛ وقد تقدم.

أي زلزلت الأرض، وحركت تحريكا بعد تحريك. وقال الزجاج: أي زلزلت فدك بعضها بعضا. وقال المبرد: أي ألصقت وذهب ارتفاعها. يقال ناقة دكاء، أي لا سنام لـها، والجمع دُكٌّ. وقد مضى في سورة "الأعراف" و"الحاقة" القول في هذا. ويقولون: دك الشيء أي هدم. قال:

هل غير غار دك غارا فانهدم

﴿دكا دكا﴾ أي مرة بعد مرة؛ زلزلت فكسر بعضها بعضا؛ فتكسر كل شيء على ظهرها. وقيل: دكت جبالـها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دكت أي استوت في الانفراش؛ فذهب دورها وقصورها وجبالـها وسائر أبنيتها. ومنه سمي الدكان، لاستوائه في الانفراش. والدك: حط المرتفع من الأرض بالبسط، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمد الأرض مد الأديم.

قولـه تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ (٢٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ أي أمره وقضاؤه؛ قالـه الحسن. وهو من باب حذف المضاف. وقيل: أي جاءهم الـرب بالآيـات العظيمة؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ (البقرة: ٢١٠)، أي بظلل. وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئا لـه، تفخيما لشأن تلك الآيات. ومنه قولـه تعالى في الحديث: (يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، واستسقيتك فلم تسقني، واستطعمتك فلم تطعمني)[(١)]. وقيل: "وجاء ربك" أي زالت الشبه ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه. قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنى لـه التحول والانتقال، ولا مكان لـه ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جريان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز.

قولـه تعالى: ﴿والملك﴾ أي الملائكة. ﴿صفا صفا﴾ أي صفوفا. ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ قال ابن مسعود ومقاتل: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لـها تغيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش. وفي صحيح، مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بجهنم يومئذ لـها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[(٢)]. وقال أبو سعيد الخدري: لما نزلت "وجيء يومئذ بجهنم" تغير لون رسول الله ﷺ وعرف في وجهه. حتى اشتد على أصحابه، ثم قال: (أقرأني جبريل "كلا إذا دكت الأرض دكا دكا" ـ الآية ـ، وجيء يومئذ بجهنم). قال علي ﷺ: قلت يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: (يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، يقود بكل زمام سبعون ألف ملك، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ثم تعرض لي جهنم فتقول: ما لي ولك يا محمد، إن الله قد حرم لحمك علي) فلا يبقى أحد إلا قال نفسي نفسي! إلا محمد ﷺ فإنه يقول: رب أمتي! رب أمتي![(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في "البر والصلة"، (٢٥٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في "الجنة"، (٢٨٤٢).

(٣) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ أي يتعظ ويتوب. وهو الكافر، أو من همته معظم الدنيا. ﴿ وأنى لـه الذكرى ﴾ أي ومن أين لـه الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها في الدنيا. ويقال: أي ومن أين لـه منفعة الذكرى. فلا بد من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين "يومئذ يتذكر" وبين "وأنى لـه الذكرى" تناف، قالـه الزمخشري.

قولـه تعالى: ﴿ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾

أي في حياتي. فاللام بمعنى في. وقيل: أي قدمت عملا صالحا لحياتي، أي لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لـهم؛ فالمعنى: يا ليتني قدمت مَن الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن لـه حياة هنيئة.

قولـه تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ أي لا يعذب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد. والكناية ترجع إلى الله تعالى. وهو قول ابن عباس والحسن. وقرأ الكسائي "لا يعذب" "ولا يوثق" بفتح الذال والثاء، أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر. والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذابا، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير. وقيل: إنه أمية بن خلف؛ حكاه الفراء. يعني أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في كفره وعناده. وقيل: أي لا يعذب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء. والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق. ومنه قول الشاعر:

وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر. واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء. وتكون الـهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله. وقد روى أبو قلابة عن النبي ﷺ أنه قرأ بفتح الذال والثاء. وروي أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي ﷺ. وقال أبو علي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة؛ أي لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر؛ فتكون الـهاء للكافر. والمراد بـ"أحد" الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم الله في إغنائه، وإفقاره، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى. فسلم لأمره، واتكل عليه. وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل. والنفس المطمئنة: الساكنة الموقنة؛ أيقنت أن الله ربها، فأخبتت لذلك؛

قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله. وعنه المؤمنة. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وعن مجاهد أيضا: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله. وفي حرف أبي بن كعب "يأيتها النفس الآمنة المطمئنة". وقيل: التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه. وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة. وقال ابن عطاء: العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين. وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ (الرعد: ٣٨). وقيل: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بالبعث والثواب. وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع. وروى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: يعني نفس حمزة. والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع. قال الحسن البصري: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها. وقال عمرو بن العاص: إذا توفي المؤمن أرسل الله إليه ملكين، وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية، ومرضيا عنك، اخرجي إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وجَد أحد من أنفه على ظهر الأرض. وذكر الحديث. وقال سعيد بن زيد: قرأ رجل عند النبي ﷺ "يا أيتها النفس المطمئنة"، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: (إن الملك يقولها لك يا أبا بكر)[1]. وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائر لم ير على خلقته طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ـ لا يدرى من تلاها ـ: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية". وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان ﷺ حين وقف بئر رومة. وقيل: نزلت في خُبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة؛ فحول الله وجهه نحو القبلة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ أي إلى صاحبك وجسدك؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء. واختاره الطبري؛ ودليله قراءة ابن عباس "فادخلي في عبدي" على التوحيد، فيأمر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود "في جسد عبدي". وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته. وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت. ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في أجساد عبادي؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يوم القيامة؛ وقاله الضحاك. والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مسكن الأبرار، ودار الصالحين والأخيار. ومعنى "في عبادي" أي في الصالحين من عبادي؛ كما قال: ﴿ لندخلنهم في الصالحين ﴾ (العنكبوت: ٩). وقال الأخفش: "في عبادي" أي في حزبي؛ والمعنى واحد. أي انتظمي في سلكهم. ﴿ وادخلي جنتي ﴾ مع عبادي.

---

(١) ضعيف.

سورة البلد

مكيّة باتفاق وهي عشرون آية.

قولـه تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾

يجوز أن تكون "لا" زائدة، كما تقدم في ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ (القيامة: ١)؛ قالـه الأخفش. أي أقسم؛ لأنه قال: "بهذا البلد" وقد أقسم به في قولـه: ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ (التين: ٣) فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به. قال الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة   وكاد صميم القلب لا يتقطع

أي يتقطع، ودخل حرف "لا" صلة؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ (الأعراف: ١٢) بدليل قولـه تعالى في "ص": ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ (ص: ٧٥). وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير "لأقسم" من غير ألف بعد اللام إثباتا. وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى "ألا". وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا. وقيل: هي نفي صحيح؛ والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكي. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: "لا" رد عليهم. وهذا اختيار ابن العربي؛ لأنه قال: وأما من قال إنها رد، فهو قول ليس لـه رد، لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد. فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم. وقال القشيري: قولـه "لا" رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور بالدنيا. أي ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم. و"البلد": هي مكة، أجمعوا عليه. أي أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه، لكرامتك علي وحبي لك. وقال الواسطي أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيا، وبركتك ميتا، يعني المدينة. والأول أصح؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾

يعني في المستقبل؛ مثل قولـه تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون". ومثلـه شائع في كلام العرب. تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو. وهو في كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة؛ وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة باتفاق مكية قبل الفتح. فروى منصور عن مجاهد: ﴿ وأنت حل ﴾ قال: ما صنعت فيه من شيء فأنت في حل. وكذا قال ابن عباس: أحل لـه يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابة وغيرهما. ولم يحل لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله ﷺ. وروى السدي قال: أنت في حل ممن قاتلك أن تقتلـه. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: أحلت لـه ساعة من نهار، ثم أطبقت وحُرمت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح مكة. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولـم تحل لي إلا ساعة من نهار)[1] الحديث. وقد تقدم في سورة "المائدة". ابن زيد: لم

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

يكن بها أحد حلالا غير النبي ﷺ. وقيل: وأنت مقيم فيه وهو محلك. وقيل: وأنت فيه محسن، وأنا عنك فيه راض. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حل وحلال ومحل، ورجل حرام ومحل، ورجل حرام ومحرم. وقال قتادة: أنت حل به: لست بآثم. وقيل: هو ثناء على النبي ﷺ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه. أي أقسم بهذا البيت المعظم الذي قد عرفت حرمته، فأنت مقيم فيه معظم لـه، غير مرتكب فيه ما يحرم عليك. وقال شرحبيل بن سعد: ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أي حلال؛ أي هم يحرمون مكة أن يقتلوا بها صيدا أو يعضدوا بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

قولـه تعالى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: ﴿ ووالد ﴾ آدم: عليه السلام. ﴿ وما ولد ﴾ أي وما نسل من ولده. أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من البيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذريته، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم. وما ولد: ذريته؛ قالـه أبو عمران الجوني. ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته. ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته. قال الفراء: وصلحت "ما" للناس؛ كقولـه: ﴿ ما طاب لكم ﴾ (النساء: ٣) وكقولـه: ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ (الليل: ٣) وهو الخالق للذكر والأنثى، وقيل: "ما" مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي ووالد وولادته؛ كقولـه تعالى: "والسماء وما بناها". وقال عكرمة وسعيد بن جبير: "ووالد" يعني الذي يولد لـه، "وما ولد" يعني العاقر الذي لا يولد لـه؛ وقاله ابن عباس. و"ما" على هذا نفي. وهو بعيد؛ ولا يصح إلا بإضمار الموصول؛ أي ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين. وقيل: هو عموم في كل والد وكل مولود؛ قالـه عطية العوفي. وروي معناه عن ابن عباس أيضا. وهو اختيار الطبري. قال الماوردي: ويحتمل أن الوالد النبي ﷺ، لتقدم ذكره، وما ولد أمته: لقولـه ﷺ: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)[1]. فأقسم به وبأمته بعد أن أقسم ببلده؛ مبالغة في تشريفه ﷺ.

قولـه تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾

إلى هنا انتهى القسم؛ وهذا جوابه. ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم. والإنسان هنا ابن آدم. ﴿ في كبد ﴾ أي في شدة وعناء من مكابدة الدنيا. وأصل الكبد الشدة. ومنه تكبد اللبن: غلظ وخثر واشتد. ومنه الكبد؛ لأنه دم تغلظ واشتد. ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدته. قال لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

قال ابن عباس والحسن: "في كبد" أي في شدة ونصب. وعن ابن عباس أيضا: في شدة من حملـه وولادته ورضاعه ونبت أسنانه، وغير ذلك من أحوالـه. وروى عكرمة عنه قال: منتصباً في بطن أمه.

والكبد: الاستواء والاستقامة. فهذا امتنان عليه في الخلقة. ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة في بطن أمها إلا منكبة على وجهها إلا ابن آدم، فإنه منتصب انتصاباً؛ وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما. ابن كيسان: منتصباً رأسه في بطن أمه؛ فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجلي أمه. وقال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعنه أيضا: يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر. وقال يَمانٌ: لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق. قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطا، وشد رباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن. ويكابد محنا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته؛ ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في كبد"، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودل هذا على أن له خالقا دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره. وقال ابن زيد: الإنسان هنا آدم.

وقوله: ﴿في كبد﴾ أي في وسط السماء. وقال الكلبي: إن هذا نزل في رجل من بني جمح؛ كان يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ (البلد: ٥) يعني: لقوته. وروي عن ابن عباس. "في كبد" أي شديدا، يعني شديد الخلق؛ وكان من أشد رجال قريش. وكذلك ركانة بن هشام بن عبد المطلب، وكان مثلا في البأس والشدة. وقيل: "في كبد" أي جريء القلب، غليظ الكبد، مع ضعف خلقته، ومهانة مادته. ابن عطاء: في ظلمة وجهل. الترمذي: مضيعا ما يعنيه، مشتغلا بما لا يعنيه.

قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾

قوله تعالى: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل. ﴿يقول أهلكت﴾ أي أنفقت. ﴿مالا لبدا﴾ أي كثيرا مجتمعا. ﴿أيحسب﴾ أي أيظن. ﴿أن لم يره﴾ أي أن لم يعاينه ﴿أحد﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذبا في قوله: أهلكت ولم يكن أنفقه. وروى أبو هريرة قال: يوقف العبد، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك؟ فيقول: أنفقته وزكيته. فيقال: كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخي، فقد قيل ذلك. ثم يؤمر به إلى النار. وعن

سعيد عن قتادة: إنك مسؤول عن مالك من أين جمعت؟ وكيف أنفقت؟ وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالا كثيرا وهو في ذلك كاذب. وقال مقاتل: نَزَلَتْ في الحارث بن عامر ابن نوفل، أذنب فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يُكَفِّرَ. فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغيانا منه، أو أسفا عليه، فيكون ندما منه. وقرأ أبو جعفر "مالا لبدا" بتشديد الباء مفتوحة، على جمع لابد؛ مثل راكع وركع، وساجد وسجد، وشاهد وشهد، ونحوه. وقرأ مجاهد وحميد بضم الباء واللام مخففا، جمع لبود. الباقون بضم اللام وكسرها وفتح الباء مخففا، جمع لبدة ولبدة، وهو ما تلبد؛ يريد الكثرة. وقد مضى في سورة "الجن" القول فيه. وروي عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ "أيحسُب" بضم السين في الموضعين. وقال الحسن: يقول أتلفت مالا كثيرا، فمن يحاسبني به، دعني أحسبه. ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته، وأن الله عز وجل يرى صنيعه، ثم عدد عليه نعمه فقال: ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما ﴿ ولسانا ﴾ ينطق به. ﴿ وشفتين ﴾ يستر بهما ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونحصي عليه ما عمله. وقال أبو حازم: قال النبي ﷺ: (إن الله تعالى قال: يا ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق؛ وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق)[1]. والشفة: أصلها شفهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شفيهة، والجمع: شفاه. ويقال: شفهات وشفوات، والهاء أقيس، والواو أعم، تشبيها بالسنوات. وقال الأزهري: يقال هذه شفة في الوصل وشفه، بالتاء والهاء. وقال قتادة: نعم الله ظاهرة، يقررك بها حتى تشكر.

قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسل. والنجد: الطريق في ارتفاع. وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: (يا أيها الناس، إنما هما النجدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلم نجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير)[2]. وروي عن عكرمة قال: النجدان: الثديان. وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وروي عن ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنجد: العلو، وجمعه نجود؛ ومنه سميت "نجد"، لارتفاعها عن انخفاض تهامة. فالنجدان: الطريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازع بطن نخلة   وآخر منهم قاطع نجد كبكب

قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾

أي فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العقبة فيأمن! والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية؛ يقال منه: قحم في الأمر قحوما: أي رمى بنفسه فيه من غير روية. وقحم الفرس فارسه تقحيما على وجهه: إذا رماه. وتقحيم النفس في الشيء:

---

(١) ضعيف لانقطاعه.

(٢) ضعيف.

إدخالها فيه من غير روية. والقُحمة بالضم المهلكة، والسنة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب القُحمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف. والقُحم: صعاب الطريق. وقال الفراء والزجاج: وذكر "لا" مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد "لا" مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ (القيامة: ٣١) "ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ (البلد: ١٧) قائما مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جار مجرى الدعاء؛ كقوله: لا نجا ولا سلم. وقال: معنى "فلا اقتحم العقبة" أي فلم يقتحم العقبة، كقول زهير:

وكان طوى كشحا على مستكنَّة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أي فلم يبدها ولم يتقدم. وكذا قال المبرِّد وأبو علي: "لا": بمعنى لم. وذكره البخاري عن مجاهد. أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير. ثم فسر العقبة وركوبها فقال "فك رقبة" وكذا وكذا؛ فبين وجوها من القرب المالية. وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار؛ تقديره: أفلا اقتحم العقبة؛ أو هلا اقتحم العقبة. يقول: هلا أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغْبان، ليجاوز به العقبة، فيكون خيرا له من إنفاقه في عداوة محمد ﷺ. ثم قيل: اقتحام العقبة ها هنا ضرب مثل، أي هل تحمل عظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه، والإيمان به. وهذا إنما يليق بقول من حمل "فلا اقتحم العقبة" على الدعاء؛ أي فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا. وقيل: شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحا، كان مثله كمثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله. قال ابن عمر: هذه العقبة جبل في جهنم. وعن أبي رجاء قال: بلغنا أن العقبة مصعدها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة. وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف، مسيرة ثلاثة آلاف سنة، سهلا وصعودا وهبوطا. واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء. وقيل: اقتحامه عليه قدر ما يصلي صلاة المكتوبة. وروي عن أبي الدرداء أنه قال: إن وراءنا عقبة، أنجى الناس منها أخفهم حملا. وقيل: النار نفسها هي العقبة. فروى أبو رجاء عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار. وعن عبد الله بن عمر قال: من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضوا منه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: (من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار، حتى فرجه بفرجه)[١]. وفي الترمذي عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي ﷺ قال: (أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلما، كان فكاكه من النار، يجزي كل عضو منه عضوا منه، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، كانت فكاكها من النار، يجزي كل عضو منها عضوا منها)[٢]. قال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٧)، ومسلم (١٥٠٩).
(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٧٠٠).

وقيل: العقبة خلاصه من هول العرض. وقال قتادة وكعب: هي نار دون الجسر. وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان. وأنشد بعضهم:

إنـي بليـت بـأربع يرميـنني بالنـبل قـد نصـبوا علـي شـراكا
إبليـس والدنيا ونفسي والـهوى مـن أيـن أرجـو بيـنهن فكاكـا
يا رب سـاعدنـي بعفـو إنني أصـبحت لا أرجو لـهن سواكا

قولـه تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾

ليعلمه اقتحام العقبة. قال القشيري: وحمل العقبة على عقبة جهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلا صير نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غدا. واختار البخاري قول مجاهد: إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا. قال ابن العربي: وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية: "وما أدراك ما العقبة"؟ ثم قال في الآية الثالثة: "فك رقبة"، وفي الآية الرابعة "أو إطعام في يوم ذي مسغبة"، ثم قال في الآية الخامسة: "يتيما ذا مقربة"، ثم قال في الآية السادسة: "أو مسكينا ذا متربة" ؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يسهل عليه سلوك العقبة في الآخرة. وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه "وما أدراك"؟ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه "وما يدريك"؟ فإنه لم يخبر به.

قولـه تعالى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فك رقبة ﴾ فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرق. وفي الحديث: (وفك الرقبة أن تعين في ثمنها). من حديث البراء، وقد تقدم في سورة "التوبة". والفك: هو حل القيد؛ والرق قيد. وسمي المرقوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وسمي عتقها فكا كفك الأسير من الأسر. قال حسان:

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجـز ناصـية كـنا مواليها

وروى عقبة بن عامر الجُهَني أن رسول الله ﷺ قال: (من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار)[1] قال الماوردي: ويحتمل ثانيا أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب. فيه حذف، أي وما أدراك ما اقتحام العقبة. وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين؛ والخطاب للنبي ﷺ

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ رقبة ﴾ قال أصبغ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبي ﷺ وقد سئل أي الرقاب أفضل؟ قال: (أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلـها)[2]. ابن العربي: والمراد في هذا الحديث: من المسلمين؛ بدليل قولـه ﷺ: (من أعتق امرأ مسلما) و(من أعتق رقبة مؤمنة). وما ذكره أصبغ وهلة؛ وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد، أولى.

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٦٠٥٠).
(٢) أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (١٠/ ٢٧٣).

الثالثة: العتق والصدقة من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفة: أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة؛ لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل؛ لأن النبي ﷺ قال: (من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوا من النار)[١].

قولـه تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي مجاعة. والسغب: الجوع. والساغب الجائع. وقرأ الحسن "أو إطعام في يوم ذا مسغبة" بالألف في "ذا"، وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنت جارا يا ابن قيس بن عاصم لما بت شبعانا وجارك ساغبا

وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل. وقال النخعي في قولـه تعالى: "أو إطعام في يوم ذي مسغبة" قال: في يوم عزيز فيه الطعام. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان)[٢]. ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ أي قرابة. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل لـه أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفلـه. وأهل اللغة يقولون: سمي يتيما لضعفه. يقال: يتم الرجل يتما: إذا ضعف. وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب. وفي البهائم من قبل الأمهات. وقد مضى في سورة "البقرة" مستوفى، وقال بعض أهل اللغة: اليتيم الذي يموت أبواه. وقال قيس بن الملوح:

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

قولـه تعالى: ﴿ أو مسكينا ذا متربة ﴾ أي لا شيء لـه، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس لـه مأوى إلا التراب. قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق، الذي لا بيت لـه. مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره. وقال قتادة: إنه ذو العيال. عكرمة: المديون. أبو سنان: ذو الزمانة. ابن جبير: الذي ليس لـه أحد. وروى عكرمة عن ابن عباس: ذو المتربة البعيد التربة؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه. وقال أبو حامد الخارزنجي: المتربة هنا: من التريب؛ وهي شدة الحال. يقال ترب: إذا افتقر. قال الـهذلي:

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن في تربة الحال

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: "فك" بفتح الكاف، على الفعل الماضي. "رقبة" نصبا لكونها مفعولا "أو أطعم" بفتح الـهمزة ونصب الميم، من غير ألف، على الفعل الماضي أيضا؛ لقولـه: "ثم كان من الذين آمنوا" فهذا أشكل بـ "فك وأطعم". وقرأ الباقون: "فك" رفعا، على أنه مصدر فككت. "رقبة" خفض بالإضافة. "أو إطعام" بكسر الـهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضا. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسير لقولـه تعالى: "وما أدراك ما العقبة"؟ ثم أخبره

(١) صحيح.
(٢) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٣١٢).

فقال: "فك رقبة أو إطعام". المعنى: اقتحام العقبة: فك رقبة أو إطعام. ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أي ولا فك رقبة، ولا أطعم في يوم ذا مسغبة؛ فكيف يجاوز العقبة. وقرأ الحسن وأبو رجاء: "ذا مسغبة" بالنصب على أنه مفعول "إطعام" أي يطعمون ذا مسغبة و"يتيما" بدل منه. الباقون "ذي مسغبة" فهو صفة لـ "يوم". ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور لأن قوله: "في يوم" ظرف منصوب الموضع، فيكون وصفا له على المعنى دون اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ يعني: أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة، أو أطعم في يوم ذا مسغبة، حتى يكون من الذين آمنوا؛ أي صدقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله. فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ (التوبة: ٥٤). وقالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: (لا، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[١]. وقيل: "ثم كان من الذين آمنوا" أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة؛ نظيره قوله تعالى: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ (طه: ٨٢). وقيل: المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى. وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله، ثم آمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام بعدما أسلم: يا رسول الله، إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال ﷺ: (أسلمت على ما أسلفت من الخير)[٢].

وقيل: إن "ثم" بمعنى الواو؛ أي وكان هذا المعتق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وتواصوا﴾ أي أوصى بعضهم بعضا. ﴿ بالصبر ﴾ أي بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب. ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي: بالرحمة على الخلق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين.

قوله تعالى: ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القرظي وغيره. وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامين على أنفسهم. ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن. وقيل: لأن منزلتهم عن اليمين؛ قاله ميمون بن مهران. ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ أي كفروا بالقرآن. ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أي يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنهم مشائيم على أنفسهم. ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر. ميمون: لأن منزلتهم عن اليسار.

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (٢١٤).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يقال: إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة، وأصحاب المشأمة أصحاب النار؛ قال الله تعالى: "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود"، وقال: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. في سموم وحميم﴾ (الواقعة: ٤٢). وما كان مثله. ومعنى ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة مغلقة. قال:

تحن إلى جبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

وقيل: مبهمة، لا يدرى ما داخلها. وأهل اللغة يقولون: أوصدت الباب وآصدته؛ أي أغلقته. فمن قال أوصدت، فالاسم الوصاد، ومن قال آصدته، فالاسم الإصاد. وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشيزري عن الكسائي "مؤصدة" بالهمز هنا، وفي "الهمزة". الباقون بلا همز. وهما لغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمام يهمز "مؤصدة" فأشتهي أن أسد أذني إذا سمعته.

سورة الشمس

مكية باتفاق، وهي خمس عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾

قال مجاهد: ﴿ وضحاها ﴾ أي ضوءها وإشراقها. وهو قسم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس. وقال قتادة: بهاؤها. السدي: حرها. وروى الضحاك عن ابن عباس: "وضحاها" قال: جعل فيها الضوء وجعلـها حارة. وقال اليزيدي: هو انبساطها. وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض كلـها. حكاه الماوردي. والضحا: مؤنثة. يقال: ارتفعت الضحا، وهي فوق الضحو. وقد تذكر. فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة. ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل، نحو صرد ونغر. وهو ظرف غير متمكن مثل سحر. تقول: لقيته ضحًا وضحَا؛ إذا أردت به ضحا يومك لم تنونه. وقال الفراء: الضحا هو النهار؛ كقول قتادة. والمعروف عند العرب أن الضحا: النهار كلـه، فذلك لدوام نور الشمس، ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس. وقد استدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقولـه تعالى: ﴿ ولا تضحى ﴾ (طه: ١١٩) أي لا يؤذيك الحر. وقال المبرد: أصل الضحا من الضح، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة من الحاء الثانية. تقول: "ضحوة وضحوات، وضحوات وضحا، فالواو من ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في ضحا مقلوبة عن الواو. وقال أبو الـهيثم: الضح: نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصلـه الضحا فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء، فقلبوها ألفا.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾

أي تبعها: وذلك إذا سقطت رىء الـهلال. يقال: تلوت فلانا: إذا تبعته. قال قتادة: إنما ذلك ليلة الـهلال، إذا سقطت الشمس رىء الـهلال. وقال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب. الفراء: "تلاها": أخذ منها، يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. وقال قوم: "والقمر إذا تلاها" حين استوى واستدار، فكان مثلـها في الضياء والنور؛ وقالـه الزجاج.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ ﴾

أي كشفها. فقال قوم: جلى الظلمة؛ وإن لم يجر لـها ذكر؛ كما تقول: أضحت باردة، تريد أضحت غداتنا باردة. وهذا قول الفراء والكلبي وغيرهما. وقال قوم: الضمير في "جلاها" للشمس؛ والمعنى: أنه يبين بضوئه جرمها. ومنه قول قيس بن الخطيم:

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل: جلى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر، لاستتاره ليلا وانتشاره نهارا. وقيل: جلى الدنيا. وقيل: جلى الأرض؛ وإن لم يجر لـها ذكر؛ ومثلـه قولـه تعالى: ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص: ٣٢) على ما تقدم آنفا.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ ﴾

أي يغشى الشمس، فيذهب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظلم، فتظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ ﴾

أي وبنيانها. فما مصدرية؛ كما قال: ﴿ بما غفر لي ربي ﴾ (يس: ٢٧) أي بغفران ربي؛ قالـه قتادة، واختاره المبرد. وقيل: المعنى ومن بناها؛ قالـه الحسن ومجاهد؛ وهو اختيار الطبري. أي ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. وحكي عن أهل الحجاز: سبحان ما سبحت لـه؛ أي سبحان من سبحت لـه.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾

أي وطحوها. وقيل: ومن طحاها؛ على ما ذكرناه آنفا. أي بسطها؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد؛ أي بسطها من كل جانب. والطحو: البسط؛ طحا يطحو طحوا، وطحى يطحي طحيا، وطحيت: اضطجعت؛ عن أبي عمرو. وعن ابن عباس: طحاها: قسمها. وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تدري جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

الماوردي: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خلق عليها. ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطاحي؛ أي المشرف المشرق المرتفع. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طحا! ويقال: طحا به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء. قال علقمة:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قولـه تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾

قيل: المعنى وتسويتها. "فما": بمعنى المصدر. وقيل: المعنى ومن سواها، وهو الله عز وجل. وفي النفس قولان: أحدهما: آدم. الثاني: كل نفس منفوسة. وسوى: بمعنى هيأ. وقال مجاهد: سواها: سوى خلقها وعدل. وهذه الأسماء كلـها مجرورة على القسم. أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه.

قولـه تعالى: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فألـهمها ﴾ أي عرفها؛ كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد. أي عرفها طريق الفجور والتقوى؛ وقاله ابن عباس. وعن مجاهد أيضا: عرفها الطاعة والمعصية. وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا، ألـهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء، ألـهمه الشر فعمل به. وقال الفـراء: "فألـهمها" قـال: عرفـها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال: ﴿وهديناه النجدين﴾ (البلد: ١٠). وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ألـهم المؤمن المتقي تقواه، وألـهم الفاجر فجوره. وعن سعيد عن قتادة قال: بين لـها فجورها وتقواها. والمعنى متقارب. وروي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ "فألـهمها فجورها وتقواها" قال: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[1]. ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية: "فألـهمها فجورها وتقواها" رفع صوته بها، وقال: (اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وأنت خير من زكاها). وفي صحيح مسلم، عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظلما؟ قال: ففزعت من ذلك فزعا شديدا، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه: أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم. وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: (لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: "ونفس وما سواها. فألـهمها فجورها وتقواها"). والفجور والتقوى: مصدران في موضع المفعول به.

قولـه تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عوضا منها. وقيل: الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لتبعثن. الزمخشري: تقديره ليدمدمن الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحا. وأما "قد أفلح من زكاها" فكلام تابع لأولـه؛ لقولـه: "فألـهمها فجورها وتقواها" على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها. ﴿ أفلح ﴾ فاز. ﴿ من زكاها ﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة. ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي خسرت نفس دسها الله عز وجل بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفس أضلـها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي؛ قاله قتادة

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

وغيره. وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل. وقد تقدم هذا المعنى في أول سورة "البقرة" مستوفى. فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر، شهر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الربا وارتفاع الأرض، ليشتهر مكانها للمعتفين، وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك علوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها. وكذا الفاجر أبدا خفي المكان، زمر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي. وقيل: دساها: أغواها. قال:

وأنت الذي دسيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

قال أهل اللغة: والأصل: دسسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قصيت أظفاري؛ وأصله قصصت أظفاري. ومثله قولهم في تقضض: تقضى. وقال ابن الأعرابي: "وقد خاب من دساها" أي دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا (١٤)﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس "بطغواها" أي بعذابها الذي وعدت به. قال: وكان اسم العذاب الذي جاءها الطغوى؛ لأنه طغى عليهم. وقال محمد بن كعب: "بطغواها" بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أشكل برؤوس الآي. وقيل: الأصل بطغياها، إلا أن "فعلى" إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واوا، ليفصل بين الاسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والجحدري وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرجعى والحسنى وشبههما في المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿ إذ انبعث ﴾ أي نهض. ﴿ أشقاها ﴾ لعقر الناقة. واسمه قدار بن سالف. وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا، وهل كان واحدا أو جماعة. وفي البخاري عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه، مثل أبي زمعة[(١)] وذكر الحديث. خرجه مسلم أيضا. وروى الضحاك عن علي: أن النبي ﷺ (أتدري من أشقى الأولين؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: عاقر الناقة، قال: أتدري من أشقى الآخرين؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (قاتلك)[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحا. ﴿ ناقة الله ﴾ "ناقة" منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبي الصبي، والحذار الحذار. أي احذروا ناقة الله؛ أي عقرها. وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال: ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٢) صحيح.

بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ (الأعراف: ٧٣). ﴿ وسقياها ﴾ أي ذروها وشربها. وقد مضى في سورة "الشعراء" بيانه والحمد لله. وأيضا في سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر: ١). فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شرب يوم من بئرهم، ولها شرب يوم مكان ذلك، فشق ذلك عليهم. ﴿فكذبوه﴾ أي كذبوا صالحا ﷺ في قوله لهم: (إنكم تعذبون إن عقرتموها). ﴿ فعقروها ﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله. وقال قتادة: ذكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم. وقال الفراء: عقرها اثنان: والعرب تقول: هذان أفضل الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أشقياها.

قوله تعالى: ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعقر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: دمدم عليهم قال: دمر عليهم ربهم بذنبهم؛ أي بجرمهم. وقال الفراء: دمدم أي أرجف. وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده. ويقال: دممت على الشيء أي أطبقت عليه، ودمم عليه القبر: أطبقه. وناقة مدمومة: ألبسها الشحم. فإذا كررت الإطباق قلت: دمدمت. والدمدمة: إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرج. وفي الصحاح: ودمدمت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطحطحته. ودمدم الله عليهم: أي أهلكهم. القشيري: وقيل دمدمت على الميت التراب: أي سويت عليه. فقوله: "فدمدم عليهم" أي أهلكهم، فجعلهم تحت التراب. وقال ابن الأنباري: دمدم أي غضب. والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. وقال بعض اللغويين: الدمدمة: الإدامة؛ تقول العرب: ناقة مدمدمة أي سمينة. ﴿ فسواها ﴾ أي سوى عليهم الأرض. وعلى الأول "فسواها" أي فسوى الدمدمة والإهلاك عليهم. وذلك أن الصيحة أهلكتهم، فأتت على صغيرهم وكبيرهم. وقيل: "فسواها" أي فسوى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضيعهم وشريفهم، وذكرهم وأنثاهم. وقرأ ابن الزبير "فدهدم" وهما، لغتان؛ كما يقال: امتقع لونه وانتقع.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. والهاء في "عقباها" ترجع إلى الفعلة؛ كقوله: (من اغتسل يوم الجمعة فبها ونعمت)[1] أي بالفعلة والخصلة. قال السدي والضحاك والكلبي: ترجع إلى العاقر؛ أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع. وقاله ابن عباس أيضا. وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازه: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها. وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم. وقرأ نافع وابن عامر "فلا" بالفاء، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم. والباقون بالواو، وهي أشبه بالمعنى الثاني؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا: أخرج إلينا مالك مصحفا لجده، وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه: "ولا يخاف" بالواو. وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اتباعا لمصحفهم.

(١) "حسن" بلفظ: "من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أولى"، انظر صحيح الجامع (٦١٨٠).

سورة الليل

مكيّة. وقيل: مدنية. وهي إحدى وعشرون آية بإجماع.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾

قولـه تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أي يُغطي. ولم يذكر معه مفعولا للعلم به. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته. وروى سعيد عن قتادة قال: أول ما خلق الله النور والظلمة، ثم ميز بينهما، فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما، والنور نهارا مضيئا مبصرا. ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل. ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ قال الحسن: معناه والذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل. وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى؛ (فما): مصدرية على ما تقدم. وأهل مكة يقولون للرعد: سبحان ما سبحت لـه! (فما) على هذا بمعنى (من)، وهو قول أبي عبيدة وغيره. وقد تقدم. وقيل: المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون "من" مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمة لـهم وتشريفا. وقال أبو عبيدة: "وما خلق" أي من خلق. وكذا قولـه: ﴿ والسماء وما بناها ﴾ (الشمس: ٥)، ﴿ ونفس وما سواها ﴾ (الشمس: ٧)، "ما" في هذه المواضع بمعنى من. وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ "والنهار إذا تجلى. والذكر والأنثى" ويسقط "وما خلق". وفي صحيح مسلم عن علقمة قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا. قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية "والليل إذا يغشى"؟ قال: سمعته يقرأ "والليل إذا يغشى. والذكر والأنثى" قال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ "وما خلق" فلا أتابعهم.

قال أبو بكر الأنباري: وحدثنا محمد بن يحيى المروزي قال حدثنا محمد قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أقرأني رسول الله ﷺ "إني أنا الرزاق ذو القوة المتين"؛ قال أبو بكر: كل من هذين الحديثين مردود؛ بخلاف الإجماع لـه، وأن حمزة وعاصما يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين، والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أخذ برواية الجماعة، وأبطل نقل الواحد؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال. ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولا معروفا، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ﷺ يخالفونه، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، وجميع أهل الملة.

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان: أحدهما: آدم وحواء؛ قالـه ابن عباس والحسن والكلبي. الثاني: يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من

نوعهم. وقيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته. ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها؛ يدل عليه قوله ﷺ: (الناس غاديان: فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها)(١). وشتى: واحده شتيت؛ مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص. وقيل: "لشتى" أي لمختلف الجزاء؛ فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار. وقيل: أي لمختلف الأخلاق؛ فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل؛ وشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر ﷺ؛ وقاله عامة المفسرين. فروي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه قحافة: أي بني! لو أنك أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد. وعن ابن عباس في قوله تعالى: "فأما من أعطى" أي بذل. "واتقى" أي محارم الله التي نهى عنها. ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي بالخلف من الله تعالى على عطائه. ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا)(٢). وروي من حديث أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ قال: (ما من يوم غربت شمسه إلا بعث بجنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا) فأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن "فأما من أعطى"... الآيات. وقال أهل التفسير: "فأما من أعطى" المعسرين. وقال قتادة: أعطى حق الله تعالى الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا. وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس: ٢٦) الآية. وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم. الحسن: بالخلف من عطائه؛ وهو اختيار الطبري. وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. وقال زيد بن أسلم: "لليسرى" للجنة. وفي الصحيحين والترمذي عن علي ﷺ قال: كنا في

(١) أخرجه مسلم وغيره.
(٢) وكذا أخرجه البخاري وغيره.

جنازة بالبقيع، فأتى النبي ﷺ، فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها) فقال القوم: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: (بل اعملوا فكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء ـ ثم قرأ ـ "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى")[1] لفظ الترمذي. وقال فيه: حديث حسن صحيح. وسأل غلامان شابان رسول الله ﷺ فقالا: العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم في شيء يستأنف؟ فقال ﷺ: (بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير) قالا: ففيم العمل؟ قال: (اعملوا، فكل ميسر لعمل الذي خلق له) قالا: فالآن نجد ونعمل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ أي ضن بما عنده، فلم يبذل خيرا. وقد تقدم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة "آل عمران". وفي الآخرة مآله النار، كما في هذه الآية. روى الضحاك عن ابن عباس ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله. وعنه عن ابن عباس قال: نزلت في أمية بن خلف وروى عكرمة عن ابن عباس: "وأما من بخل واستغنى" يقول: بخل بماله، واستغنى ربه. ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالخلف. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: "وكذب بالحسنى" قال: بالجنة. وبإسناد عنه آخر قال "بالحسنى" أي بلا إله إلا الله. ﴿ فسنيسره ﴾ أي نسهل طريقه... ﴿ للعسرى ﴾ أي للشر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها. وقد تقدم أن الملك ينادي صباحا ومساء: (اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا)[2]. رواه أبو الدرداء.

مسألة: قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (البقرة: ٣)، وقوله: ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ (البقرة: ٢٧٤) إلى غير ذلك من الآيات ـ أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها. وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطي أجرا وحمدا فهو الجواد. وكل من استحق بالمنع ذما أو عقابا فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجرا ولا حمدا، وإنما استوجب به ذما فليس بجواد، وإنما هو مسوف مذموم، وهو من المبذرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقابا ولا ذما، واستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم.

الرابعة: قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: "فسنيسره للعسرى"؟ وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (آل عمران: ٢١)،

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

والبشارة في الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما. وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا. قال الفراء: وقوله تعالى: "فسنيسره" : سنهيئه. والعرب تقول: قد يسرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال:

هما سـيدانا يزعمان وإنما يسوداننا أن يسرت غنماهما

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ أي مات. يقال: ردي الرجل يردى ردى : إذا هلك. قال:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: "إذا تردى" : سقط في جهنم؛ ومنه المتردية. ويقال: ردي في البئر وتردى: إذا سقط في بئر، أو تهور من جبل. يقال: ما أدري أين ردي؟ أي أين ذهب. و"ما" : يحتمل أن تكون جحدا؛ أي ولا يغني عنه ماله شيئا؛ ويحتمل أن تكون استفهاما معناه التوبيخ؛ أيْ أيّ شيء يغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم؟ ﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج. أي على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة. وقال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (النحل: ٩) يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال؛ كقوله: ﴿ بيدك الخير ﴾ (آل عمران: ٢٦)، و﴿ بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس: ٨٣). وكما قال: ﴿سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: ٨١) وهي تقي البرد؛ عن الفراء أيضا. وقيل: أي إن علينا ثواب هداه الذي هديناه. ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ "للآخرة" الجنة. "والأولى" الدنيا. وكذا روى عطاء عن ابن عباس. أي الدنيا والآخرة لله تعالى. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ (النساء: ١٣٤) فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

قوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فأنذرتكم ﴾ أي حذرتكم وخوفتكم. ﴿ نارا تلظى ﴾ أي تلهب وتتوقد وأصله تتلظى. وهي قراءة عبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف. ﴿ لا يصلاها ﴾ أي لا يجد صلاها وهو حرها. ﴿ إلا الأشقى ﴾ أي الشقي. ﴿ الذي كذب ﴾ نبي الله محمدا ﷺ. ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عن الإيمان. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: كل يدخل الجنة إلا من أباها. قال: يا أبا

هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: الذي كذب وتولى. وقال مالك: صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ "والليل إذا يغشى" فلما بلغ "فأنذرتكم نارا تلظى" وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعداها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى. وقال الفراء: "إلا الأشقى" إلا من كان شقيا في علم الله جل ثناؤه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: "لا يصلاها إلا الأشقى" أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدا ﷺ. وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة؛ فجعل تكذيبا، كما تقول: لقي فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. قال: وسمعت أبا ثروان يقول: إن بني نمير ليس لجدهم مكذوبة. يقول: إذا لقوا صدقوا القتال، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ (الواقعة: ٢) يقول: هي حق. وسمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى ﴾ وليس الأمر كما ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى. ولأهل النار منازل؛ فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء: ٤٨)، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب، لم يكن في قوله: "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" فائدة، وكان "ويغفر ما دون ذلك" كلاما لا معنى له.

الزمخشري: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصا بالجنة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وسيجنبها ﴾ أي يكون بعيدا منها. ﴿ الأتقى ﴾ أي المتقي الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر رضي الله عنه، يزحزح عن دخول النار. ثم وصف الأتقى فقال: ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكيا، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، بل يتصدق به مبتغيا به وجه الله تعالى. وقال بعض أهل المعاني: أراد بقوله "الأتقى" و"الأشقى" أي التقي والشقي؛ كقول طرفة:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي واحد ووحيد؛ وتوضع (أفعل) موضع فعيل، نحو قولهم: الله أكبر بمعنى كبير، ﴿ وهو أهون عليه ﴾ (الروم: ٢٧) بمعنى هين.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أي ليس يتصدق ليجازي على نعمة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي المتعالي ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي بالجزاء. فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: عذب المشركون بلالا، وبلال يقول أحد أحد؛ فمر به النبي ﷺ فقال: "أحد ـ يعني الله تعالى ـ ينجيك" ثم قال لأبي بكر: (يا أبا بكر إن بلالا يعذب في الله) فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ فانصرف إلى منزلـه، فأخذ رطلا من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال لـه: أتبيعني بلالا؟ قال: نعم؛ فاشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت لـه عنده؛ فنزلت "وما لأحد عنده" أي عند أبي بكر "من نعمة"، أي من يد ومنة، "تجزى" بل "ابتغاء" بما فعل "وجه ربه الأعلى". وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبي بن خلف بلالا، ببردة وعشر أواق، فأعتقه لله، فنزلت: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (الليل: ٤). وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال لـه أبو بكر: أتبيعنيه؟ فقال: نعم، أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبدا لأبي بكر، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركا، فحملـه أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له مالـه، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده؛ فنزلت ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء ﴾ أي لكن ابتغاء؛ فهو استثناء منقطع؛ فلذلك نصبت. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمارا. ويجوز الرفع. وقرأ يحيى بن وثاب "إلا ابتغاء وجه ربه" بالرفع، على لغة من يقول: يجوز الرفع في المستثنى. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي خازم:

أضحت خلاء قفارا لا أنيس بها   إلا الجـآذر والظـلمان تختلـف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس   إلا اليعافير وإلا العيس

وفي التنـزيل: ﴿ ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ (النساء: ٦٦) وقد تقدم. ﴿ وجه ربه الأعلى ﴾ أي مرضاته وما يقرب منه. و"الأعلى" من نعت الرب الذي استحق صفات العلو. ويجوز أن يكون "ابتغاء وجه ربه" مفعولا لـه على المعنى؛ لأن معنى الكلام: لا يؤتي مالـه إلا ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمته. ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضي؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق. وروى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته، وحملني إلى دار الـهجرة، وأعتق بلالا من مالـه)[1]. ولما اشتراه أبو بكر قال لـه بلال: هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله؟ قال: بل لعمل الله قال: فذرني وعمل الله، فأعتقه. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا ﷺ. وقال عطاء ـ وروي عن ابن عباس ـ: إن السورة نزلت في أبي الدحداح؛ في النخلة التي اشتراها بحائط لـه، فيما ذكر الثعلبي عن عطاء. وقال القشيري عن ابن عباس: بأربعين نخلة؛ ولم يسم الرجل. قال عطاء: كان لرجل من الأنصار

---

(١) ضعيف جداً، انظر ضعيف الجامع (٣٠٩٥).

نخلة، يسقط من بلحها في دار جار لـه، فيتناول صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: (تبيعها بنخلة في الجنة)؟ فأبى؛ فخرج فلقيه أبو الدحداح فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ"حسنى": حائط لـه. فقال: هي لك. فأتى أبو الدحداح إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: (نعم، والذي نفسي بيده) فقال: هي لك يا رسول الله؛ فدعا النبي ﷺ جار الأنصاري، فقال: (خذها) فنزلت ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ (الليل: ١) إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة[1]. "فأما من أعطى واتقى" يعني أبا الدحداح. "وصدق بالحسنى" أي بالثواب. "فسنيسره لليسرى": يعني الجنة. "وأما من بخل واستغنى" يعني الأنصاري. "وكذب بالحسنى" أي بالثواب. "فسنيسره للعسرى"، يعني جهنم. "وما يغني عنه مالـه إذا تردى" أي مات. إلى قولـه: "لا يصلاها إلا الأشقى" يعني بذلك الخزرجي؛ وكان منافقا، فمات على نفاقه. "وسيجنبها الأتقى" يعني أبا الدحداح. "الذي يؤتي مالـه يتزكى" في ثمن تلك النخلة. "ما لأحد عنده من نعمة تجزى" يكافئه عليها؛ يعني أبا الدحداح. "ولسوف يرضى" إذا أدخلـه الله الجنة. والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر ﷺ. وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وقد ذكرنا خبرا آخر لأبي الدحداح في سورة "البقرة"، عند قولـه: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ (البقرة: ٢٤٥). والله تعالى أعلم.

---

(١) ضعيف

سورة الضُحى

مكيّة باتفاق. وهي إحدى عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والضحى. والليل إذا سجى ﴾ قد تقدم القول في "الضحى"، والمراد به النهار؛ لقولـه: "والليل إذا سجى" فقابلـه بالليل. وفي سورة (الأعراف) ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ (الأعراف: ٩٧) أي نهارا. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خر فيها السحرة سجدا. بيانه قولـه تعالى: ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ (طه: ٥٩). وقال أهل المعاني فيه وفي أمثالـه: فيه إضمار، مجازه ورب الضحى. و"سجا" معناه: سكن؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة. يقال: ليلة ساجية أي ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سجوا: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن. قال الأعشى:

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج ما يواري الدعامصا

وقال الراجز:

يا حبذا القمراء والليل الساج وطـرق مثـل مـلاء النـسـاج

وقال جرير:

ولقـد رمـينك يـوم رحن بأعين ينظرن من خلل الستور سواجي

وقال الضحاك: "سجا" غطى كل شيء. قال الأصمعي: سجو الليل: تغطيته النهار؛ مثلما يسجى الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشى بظلامه؛ وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضا: إذا أظلم. وقال سعيد بن جبير: أقبل؛ وروي عن قتادة أيضا. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: "سجا" استوى. والقول الأول أشهر في اللغة: "سجا" سكن؛ أي سكن الناس فيه. كما يقال: نهار صائم، وليل قائم. وقيل: سكونه استقرار ظلامه واستواؤه. ويقال: "والضحى. والليل إذا سجا": يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم. ويقال: "الضحى": يعني نور الجنة إذا تنور. "والليل إذا سجا": يعني ظلمة الليل إذا أظلم. ويقال: "والضحى": يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار. "والليل إذا سجا": يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء.

قولـه تعالى: ﴿ ما ودعك ربك ﴾ هذا جواب القسم. وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبي ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودعه؛ فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوما. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوما. وقيل: خمسة وعشرين يوما. وقال مقاتل: أربعين يوما. فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبلـه من الأنبياء. وفي البخاري عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا؛ فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عز وجل "والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى".

وفي الترمذي عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت إصبعه، فقال النبي ﷺ: (هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت) قال: وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد ودع محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: "ما ودعك ربك وما قلى". هذا حديث حسن صحيح. لم يذكر الترمذي: "فلم يقم ليلتين أو ثلاثا" أسقطه الترمذي. وذكره البخاري، وهو أصح ما قيل في ذلك. والله أعلم. وقد ذكره الثعلبي أيضا عن جندب بن سفيان البجلي، قال: رُمي النبي ﷺ في إصبعه بحجر، فدميت، فقال: (هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت) فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل. فقالت لـه أم جميل امرأة أبي لـهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت "والضحى". وروي عن أبي عمران الجوني، قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ حتى شق عليه؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كتفيه، وأنزل عليه: "ما ودعك ربك وما قلى". وقالت خولة ـ وكانت تخدم النبي ﷺ ـ: إن جروا دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله ﷺ أياما لا ينزل عليه الوحي. فقال: (يا خولة، ما حدث في بيتي؟ ما لجبريل لا يأتيني) قالت خولة فقلت: لو هيأت البيت وكنسته؛ فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار؛ فجاء نبي الله ترعد لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة ـ فقال: (يا خولة دثريني) فأنزل الله هذه السورة. ولما نزل جبريل سأل النبي ﷺ عن التأخر فقال: (أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة)[1]. وقيل: لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال: (سأخبركم غدا). ولم يقل إن شاء الله. فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقولـه: ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف: ٢٣) فأخبره بما سئل عنه. وفي هذه القصة نزلت "ما ودعك ربك وما قلى". وقيل: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، ما لك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: (وكيف ينزل علي وأنتم لا تنقون رواجبكم ـ وفي رواية براجمكم ـ ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم). فنزل جبريل بهذه السورة؛ فقال النبي ﷺ: (ما جئت حتى اشتقت إليك) فقال جبريل: (وأنا كنت أشد إليك شوقا، ولكني عبد مأمور) ثم أنزل عليه ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ (مريم: ٦٤). "ودعك" بالتشديد: قراءة العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المفارق. وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه "ودعك" بالتخفيف، ومعناه: تركك. قال:

وثـم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر

واستعمالـه قليل. يقال: هو يدع كذا، أي يتركه. قال المبرد محمد بن يزيد: لا يكادون يقولون ودع ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك.

قولـه تعالى: ﴿ وما قلى ﴾ أي ما أبغضك ربك منذ أحبك. وترك الكاف، لأنه رأس آية. والقلى: البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول: قلاه يقليه قلى وقلاء. كما تقول: قريت الضيف أقريه قرى وقراء. ويقلاه: لغة طيء. وأنشد ثعلب:

أيام أم الغمر لا نقلاها

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد وغيره.

أي لا نبغضها. ونقلي أي نبغض. وقال:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقال امرؤ القيس:

ولست بمقلي الخلال ولا قال

وتأويل الآية: ما ودعك ربك وما قلاك. فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل: ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ (الأحزاب: ٣٥) أي والذاكرات الله.

قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال: ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أي ما عندي في مرجعك إلي يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا. وقال ابن عباس: أري النبي ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسر بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾. قال ابن إسحاق: الفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة. وقيل: الحوض والشفاعة. وعن ابن عباس: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك. رفعه الأوزاعي، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أري النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل "والضحى - إلى قوله تعالى: - ولسوف يعطيك ربك فترضى"، فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر في الجنة، ترابها المسك؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وعنه قال: رضي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال السدي. وقيل: هي الشفاعة في جميع المؤمنين. وعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يشفعني الله في أمتي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيت يا محمد؟ فأقول يا رب رضيت). وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ (إبراهيم: ٣٦) وقول عيسى: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ (المائدة: ١١٨)، فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك) فأتى جبريل النبي ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)[1]. وقال علي ﷺ لأهل العراق: إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (الزمر: ٥٣) قالوا: إنا نقول ذلك. قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى". وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: (إذاً والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار).

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (٢٠٢).

عدد سبحانه منته على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿ألم يجدك يتيما﴾ لا أب لك قد مات أبوك. ﴿فآوى﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك. وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق. وعن مجاهد: هو من قول العرب: درة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مثل. فمجاز الآية: ألم يجدك واحدا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك.

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

أي غافلا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ (طه: ٥٢) أي لا يغفل. وقال في حق نبيه: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (يوسف: ٣). وقال قوم: "ضالا" لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. وهو معنى قوله تعالى: "ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان"، على ما بينا في سورة "الشورى". وقال قوم: "ووجدك ضالا" أي في قوم ضلال، فهداهم الله بك. هذا قول الكلبي والفراء. وعن السدي نحوه؛ أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: "ووجدك ضالا" عن الهجرة، فهداك إليها. وقيل: "ضالا" أي ناسيا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ـ فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أن تضل إحداهما﴾ (البقرة: ٢٨٢). وقيل: ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها؛ بيانه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء...﴾ (البقرة: ١٤٤) الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب. وقيل: ووجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير. وقيل: ووجدك ضائعا في قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: ووجدك محبا للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ (يوسف: ٩٥) أي في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا ... والعارضين ولم أكن متحققا

عجبا لعزة في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: "ضالا" في شعاب مكة، فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب. قال ابن عباس: ضل النبي ﷺ وهو صغير في شعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه، فرده إلى جده عبد المطلب؛ فمنّ الله عليه بذلك، حين رده إلى جده على يدي عدوه. وقال سعيد بن جبير: خرج النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظلماء، فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، ورده إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك. وقال كعب: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لترده على عبد المطلب، فسمعت عند باب مكة: هنيئا لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال. قالت: فوضعته لأصلح ثيابي، فسمعت هدة شديدة، فالتفت فلم أره، فقلت: معشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا:

لم نر شيئا؛ فصحت : وا محمداه! فإذا شيخ فان يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أن يرده عليك فعل. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تزل منتك على قريش، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل، فرده إن شئت. فانكب هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد. فألقى الشيخ عصاه، وارتعد وقال: إن لابنك ربا لا يضيعه، فاطلبيه على مهل. فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يجدوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا، وتضرع إلى الله أن يرده، وقال:

يـا رب رد ولـدي محمـدا   اردده ربي واتخذ عندي يدا
يـا رب إنْ محـمد لم يوجدا   فشـمل قومي كلـهم تبددا

فسمعوا مناديا ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضجوا، فإن لمحمد ربا لا يخذلـه ولا يضيعه، وإن محمدا بوادي تهامة، عند شجرة السمر. فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق. وقيل: "ووجدك ضالا" ليلة المعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش. وقال أبو بكر الوراق وغيره: "ووجدك ضالا": تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك. وقال بسام بن عبد الله: "ووجدك ضالا" بنفسك لا تدري من أنت، فعرفك بنفسك وحالك. وقال الجنيدي: ووجدك متحيرا في بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه: ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ (النحل: ٤٤) الآية. ﴿ لتبين لـهم الذي اختلفوا فيه ﴾ (النحل: ٦٤). وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: "ووجدك ضالا" أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فهديت بك الخلق إلي.

قلت: هذه الأقوال كلـها حسان، ثم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي. والقول الأخير أعجب إلي؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية. وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يظهر لـهم خلافا على ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يظن به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة. وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره؛ أي وجدك كافرا والقوم كفار فهداك. وقد مضى هذا القول والرد عليه في سورة "الشورى". وقيل: وجدك مغمورا بأهل الشرك، فميزك عنهم. يقال: ضل الماء في اللبن؛ ومنه ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ (السجدة: ١٠) أي لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته. وفي قراءة الحسن "ووجدك ضالٌ فهدى" أي وجدك الضال فاهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير. وقيل: "ووجدك ضالا" لا يهتدي إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قولـه تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

أي فقيرا لا مال لك. ﴿ فأغنى ﴾ أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها؛ يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر. وقال أحيحة بن الجلاح:

فما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يعيل

أي يفتقر. وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من الرزق. وقال الكلبي: قنعك بالرزق. وقال ابن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. وقال الأخفش: وجدك ذا عيال؛ دليلـه "فأغنى". ومنه قول جرير:

الله أنـــزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل: وجدك فقيرا من الحجج والبراهين، فأغناك بها. وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة.

وقراءة العامة "عائلا". وقرأ ابن السميقع "عيلا" بالتشديد؛ مثل طيب وهين.

قولـه تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان: بمعنى. وعن مجاهد "فلا تقهر" فلا تحتقر. وقرأ النخعي والأشهب العقيلي "تكهر" بالكاف، وكذا هو في مصحف ابن مسعود. فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيا عن قهره، بظلمه وأخذ مالـه. وخص اليتيم لأنه لا ناصر لـه غير الله تعالى؛ فغلظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه. والعرب تعاقب بين الكاف والقاف. النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كهره: إذا اشتد عليه وغلظ. وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، حين تكلم في الصلاة برد السلام، قال: فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبلـه ولا بعده أحسن تعليما منه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث. وقيل: القهر الغلبة. والكهر: الزجر.

الثانية: ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. وروي عن أبي هريرة أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه؛ فقال: (إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين). وفي الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (أنا وكافل اليتيم لـه أو لغيره كهاتين). وأشار بالسبابة والوسطى[1]. ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه؟ أن أرضيه يوم القيامة)[2]. فكان ابن عمر إذا رأى يتيما مسح برأسه، وأعطاه شيئاً. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضم يتيما فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان لـه حجابا من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان لـه بكل شعرة حسنة)[3]. وقال أكثم بن صيفي: الأذلاء أربعة: النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي لا تزجره؛ فهو نهي عن إغلاظ القول. ولكن رده ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في "الأدب"، (٦٠٠٥).

(٢) ضعيف.

(٣) "ضعيف جداً" بلفظ: "من ضم يتيما لـه، أو لغيره حتى يغنيه الله عنـه وجبت له الجنة" كما في ضعيف الجامع (٥٦٨١).

قال: (لا يمنعن أحدكم السائل، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قلبين من ذهب). وقال إبراهيم ابن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال: يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء. وروي أن النبي ﷺ قال: (ردوا السائل ببذل يسير، أو رد جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله)[1]. وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدين؛ أي فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين؛ قالـه سفيان. قال ابن العربي: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم، على الكفاية؛ كإعطاء سائل البر سواء. وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لـهم، ويقول: مرحبا بأحبة رسول الله ﷺ. وفي حديث أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: (إن الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا)[2]. وفي رواية (يأتيكم رجال من قبل المشرق)... فذكره. و"اليتيم" و"السائل" منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروي أن النبي ﷺ قال: (سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألـها: قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلانا كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك: خواتيم سورة البقرة، ألم أتخذك خليلا، كما اتخذت إبراهيم خليلا؟ قلت بلى يا رب)[3].

قولـه تعالى: ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "وأما بنعمة ربك" قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوة؛ أي بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام لـه ولغيره. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به، يقول لـه: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا لـه: يا أبا فراس، إن مثلك لا يقول هذا قال يقول الله تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدث" وتقولون أنتم: لا تحدث بنعمة الله، ونحوه عن أيوب السختياني وأبي رجاء العطاردي رضي الله عنه. وقال بكر بن عبد الله المزني قال النبي ﷺ: (من أعطي خيرا فلم ير عليه، سمي بغيض الله، معاديا لنعم الله)[4]. وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال النبي ﷺ: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدث

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف. كما في ضعيف الجامع (١٧٩٧).

(٣) ضعيف.

(٤) ضعيف.

بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب). وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا، فرآني رث الثياب فقال: (ألك مال؟) قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال. قال: (إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك)[١]. وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[٢].

فصل: يُكبر القارئ في رواية البزي عن ابن كثير ـ وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: إذا بلغ آخر "والضحى" كبر بين كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة. وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ أياما، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: الله أكبر. قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبي ﷺ. ولا يكبر في قراءة الباقين؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلا متواترا سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه. ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب المستدرك له على البخاري ومسلم: حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد، المقرئ الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم ابن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت "والضحى" قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت "والضحى" قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

---

(١) صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧)، دون قوله: "ويحب أثر . . . إلخ، وإنما أخرجه الترمذي وغيره بسند حسن كما في صحيح الجامع (١٨٨٧).

سورة الشرح

مكيّة في قول الجميع. وهي ثماني آيات.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

شرح الصدر: فتحه؛ أي ألم نفتح صدرك للإسلام. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ألم نلين لك قلبك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: (نعم وينفسح). قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: (نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت، قبل نـزول الموت)[١]. وقد مضى هذا المعنى في "الزمر" عند قولـه تعالى: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه". وروي عن الحسن قال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ قال: مُلِئ حكما وعلما. وفي الصحيح عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ـ رجل من قومه ـ أن النبي ﷺ قال: (فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول: أحد الثلاثة فأتيت بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا)[٢] قال قتادة قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: (فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة). وفي الحديث قصة. وروي عن النبي ﷺ قال: (جاءني ملكان في صورة طائر، معهما ماء وثلج، فشرح أحدهما صدري، وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله). وفي حديث آخر قال: (جاءني ملك فشق عن قلبي، فاستخرج منه عذرة، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، وأذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك قثم، وأنت قيم). قال أهل اللغة: قولـه (وكيع) أي يحفظ ما يوضع فيه. يقال: سقاء وكيع؛ أي قوي يحفظ ما يوضع فيه. واستوكعت معدته، أي قويت. وقولـه: "قثم" أي جامع. يقال: رجل قثوم للخير؛ أي جامع لـه. ومعنى "ألم نشرح" قد شرحنا؛ الدليل على ذلك قولـه في النسق عليه: "ووضعنا عنك وزرك"، فهذا عطف على التأويل، لا على التنـزيل؛ لأنه لو كان على التنـزيل لقال: ونضع عنك وزرك. فدل هذا على أن معنى "ألم نشرح": قد شرحنا. و"لم" جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق؛ كقولـه تعالى: ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ (التين: ٨). ومعناه: الله أحكـم الحاكمين. وكـذا ﴿ أليس الله بكـاف عبـده ﴾ (الزمر: ٣٦). ومثلـه قـول جرير يمـدح عبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمـين بطون راح

المعنى: أنتم كذا.

قولـه تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ أي حططنا عنك ذنبك. وقرأ أنس "وحللنا، وحططنا". وقرأ ابن مسعود: "وحللنا عنك وقرك". هذه الآية مثل قولـه تعالى: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من

---

(١) ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح: ٢). قيل: الجميع كان قبل النبوة. والوزر: الذنب؛ أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنما ولا وثنا. قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبي ﷺ ذنوب أثقلته؛ فغفرها الله لـه ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي أثقلـه حتى سمع نقيضه؛ أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت لـه صريرا من شدة الحمل. وكذلك سمعت نقيض الرحل؛ أي صريره. قال جميل:

وحتى تداعت بالنقيض حبالـه وهمـت بواني زوره أن تحطما

بواني زوره: أي أصول صدره. فالوزر: الحمل الثقيل. قال المحاسبي: يعني ثقل الوزر لو لم يعف الله عنه. ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي أثقلـه وأوهنه. قال: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة، لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها. وقال السدي: "ووضعنا عنك وزرك" أي وحططنا عنك ثقلك. وهي في قراءة عبد الله بن مسعود "وحططنا عنك وقرك". وقيل: أي حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية. قال الحسين بن المفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها، حتى لا تثقل عليك. وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل. وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس؛ حتى نـزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس.

قولـه تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغـر عليـه للنبـوة خـاتم من الله مشـهود يلـوح ويشـهد

وضـم الإلـه اسـم النبي إلى اسمه إذا قـال في الخمس المؤذن أشهد

وروي عن الضحاك عن ابن عباس، قال: يقول لـه لا ذُكرتُ إلا ذُكرتَ معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيامَ التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولو أن رجلا عبد الله جل ثناؤه، وصدق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمدا رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافرا. وقيل: أي أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنـزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه. وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات.

قولـه تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾

أي إن مع الضيقة والشدة يسرا، أي سعة وغنى. ثم كرر فقال: ﴿ إن مع العسر يسرا ﴾، فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كما يقال: ارم ارم، اعجل اعجل؛ قال الله تعالى: ﴿ كلا سوف

تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون ﴾ (التكاثر: ٣). ونظيره في تكرار الجواب: بلى بلى، لا لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفراء. ومنه قول الشاعر:

هممت بنفسي بعض الهموم فأولى لنفسي أولى لها

وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهو هو. وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب. وقال ابن عباس: يقول الله تعالى خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين. وجاء في الحديث عن النبي ﷺ في هذه السورة: أنه قال: (لن يغلب عسر يسرين)[1]. وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين. وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم، وما يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر رضي الله عنهما: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). وقال قوم منهم الجرجاني: هذا قول مدخول؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفا، إن مع الفارس سيفا، أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنان. والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمدا ﷺ مقلا مخفا، فعيره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالا؛ فاغتم وظن أنهم كذبوه لفقره؛ فعزاه الله، وعدد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: "فإن مع العسر يسرا" أي لا يحزنك ما عيروك به من الفقر؛ فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا؛ أي في الدنيا. فأنجز له ما وعده؛ فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسع ذات يده، حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنة. فهذا الفضل كله من أمر الدنيا؛ وإن كان خاصا بالنبي ﷺ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلا آخرا من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له ﷺ، فقال مبتدئا: "إن مع العسر يسرا" فهو شيء آخر. والدليل على ابتدائه، تعريه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النسق التي تدل على العطف. فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه؛ أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة. وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة. والذي في الخبر: (لن يغلب عسر يسرين) يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا؛ فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: "إن مع العسر" وهو إخراج أهل مكة النبي ﷺ من مكة "يسرا"، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عز وشرف.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فإذا فرغت ﴾ قال ابن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك ﴿ فانصب ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك. وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وقال الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة "فانصب" أي استغفر لذنبك وللمؤمنين

---

(١) "ضعيف"، كما في ضعيف الجامع (٤٧٨٤).

والمؤمنات. وقال الحسن وقتادة أيضا: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة ربك. وعن مجاهد: "فإذا فرغت" من دنياك، "فانصب" في صلاتك. ونحوه عن الحسن. وقال الجنيد: إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق. قال ابن العربي: "ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية "فانصب" بكسر الصاد، والهمز من أوله، وقالوا: معناه: انصب الإمام الذي تستخلفه. وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى؛ لأن النبي ﷺ لم يستخلف أحدا. وقرأها بعض: الجهال "فانصب" بتشديد الباء، معناه: إذا فرغت من الجهاد، فجد في الرجوع إلى بلدك. . وهذا باطل أيضا قراءة، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقوله ﷺ: (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته، فليعجل الرجوع إلى أهله)[١] . وأشد الناس عذابا وأسوأهم مباء ومآبا، من أخذ معنى صحيحا، فركب عليه من قبل نفسه قراءة أو حديثا، فيكون كاذبا على الله، كاذبا على رسوله؛ "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا" . قال المهدوي: وروي عن أبي جعفر المنصور: أنه قرأ "ألم نشرح لك صدرك" بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يؤول على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفا في الوقف، ثم حمل الوصل على الوقف، ثم حذف الألف. وأنشد عليه:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

أراد: اضربن. وروي عن أبي السمال "فإذا فرغت" بكسر الراء، وهي لغة فيه. وقرئ "فرغّب" أي فرغب الناس إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربي: روي عن شريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال ما بهذا أمر الشارع. وفيه نظر، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبي ﷺ ينظر. ودخل أبو بكر في بيت رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: (دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد)[٢] . وليس يلزم الدؤوب على العمل، بل هو مكروه للخلق.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٨٧)، ومسلم (٨٩٢).

سورة التين

مكيّة في قول الأكثر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية، وهي ثماني آيات.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت؛ قال الله تعالى: ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ (المؤمنون: ٢٠). وقال أبو ذر: أهدي للنبي ﷺ سل تين؛ فقال: (كلوا) وأكل منه. ثم قال: (لو قلت إن فاكهة نـزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس)[1]. وعن معاذ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال سمعت النبي ﷺ يقول: (نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفر، وهي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي)[2].

وروي عن ابن عباس أيضا: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي، والزيتون: مسجد بيت المقدس. وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. ابن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس. قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء. وقال كعب الأحبار وقتادة أيضا وعكرمة وابن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس. وهذا اختيار الطبري. وقال الفراء: سمعت رجلا من أهل الشام يقول: التين: جبال ما بين حلوان إلى همذان، والزيتون: جبال الشام. وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لـهما طور زيتا وطور تينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبتانهما. وكذا روى أبو مكين عن عكرمة، قال: التين والزيتون: جبلان بالشام. وقال النابغة:

صهب الظلال أتين التين عن عرض   يزجين غيما قليلا ماؤه شبما

وهذا اسم موضع. ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف؛ أي ومنابت التين والزيتون. ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنـزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ قالـه النحاس.

الثانية: أصح هذه الأقوال الأول؛ لأنه الحقيقة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان ستر آدم في الجنة؛ لقولـه تعالى: ﴿ يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (الأعراف: ٢٢) وكان ورق التين. وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه؛ فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجني، على قدر المضغة. وقد أحسن القائل فيه:

انظر إلى التين في الغصون ضحى   ممزق الجلد مائل العنق
كأنه رب نعمة سلبت   فعاد بعد الجديد في الخلق
أصغر ما في النهود أكبره   لكن ينادى عليه في الطرق

---

(١) ضعيف. انظر ضعيف الجامع (٤٢٠١).

(٢) ضعيف.

وقال آخر :

التين يعدل عندي كل فاكهة إذا انثنى مائلا في غصنه الزاهي
مخمش الوجه قد سالت حلاوته كأنه راكع من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾ (النور: ٣٥). وهو أكثر أدَم أهل الشام والمغرب؛ يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة. وقالﷺ: (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة)[1] . وقد مضى في سورة "المؤمنون" القول فيه.

الثالثة: قال ابن العربي ولامتنان الباري سبحانه، وتعظيم المنة في التين، وأنه مقتات مدخر فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه. وإنما فرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه، تقية جور الولاة؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرما، حسب ما أنذر به الصادقﷺ. فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال آخر يتشططون فيه، ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه، بأداء حقه. وقد قال الشافعي لهذه العلة وغيرها: لا زكاة في الزيتون. والصحيح وجوب الزكاة فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد "وطور" قال: جبل. "سينين" قال: مبارك بالسريانية. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: "طور" جبل، و"سينين" حسن. وقال قتادة: سينين هو المبارك الحسن. وعن عكرمة قال: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسىعليه السلام. وقال مقاتل والكلبي: "سينين" كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين وسيناء؛ بلغة النبط وعن عمرو بن ميمون قال: صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة، فقرأ "والتين والزيتون. وطور سيناء. وهذا البلد الأمين" قال: وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيما للبيت. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ (الفيل: ١). و﴿ لإيلاف قريش﴾ (قريش: ١) جمع بينهما. ذكره ابن الأنباري. النحاس: وفي قراءة عبد الله "سيناء" (بكسر السين)، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر (بفتح السين). وقال الأخفش: "طور" جبل. و"سينين" شجر، واحدته سينينية. وقال أبو علي: "سينين" فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زحليل: للمكان الزلق، وكرديدة: للقطعة من التمر، وخنذيذ: للطويل. ولم ينصرف "سينين" كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسما لبقعة أو أرض، ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكرا بمذكر. وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال: ﴿ إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ (الإسراء: ١).

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾

يعني مكة. سماه أمينا لأنه آمن؛ كما قال: ﴿ أنا جعلنا حرما آمنا﴾ (العنكبوت: ٦٧) فالأمين: بمعنى الآمن؛ قاله الفراء وغيره. قال الشاعر:

---

(١) ضعيف، بنحوه في ضعيف الجامع (٤٢٠٣).

ألم تعلمي يا أسم ويحك أنني حلـــفت يمينا لا أخون أميني

يعني: آمني. وبهذا احتج من قال: إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدس. فأقسم الله بجبل دمشق، لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس، لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان ﴾هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان: الكافر. قيل: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: كلدة بن أسيد. فعلى هذا نـزلت في منكري البعث. وقيل: المراد بالإنسان آدم وذريته. ﴿ في أحسن تقويم ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه، وخلقه هو مستويا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها. وقال أبو بكر بن طاهر: مُزيناً بالعقل، مُؤدياً للأمر، مَهدياً بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده. ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيا عالما، قادرا مريدا متكلما، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: "إن الله خلق آدم على صورته"[1] يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها. وفي رواية "على صورة الرحمن" ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني. وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما: أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني. وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعا عظيما؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم. فقال جميع من حضر: قد طلقت؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتا. فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: "والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه. فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا وظاهرا، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول؛ قاله الضحاك والكلبي وغيرهما. وروى

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

ابن أبي نجيح عن مجاهد: "ثم رددناه أسفل سافلين" إلى النار، يعني الكافر، وقاله أبو العالية. وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (النازعات: ٢٤) وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين؛ بأن جعلـه مملوءا قذرا، مشحونا نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره. وقرأ عبد الله "أسفل السافلين". وقال: "أسفل سافلين" على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال: أسفل سافل جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد. وتقول: هذا أفضل قائم. ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مضمر لـه، رجع اسمه بالتوحيد والجمع؛ كقولـه تعالى: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ (الزمر: ٣٣). وقولـه تعالى: ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة ﴾ (الشورى: ٤٨). وقد قيل: إن معنى "رددناه أسفل سافلين" أي رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى: "إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" أي إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك. والاستثناء على قول من قال "أسفل سافلين": النار، متصل. ومن قال: إنه الهرم فهو منقطع.

قولـه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنه تكتب لـهم حسناتهم، وتمحى عنهم سيئاتهم؛ قالـه ابن عباس. قال: وهم الذين أدركهم الكبر، لا يؤاخذون بما عملوه في كبرهم. وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة، ثم ضعف عما كان يعمل في شبابه؛ أجرى الله عز وجل لـه ما كان يعمل في شبابه. وفي حديث قال النبي ﷺ: (إذا سافر العبد أو مرض كتب الله لـه مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا)[١]. وقيل: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" فإنه لا يخرف ولا يهرم، ولا يذهب عقل من كان عالما عاملا به. وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال (طوبى لمن طال عمره وحسن عملـه)[٢]. وروي: إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله ملكيه أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب لـه ذلك. ﴿ فلـهم أجر غير ممنون ﴾ قال الضحاك: أجر بغير عمل. وقيل مقطوع.

قولـه تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾

قيل: الخطاب للكافر؛ توبيخا وإلزاما للحجة. أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي استيقن مع ما جاءك من الله عز

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).
(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٩٢٨).

وجل، أنه أحكم الحاكمين. روي معناه عن قتادة. وقال قتادة أيضا والفراء: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين. واختاره الطبري. كأنه قال: فمن يقدر على ذلك؛ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء. قال الشاعر:

دنا تميما كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم في سالف الزمن

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

أي أتقن الحاكمين صنعا في كل ما خلق. وقيل: "بأحكم الحاكمين" قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق. وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم. وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجابا، كما قال:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقيل: "فما يكذبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين": منسوخة بآية السيف. وقيل: هي ثابتة؛ لأنه لا تنافي بينهما. وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا: "أليس الله بأحكم الحاكمين" قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك. والله أعلم. ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال: من قرأ سورة "والتين والزيتون" فقرأ "أليس الله بأحكم الحاكمين" فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. والله أعلم.

سورة العلق

وهي مكيّة بإجماع، وهي أوّل ما نُزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشة رضي الله عنهما. وهي تسع عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين. نزل بها جبريل على النبي ﷺ وهو قائم على حراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة. وقيل: إن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ (المدثر: ١)، قالـه جابر بن عبد الله؛ وقد تقدم. وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل؛ قالـه أبو ميسرة الـهمداني. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: أول ما نزل من القرآن ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ (الأنعام: ١٥١) والصحيح الأول. قالت عائشة: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة؛ فجاءه الملك فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم". خرّجه البخاري.

وفي الصحيحين عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهلـه ويتزود لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلـها؛ حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: (اقرأ): فقال: (ما أنا بقارئ ـ قال ـ فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني) فقال: (اقرأ) فقلت: (ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم") الحديث بكاملـه. وقال أبو رجاء العطاردي: وكان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد: مسجد البصرة، فيقعدنا حلقا، فيقرئنا القرآن؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين لـه أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: "اقرأ باسم ربك الذي خلق". وكانت أول سورة أنزلـها الله على محمد ﷺ. وروت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها "ن والقلم"، ثم بعدها "يا أيها المدثر" ثم بعدها "والضحى" ذكره الماوردي. وعن الزهري: أول ما نزل سورة: "اقرأ باسم ربك ـ إلى قولـه ـ ما لم يعلم"، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل فقال لـه: (إنك نبي الله) فرجع إلى خديجة وقال: (دثروني وصبوا عليّ ماء باردا) فنزل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ (المدثر: ١). ومعنى "اقرأ باسم ربك" أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة. فمحل الباء من "باسم ربك" النصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم ربك. يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله. وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول: "اقرأ باسم ربك" أي اسم ربك، والباء زائدة؛ كقولـه تعالى ﴿ تنبت بالدهن ﴾ (المؤمنون: ٢٠)، وكما قال:

سود المحاجر لا يقرأن بالسور

أراد: لا يقرأن السور. وقيل: معنى "اقرأ باسم ربك" أي اذكر اسمه. أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله.

قولـه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ خلق الإنسان ﴾ يعني ابن آدم. ﴿ من علق ﴾ أي من دم؛ جمع علقة، والعلقة الدم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: "من علق" فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلـهم خلقوا من علق بعد النطفة. والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة. قال الشاعر:

تركناه يخـر علـى يديه يمج عليهما علق الوتين

وخص الإنسان بالذكر تشريفا لـه. وقيل: أراد أن يبين قدر نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مهينة، حتى صار بشرا سويا، وعاقلا مميزا.

قولـه تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ اقرأ ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿ وربك الأكرم ﴾ أي الكريم. وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم. والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه، دل بها على كرمه. وقيل: "اقرأ وربك" أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارئ. و"الأكرم" بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ يعني الخط والكتابة؛ أي علم الإنسان الخط بالقلم. وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلـهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. وسمي قلما لأنه يقلم؛ أي يقطع، ومنه تقليم الظفر. وقال بعض الشعراء المحدثين يصف القلم:

فكأنـه والحبر يخضب رأسه شيخ لوصل خريدة يتصنع

لـم لا ألاحظـه بعين جلالة وبه إلى الله الصحائف ترفع

وعن عبد الله بن عمر قال: يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: (نعم فاكتب، فإن الله علم بالقلم). وروى مجاهد عن ابن عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه السلام. وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه آدم عليه السلام؛ لأنه أول من كتب، قالـه كعب الأحبار. الثاني: أنه إدريس، وهو أول من كتب. قاله الضحاك. الثالث: أنه أدخل كل من كتب بالقلم؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه، وبين نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالا للنعمة عليه.

الثانية: صح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، قال: (لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي)[١]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: (أول ما خلق الله: القلم، فقال لـه اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه)[٢]. وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول: يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب أجلـه، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص)، وقال تعالى: ﴿إن عليكم لحافظين. كراما كاتبين﴾[٣] (الانفطار: ١٠).

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأول: الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب. والقلم الثاني: أقلام الملائكة، جعلـها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والقلم الثالث: أقلام الناس، جعلـها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدمي.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفة به المصطفى ﷺ؛ صرف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبينا في سورة "العنكبوت". وروى حماد بن سلمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة)[٤] قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبي ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغرف تطلعا إلى الرجل؛ وليس في ذلك تحصين لـهن ولا تستر. وذلك أنهن لا يملكن أنفسهن حتى يشرفن على الرجل؛ فتحدث الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لـهن غرفا ذريعة إلى الفتنة. وهو كما قال رسول الله ﷺ: (ليس للنساء خير لـهن من ألا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال)[٥]. وذلك أنها خلقت من الرجل، فنهمتها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجعلت سكنا لـه، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه. وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببا للفتنة، وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى. والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده. وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان. فأحب رسولـه ﷺ أن ينقطع عنهن أسباب الفتنة؛ تحصينا لـهن، وطهارة لقلوبهن.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه الترمذي بلفظ: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: ما أكتب! قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد" كما في صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٤) ضعيف.

(٥) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

قيل: "الإنسان" هنا آدم عليه السلام. علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قولـه تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلـها". فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما علمه. وبذلك ظهر فضلـه، وتبين قدره، وثبتت نبوته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجته، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر. ثم توارثت ذلك ذريته خلفا بعد سلف، وتناقلوه قوما عن قوم. وقد مضى هذا في سورة "البقرة" مستوفى والحمد لله. وقيل: "الإنسان" هنا الرسول محمد ﷺ؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ (النساء: ١١٣). وعلى هذا فالمراد بـ "علمك" المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عام لقولـه تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ (النحل: ٧٨).

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ قيل: إنه نزل في أبي جهل. وقيل: نزلت السورة كلـها في أبي جهل؛ نهى النبي ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب. وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل. ويجوز أن يكون خمس آيات من أولـها أول ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قولـه تعالى: ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ (البقرة: ٢٨١) آخر ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبلـه بزمان طويل. و"كلا" بمعنى حقا؛ إذ ليس قبلـه شيء. والإنسان هنا أبو جهل. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان. ﴿ أن رآه ﴾ أي لأن رأى نفسه استغنى؛ أي صار ذا مال وثروة. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من استغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهبا، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: (يا محمد خيرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه: فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة). فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكف عنهم إبقاء عليهم. وقيل: "أن رآه استغنى" بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قولـه "أن رآه" كما يقال: إنكم لتطغون إن رأيتم غناكم. وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسما وخبرا، نحو الظن والحسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد. والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى تراك خارجا، ومتى تظنك خارجا. وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ابن كثير "أن رآه استغنى" بقصر الـهمزة. الباقون "رآه" بمدها، وهو الاختيار.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾

أي مرجع من هذا وصفه، فنجازيه. والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعا ومرجعا. ورجعى؛ على وزن فعلى.

قولـه تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عبدا ﴾ وهو محمد ﷺ. فإن أبا جهل قال: إن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه؛ قالـه أبو هريرة. فأنزل الله هذه الآيات تعجبا منه. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أمن هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

قولـه تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾

أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكا؟

قولـه تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ ﴾

يعني أبا جهل كذب بكتاب الله عز وجل، وأعرض عن الإيمان. وقال الفراء: المعنى "أرأيت الذي ينهى. عبدا إذا صلى" وهو على الـهدى، وأمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الذكر؛ أي فما أعجب هذا! ثم يقول: ويلـه ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي يراه ويعلم فعلـه؛ فهو تقرير وتوبيخ. وقيل: كل واحد من "أرأيت" بدل من الأول. و "ألم يعلم بأن الله يرى" الخبر.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ ﴾

قولـه تعـالى: ﴿ كلا لئن لـم ينته ﴾ أي أبو جهـل عـن أذاك يا محمـد. ﴿ لنسفعا ﴾ أي لنأخـذن ﴿ بالناصية ﴾ فلنذلنه. وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتطوى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ (الرحمن: ٤١). فالآية - وإن كانت في أبي جهل - فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة. وأهل اللغة يقولون: سفعت بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا. ويقال: سفع بناصية فرسه. قال:

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع

وقيل: هو مأخوذ من سفعته النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أثافـي سـفعا فـي معـرس مرجل ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

والناصية: شعر مقدم الرأس. وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان. وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلالـه وإهانته أخذوا بناصيته. وقال المبرد: السفع: الجذب بشدة؛ أي لنجرن بناصيته إلى النار. وقيل: السفع الضرب؛ أي لنلطمن وجهه. وكلـه متقارب المعنى. أي يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجر إلى جهنم. ثم قال على البدل: ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي ناصية أبي جهل كاذبة في قولـها، خاطئة في فعلـها. والخاطئ معاقب مأخوذ. والمخطئ غير مأخوذ. ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة، كوصف الوجوه بالنظر في قولـه تعالى: ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة: ٢٣). وقيل: أي صاحبها كاذب خاطئ؛ كما يقال: نهاره صائم، وليلـه قائم؛ أي هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليلـه.

قولـه تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم. ﴿ سندع الزبانية ﴾ أي الملائكة الغلاظ الشداد ـ عن ابن عباس وغيره ـ واحدهم زبني؛ قالـه الكسائي. وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زبنية. وقيل: زباني. وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد. وقال قتادة: هم الشرط في كلام العرب. وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع؛ ومنه المزابنة في البيع. وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلـهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السمرقندي ـ رحمه الله ـ قال: وروي في الخبر أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قولـه تعالى: "لنسفعا بالناصية" قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك. فقال الله تعالى: "فليدع ناديه، سندع الزبانية". فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعا؛ فقيل لـه: خشيت منه! قال لا! ولكن رأيت عنده فارسا يهددني بالزبانية. فما أدري ما الزبانية، ومال إلي الفارس، فخشيت منه أن يأكلني. وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلـهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خلقا، وأشدهم بطشا. والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه. قال الشاعر:

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى   زبانيـة غلـب عظـام حلومـهـا

وعن عكرمة عن ابن عباس: "سندع الزبانية" قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه. فقال النبي ﷺ: (لو فعل لأخذته الملائكة عيانا)[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام، فقال: ألـم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ لـه رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد، والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديا؛ فأنزل الله عز وجل: "فليدع ناديه. سندع الزبانية". قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته. أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح. والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

لـهم مجلس صهب السبال أذلة

وقال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم

وقال آخر:

واستب بعدك يا كليب المجلس

وقد ناديت الرجل أناديه إذا جالسته. قال زهير:

وجار البيت والرجل المنادي   أمـام الحـي عقدهـما سـواء

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل. ﴿ لا تطعه ﴾ أي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة. ﴿ واسجد ﴾ أي صل لله ﴿ واقترب ﴾ أي تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٨) وغيره.

وقيل: المعنى: إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء. روى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جبهته في الأرض ساجدا لله)[(١)].

قال علماؤنا: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غاية العزة، ولـه العزة التي لا مقدار لـها؛ فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره. وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: (أما الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم)[(٢)]. ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرقاب تواضعا   منا إليـك فعـزهـا في ذلـها

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصليا، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قولـه تعالى: ﴿ واسجد ﴾ هذا من السجود. يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة. قال ابن العربي: "والظاهر أنه سجود الصلاة" لقولـه تعالى: "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ـ إلى قولـه ـ كلا لا تطعه واسجد واقترب"، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (الانشقاق: ١)، وفي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾[(٣)] (العلق: ١) سجدتين، فكان هذا نصا على أن المراد سجود التلاوة. وقد روى ابن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: عزائم السجود أربع: "ألم" و"حم تنزيل من الرحمن الرحيم" و"النجم" و"اقرأ باسم ربك". وقال ابن العربي: وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة "الحج"، وإن كان مقترنا بالركوع؛ لأنه يكون معناه اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود. وقد قال ابن نافع ومطرف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من "اقرأ باسم ربك" وابن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال: لما أنزل الله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ (العلق: ١) قال رسول الله ﷺ لمعاذ: (اكتبها يا معاذ) فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون ـ وهي الدواة ـ فكتبها معاذ؛ فلما بلغ "كلا لا تطعه واسجد واقترب" سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ارفع به ذكرا، اللهم احطط به وزرا، اللهم اغفر به ذنبا. قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد[(٤)].

ختمت السورة. والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى. ولـه الحمد والمنة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).
(٣) أخرجه مسلم (٥٧٨).
(٤) لا يصح.

سورة القدر

وهي مدنية في قول أكثر المفسرين، ذكره الثعلبي وحكى الماورديّ عكسه.

قلت: وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولي ابن عباس. وذكر الواقدي أنّها أوّل سورة نزلت بالمدينة. وهي خمس آيات.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنا أنزلناه ﴾ يعني القرآن، وإن لم يجر لـه ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كلـه كالسورة الواحدة. وقد قال: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال: ﴿ حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ (الدخان: ٣) يريد: في ليلة القدر. وقال الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزالـه في ليلة القدر. وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان جبريل ينزلـه على النبي ﷺ نجوما نجوما. وكان بين أولـه وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس، وقد تقدم في سورة "البقرة". وحكى الماوردي عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة. قال ابن العربي: "وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة".

قولـه تعالى: ﴿ في ليلة القدر ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحكم. ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ قال: ليلة الحكم. والمعنى ليلة التقدير؛ سمّيت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلـها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره. ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل. عليهم السلام. وعن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج. قال عكرمة: يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم. وقالـه سعيد بن جبير. وقد مضى في أول سورة "الدخان" هذا المعنى. وعن ابن عباس أيضا: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولـهم: لفلان قدر؛ أي شرف ومنزلة. قاله الزهري وغيره. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما، وثوابا جزيلا. وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن لـه قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر. وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوي قدر وخطر. وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقولـه تعـالى: ﴿ من قدر عليه رزقه ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضيق. قال الفراء: كل ما في القرآن من قولـه تعالى: "وما

أدراك" فقد أدراه. وما كان من قوله: ﴿ وما يدريك ﴾ (الأحزاب: ٦٣) فلم يدره. وقاله سفيان، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ بيَّن فضلها وعظمها. وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر. وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ (البقرة: ٩٦) يعني جميع الدهر. وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما. وقال ابن مسعود: إن النبي ﷺ ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت ﴿ إنا أنزلناه ﴾ (الدخان: ٣) الآية. "خير من ألف شهر"، التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس. وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريبا منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحيي بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطش، انفجر له من اللحيين ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أعطي قوة في البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره: وكان اسمه شمسون. وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملكا في بني إسرائيل، فعل خصلة واحدة، فأوحى الله إلى نبي زمانهم: قل لفلان يتمنى. فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي، فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهدا في سبيل الله، فيقوم شهرا ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل، صائم النهار؛ فقتل الألف ولد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى: "ليلة القدر خير من ألف شهر" من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد في سبيل الله. وقال عليّ وعروة: ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، فقال (عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوه طرفة عين)؛ فذكر أيوب وزكريا، وحزقيل ابن العجوز ويوشع بن نون؛ فعجب أصحاب النبي ﷺ من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ: "إنا أنزلناه في ليلة القدر". فسر بذلك رسول الله ﷺ.[1] وقال مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أري أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر. وفي الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ

(١) ضعيف.

أري بني أمية على منبره، فساءه ذلك؛ فنزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ (الكوثر: ١)، يعني نهرا في الجنة. ونزلت "إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر" يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحداني: فعددناها، فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوما[١]، ولا تنقص يوما. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تنزل الملائكة ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى؛ ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: "تنزل الملائكة". ﴿ والروح فيها بإذن ربهم ﴾ أي جبريل عليه السلام. وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة، جعلوا حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره الماوردي وحكى القشيري: قيل هم صنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيد وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: "الروح" خلق عظيم يقوم صفا، والملائكة كلهم صفا. وقيل: "الروح" الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ (النحل: ٢)، أي بالرحمة. ﴿ فيها ﴾ أي في ليلة القدر. ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي بأمره. ﴿ من كل أمر ﴾ أمر بكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ (الرعد: ١١) أي بأمر الله. وقراءة العامة "تنزل" بفتح التاء؛ إلا أن البزي شدد التاء. وقرأ طلحة بن مصرف وابن السميقع، بضم التاء على الفعل المجهول. وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي "من كل امرئ". وروي عن ابن عباس أن معناه: من كل ملك؛ وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كل امرئ مسلم. "فمن" بمعنى على. وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: (إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى)[٢].

قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

قيل: إن تمام الكلام "من كل أمر" ثم قال ﴿ سلام ﴾. روي ذلك عن نافع وغيره؛ أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها. ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أي إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة. وقيل: أي هي سلام؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف.

الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى. وروي مرفوعا. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها. وقال قتادة: "سلام هي": خير هي. "حتى مطلع الفجر" أي إلى مطلع الفجر. وقرأ الكسائي وابن محيصن "مطلع" بكسر اللام، الباقون بالفتح. والفتح والكسر: لغتان في المصدر. والفتح الأصل في فعل يفعل؛ نحو المقتل والمخرج. والكسر على أنه مما شذ عن قياسه؛ نحو المشرق والمغرب والمنبت والمسكن والمنسك والمحشر والمسقط والمجزر. حكي في ذلك كلـه الفتح والكسر، على أن يراد به المصدر لا الاسم.

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك. والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر. فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس؛ ثم حلف لا يستثني: أنها ليلة سبع وعشرين. قال قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لـها. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وخرجه مسلم[١]. وقيل: هي في شهر رمضان دون سائر العام؛ قالـه أبو هريرة وغيره. وقيل: هي في ليالي السنة كلـها. فمن علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العتق والطلاق إلا بعد مضي سنة من يوم حلف. لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضي حول. وكذلك العتق؛ وما كان مثلـه من يمين أو غيره. وقال ابن مسعود: من يقم الحول يصبها؛ فبلغ ذلك ابن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن! أما إنه علم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس. وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة. وقيل عنه: إنها رفعت ـ يعني ليلة القدر ـ وأنها إنما كانت مرة واحدة؛ والصحيح أنها باقية. وروي عن ابن مسعود أيضا: أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر. والجمهور على أنها في كل عام من رمضان. ثم قيل: إنها الليلة الأولى من الشهر؛ قاله أبو رزين العقيلي. وقال الحسن وابن إسحاق وعبد الله بن الزبير: هي ليلة سبع عشرة من رمضان، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر. كأنهم نزعوا بقولـه تعالى: ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ (الأنفال: ٤١)، وكان ذلك ليلة سبع عشرة، وقيل هي ليلة التاسع عشر. والصحيح المشهور: أنها في العشر الأواخر من رمضان؛ وهو قول مالك والشافعي والأوزاعي وأبي ثور وأحمد. ثم قال قوم: هي ليلة الحادي والعشرين. ومال إليه الشافعي رضي الله عنه، لحديث الماء والطين ورواه أبو سعيد الخدري، خرجه مالك وغيره. وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٢).

قال: يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى. فقال النبي ﷺ: (أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين)[١]. قال معمر: فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين). قال عبد الله بن أنيس: فرأيته في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين، كما أخبر رسول الله ﷺ.[٢] وقيل: ليلة خمس وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: (التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى)[٣]. رواه مسلم، قال مالك: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين. وقيل: ليلة سبع وعشرين. وقد مضى دليله، وهو قول علي ﷺ وعائشة ومعاوية وأبيّ بن كعب. وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (من كان متحريا ليلة القدر، فليتحرها ليلة سبع وعشرين).

وقال أبيّ بن كعب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليلة القدر ليلة سبع وعشرين)[٤]. وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي. وأيضا فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين. وقيل: هي ليلة تسع وعشرين؛ لما روي أن النبي ﷺ قال: "ليلة القدر التاسعة والعشرون - أو السابعة والعشرون - وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى"[٥]. وقد قيل: إنها في الأشفاع. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة، ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي. وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان، طمعا في إدراكها، كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أن الشمس، تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبي ﷺ في ليلة القدر: (إن من أماراتها: أنها ليلة سمحة بلجة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع)[٦]. وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذبا سلسا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢١)، ومسلم (١١٦٧).
(٤) صحيح، انظر صحيح الجامع (٥٤٧٤).
(٥) حسن، انظر صحيح الجامع (٥٤٧٣).
(٦) صحيح، بنحوه في صحيح الجامع (٥٤٧٥).

الثالثة: في فضائلـها. وحسبك بقولـه تعالى: "ليلة القدر خير من ألف شهر" وقولـه تعالى: "تنزل الملائكة والروح فيها". وفي الصحيحين: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر الله لـه ما تقدم من ذنبه)[١] رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: (إذا كان ليلة القدر، تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى، منهم جبريل، ومعهم ألوية ينصب منها لواء على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طور سيناء، ولا تدع فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا تسلم عليه، إلا مدمن الخمر، وآكل الخنزير، والمتضمخ بالزعفران)[٢]: وفي الحديث: (إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها، ولا يستطيع أن يصيب فيها أحدا بخبل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر). وقال الشعبي: وليلـها كيومها، ويومها كليلـها. وقال الفراء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدر في غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدم عن الضحاك. ومثلـه لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيب في الموطأ: (من شهد العشاء من ليلة القدر، فقد أخذ بحظه منها)، ومثلـه لا يدرك بالرأي. وقد روى عبيد الله بن عامر بن ربيعة: أن رسول الله ﷺ قال: (من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر)[٣] ذكره الثعلبي في تفسيره. وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: (قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[٤].

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) ضعيف.

(٣) ضعيف.

(٤) صحيح.

سورة البينة

مقدمة السورة:

وقد جاء في فضلها حديث لا يصح، رويناه عن محمد بن محمد بن عبد الله الحضرمي قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نمير: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب، فاكتب عنه فإنه قد كتب، فذهب إليه، فقال: حدثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: (لو يعلم الناس ما في "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب" لعطلوا الأهل والمال، فتعلموها) فقال رجل من خزاعة: وما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال: (لا يقرؤها منافق أبدا، ولا عبد في قلبه شك في الله. والله إن الملائكة المقربين يقرؤونها منذ خلق الله السموات والأرض ما يفترون من قراءتها. وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة)[١]. قال الحضرمي: فجئت إلى أبي عبد الرحمن بن نمير، فألقيت هذا الحديث عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونته، فلا تعد إليه. قال ابن العربي: "روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب: عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: (لو يعلم الناس ما في لم يكن الذين كفروا لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها). حديث باطل؛ وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك "لم يكن الذين كفروا" قال: وسماني لك؟! قال "نعم" فبكى)[٢]. قلت: خرجه البخاري ومسلم. وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم. قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبيّ، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة. وقيل: لأن أبيا كان أسرع أخذا لألفاظ رسول الله ﷺ؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره. وفيه فضيلة عظيمة لأبيّ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه. قال أبو بكر الأنباري: وحدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد؛ قال حدثنا علي بن الجعد، قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زر بن حبيش قال: في قراءة أبيّ بن كعب: ابن آدم لو أعطي واديا من مال لالتمس ثانيا ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. قال عكرمة: قرأ عليٌّ عاصم "لم يكن" ثلاثين آية، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطل عند أهل العلم، لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبيّ بن كعب، لا يقرأ فيها هذا المذكور في "لم يكن" مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ، على أنه من كلام الرسول ﷺ، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماع: أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ كذا قراءة العامة، وخط المصحف. وقرأ ابن مسعود "لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين" وهذه قراءة على التفسير. قال ابن العربي: "وهي جائزة في

(١) باطل كما قال المصنف.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

معرض البيان لا في معرض التلاوة؛ فقد قرأ النبي ﷺ في رواية الصحيح "فطلقوهن لقبل عدتهن" وهو تفسير؛ فإن التلاوة: هو ما كان في خط المصحف.

قوله تعالى: ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ في موضع جر عطفا على "أهل الكتاب". قال ابن عباس "أهل الكتاب": اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش. ﴿ منفكين ﴾ أي منتهين عن كفرهم، مائلين عنه. ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي أتتهم البينة؛ أي محمد ﷺ. وقيل: الانتهاء بلوغ الغاية أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة. فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء. وقيل: "منفكين" زائلين؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول. والعرب تقول: ما انفككت أفعل كذا: أي ما زلت. وما انفك فلان قائما. أي ما زال قائما. وأصل الفك: الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفك الخلخال، وفك السالم. قال طرفة:

فآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب رقيق الشفرتين مهند

وقال ذو الرمة:

حراجيج ما تنفك إلا مناخة على الخسف أو نرمي بها بلدا قفرا

يريد: ما تنفك مناخة؛ فزاد "إلا". وقيل: "منفكين": بارحين؛ أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة. وقال ابن كيسان: أي لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم، حتى بعث؛ فلما بعث حسدوه وجحدوه. وهو كقوله: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ (البقرة: ٨٩). ولهذا قال: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ (البينة: ٤)... الآية. وعلى هذا فقوله: "والمشركين" أي ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ، حتى بعث؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبعث إليهم، فحينئذ عادوه. وقال بعض اللغويين: "منفكين" هالكين من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة؛ وهو أن ينفصل، فلا يلتئم فتهلك. المعنى: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب. وقال قوم في المشركين: إنهم من أهل الكتاب؛ فمن اليهود من قال: عزير ابن الله. ومن النصارى من قال: عيسى هو الله. ومنهم من قال: هو ابنه. ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون ولدوا على الفطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: "والمشركين". وقيل: المشركون وصف أهل الكتاب أيضا، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبهة؛ والكل شرك. وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم، تصفهم بالأمرين. فالمعنى: من أهل الكتاب المشركين. وقيل: إن الكفر هنا هو الكفر بالنبي ﷺ؛ أي لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون، الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم - وهم الذين ليس لهم كتاب - منفكين. قال القشيري: وفيه بعد؛ لأن الظاهر من "حتى تأتيهم البينة. رسول من الله" أن هذا الرسول هو محمد ﷺ. فيبعد أن يقال: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال:

أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ـ وإن كانوا من قبل معظمين لـه، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمدا إليهم ويبين لـهم الآيات؛ فحينئذ يؤمن قوم. وقرأ الأعمش وإبراهيم "والمشركون" رفعا، عطفا على "الذين". والقراءة الأولى أبين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب. وفي حرف أبيّ: "فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين". وفي مصحف ابن مسعود: "لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين". وقد تقدم. ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ قيل حتى أتتهم. والبينة: محمد ﷺ.

قولـه تعالى: ﴿ رسول من الله ﴾ أي بعيث من الله جل ثناؤه. قال الزجاج: "رسول" رفع على البدل من "البينة". وقال الفراء: أي هي رسول من الله، أو هو رسول من الله؛ لأن البينة قد تذكر فيقال: بينتي فلان. وفي حرف أبيّ وابن مسعود "رسول" بالنصب على القطع. ﴿ يتلو ﴾ أي يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوة. ﴿ صحفا ﴾ جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب. ﴿ مطهرة ﴾ قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب، والشبهات. والكفر؛ والمعنى واحد. أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أميا، لا يكتب ولا يقرأ. و"مطهرة": من نعت الصحف؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة ﴾ (عبس: ١٣)، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن. وقيل: "مطهرة" أي ينبغي ألا يمسها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة "الواقعة" حسب ما تقدم بيانه. وقيل: الصحف المطهرة: هي التي عند الله في أم الكتاب، الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿ بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ ﴾ (البروج: ٢٢). قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء. ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة؛ من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح. وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب؛ فكيف قال في صحف فيها كتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عز وجل: ﴿ كتب الله لأغلبن ﴾ (المجادلة: ٢١) بمعنى حكم. وقال ﷺ: (والله لأقضين بينكما بكتاب الله)[1] ثم قضى بالرجم، وليس ذكر الرجم مسطورا في الكتاب؛ فالمعنى: لأقضين بينكما بحكم الله تعالى. وقال الشاعر:

وما الولاء بالبلاء فملتم   وما ذاك قال الله إذ هو يكتب

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن؛ فجعلـه كتبا لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى. خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب لـه أدخل في هذا الوصف. ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أي: أتتهم البينة

(١) أخرجاه في الصحيحين.

الواضحة. والمعني به محمد ﷺ؛ أي: القرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر: بغيا وحسدا، ومنهم من آمن؛ كقوله تعالى: ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ (الشورى: ١٤). وقيل: "البينة": البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل. قال العلماء: من أول السورة إلى قوله ﴿ قيمة ﴾ (البينة: ٥): حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين. وقوله: "وما تفرق": حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أمروا ﴾ أي وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أي ليوحدوه. واللام في "ليعبدوا" بمعنى "أن"؛ كقوله: ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ (النساء: ٢٦) أي أن يبين. و﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ (الصف: ٨). و﴿ أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ (الأنعام: ٧١). وفي حرف عبد الله: "وما أمروا إلا أن يعبدوا الله". ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ (الزمر: ١١﴾. وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

قوله تعالى: ﴿ حنفاء ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السلام. وقيل: الحنيف: من اختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير. قال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام؛ أي مال إليه. ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ أي بحدودها في أوقاتها. ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ أي يعطوها عند محلها. ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أي: ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة؛ أي الدين المستقيم. وقال الزجاج: أي ذلك دين الملة المستقيمة. و"القيمة": نعت لموصوف محذوف. أو يقال: دين الأمة القيمة بالحق؛ أي القائمة بالحق. وفي حرف عبد الله "وذلك الدين القيم". قال الخليل: "القيمة" جمع القيم، والقيم والقائم: واحد. وقال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته، لاختلاف اللفظين. وعنه أيضا: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة. وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة. وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: "القيمة" ها هنا: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ "المشركين": معطوف على "الذين"، أو يكون مجرورا معطوفا على "أهل". ﴿ في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر

البرية ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بالـهمز على الأصل في الموضعين؛ من قولـهم: برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق، وقال: ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ (الحديد: ٢٢). الباقون بغير همز، وشد الياء عوضا منه. قال الفراء: إن أخذت البرية من البرى، وهو التراب، فأصلـه غير الـهمز؛ تقول منه: براه الله يبروه بروا؛ أي خلقه. قال القشيري: ومن قال البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البرية: من بريت القلم، أي قدرته؛ فتدخل فيه الملائكة. ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز. وقولـه "شر البرية" أي شر الخليقة. فقيل يحتمل أن يكون على التعميم. وقال قوم: أي هم شـر البريـة الذيـن كانوا في عصر النبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ (البقرة: ٤٧) أي على عالمي زمانكم. ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شر منهم؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح. وكذا "خير البرية": إما على التعميم، أو خير برية عصرهم. وقد استدل بقراءة الـهمز من فضل بني آدم على الملائكة، وقد مضى في سورة "البقرة" القول فيه. وقال أبو هريرة ﷺ: المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده.

قولـه تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ جزاؤهم ﴾ أي ثوابهم. ﴿ عند ربهم ﴾ أي خالقهم ومالكهم. ﴿ جنات ﴾ أي بساتين. ﴿ عدن ﴾ أي إقامة. والمفسرون يقولون: "جنات عدن" بطنان الجنة، أي وسطها؛ تقول: عدن بالمكان يعدن (عدنا وعدونا): أقام. ومعدن الشيء: مركزه ومستقره. قال الأعشى:

وإن يستضافوا إلى حكمه يضافوا إلى راجح قد عدن

﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ لا يظعنون ولا يموتون. ﴿ رضي الله عنهم ﴾ أي رضي أعمالـهم؛ كذا قال ابن عباس. ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي: رضوا هم بثواب الله عز وجل. ﴿ ذلك ﴾ أي الجنة. ﴿ لمن خشي ربه ﴾ أي خاف ربه، فتناهى عن المعاصي.

سورة الزلزلة

مقدمة السورة:

مدنية، في قول ابن عباس وقتادة. ومكية؛ في قول ابن مسعود وعطاء وجابر. وهي تسع آيات.

قال العلماء: وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم: روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ "إذا زلزلت"، عدلت له بنصف القرآن. ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ (الكافرون: ١) عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص: ١) عدلت له بثلث القرآن)[١]. قال: حديث غريب، وفي الباب عن ابن عباس. وروي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ إذا زلزلت أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله)[٢]. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لما نزلت "إذا زلزلت" بكى أبو بكر؛ فقال النبي ﷺ: (لولا أنكم تخطئون وتذنبون ويغفر الله لكم، لخلق أمة يخطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم)[٣].

قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ أي حركت من أصلها. كذا روى عكرمة عن ابن عباس، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلها ـ وقاله مجاهد ـ؛ لقوله تعالى: ﴿ يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة ﴾ (النازعات: ٦) ثم تزلزل ثانية، فتخرج موتاها وهي الأثقال. وذكر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض؛ كقولك: لأعطينك عطيتك؛ أي عطيتي لك. وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها. وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر بفتحها، وهو مصدر أيضا، كالوسواس والقلقال والجرجار. وقيل: الكسر المصدر. والفتح الاسم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها. وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها. وقال ابن عباس ومجاهد: "أثقالها": موتاها، تخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان. وقالت الخنساء:

أبعد ابن عمرو من آل الشر   يد حلت به الأرض أثقالها

تقول: لما دفن عمرو صار حلية لأهل القبور، من شرفه وسؤدده. وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكا للدماء: كان ثقلا على ظهر الأرض؛ فلما مات حطت الأرض عن ظهرها ثقلها. وقيل: "أثقالها" كنوزها؛ ومنه الحديث: (تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة...)[٤].

---

(١) "ضعيف"، انظر ضعيف الجامع (٥٧٥٧)، وهو حسن دون قوله: "من قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عدلت له بنصف القرآن".

(٢) ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم بمعناه.

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٣) وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الإنسان ﴾ أي ابن آدم الكافر. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بن عبد الأسد. وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى: من مؤمن وكافر. وهذا قول من جعلـها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعا من أشراط الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها؛ فلذلك سأل بعضهم بعضا عنها. وعلى قول من قال: إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلـها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يسأل عنها، والكافر جاحد لـها، فلذلك يسأل عنها. ومعنى﴿ ما لـها ﴾ أي ما لـها زلزلت. وقيل: ما لـها أخرجت أثقالـها، وهي كلمة تعجيب؛ أي لأي شيء زلزلت. ويجوز أن يحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء، فيقولون من الـهول: ما لـها.

قولـه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ "يومئذ" منصوب بقولـه: "إذا زلزلت". وقيل: بقولـه "تحدث أخبارها"؛ أي تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: من قول الإنسان؛ أي يقول الإنسان ما لـها تحدث أخبارها؛ متعجبا. وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية "يومئذ تحدث أخبارها" قال: (أتدرون ما أخبارها ـ قالوا الله ورسولـه أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا. قال: (فهذه أخبارها)[1]. قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الماوردي، قولـه "يومئذ تحدث أخبارها":

فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: "تحدث أخبارها" بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه مرفوعا. وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة.

الثاني: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالـها؛ قالـه يحيى بن سلام. وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: أنه قال: (إذا كان أجل العبد بأرض أوثبته الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رب هذا ما استودعتني)[2]. أخرجه ابن ماجه في سننه. وقد تقدم.

---

(١) "ضعيف" أخرجه أحمد والترمذي والحاكم، وانظر ضعيف الجامع (٦٤٥٠).

(٢) صحيح، انظر صحيح الجامع (٧٤٥)، وراجع الصحيحة (١٢٢٢).

الثالث: أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لـها؟ قاله ابن مسعود. فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك منها جوابا لـهم عند سؤالـهم، ووعيدا للكافر، وإنذارا للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى يقلبها حيوانا ناطقا؛ فتتكلم بذلك.

الثاني: أن الله تعالى يحدث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام. قال الطبري: تبين أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموتى.

قولـه تعالى: ﴿ بأن ربك أوحى لـها ﴾ أي إنها تحدث أخبارها بوحي الله "لـها"، أي إليها. والعرب تضع لام الصفة موضع "إلى". قال العجاج يصف الأرض:

وحى لـها القرار فاستقرت وشـدها بالراسيات الثبت

وهذا قول أبي عبيدة: "أوحى لـها" أي إليها. وقيل: "أوحى لـها" أي أمرها؛ قاله مجاهد. وقال السدي: "أوحى لـها" أي قال لـها. وقال: سخرها. وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالـها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. وروي ذلك عن الثوري وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ﴾ أي فرقا؛ جمع شت. قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ (الروم: ١٤) ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ (الروم: ٤٣). وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب. ﴿ أشتاتا ﴾ يعني فرقا فرقا. ﴿ ليروا أعمالـهم ﴾ يعني ثواب أعمالـهم. وهذا كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسنا فيقول: لم لا ازددت إحسانا؟ وإن كان غير ذلك يقول: لم لا نزعت عن المعاصي)[١]؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب. وكان ابن عباس يقول: "أشتاتا" متفرقين على قدر أعمالـهم أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة. وقيل: هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يصدرون أشتاتا من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب، ليروا أعمالـهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالـهم؛ فكأنهم وردوا القبور فدفنوا فيها، ثم صدروا عنها. والوارد: الجائي. والصادر: المنصرف. ﴿ أشتاتا ﴾ أي يبعثون من أقطار الأرض. وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير، مجازه: تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لـها، ليروا أعمالـهم. واعترض قولـه "يومئذ يصدر الناس أشتاتا" متفرقين عن موقف الحساب. وقراءة العامة "ليروا" بضم الياء؛ أي ليريهم الله أعمالـهم. وقرأ الحسن والزهري وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها؛ وروي ذلك عن النبي ﷺ.

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي بنحوه كما في ضعيف الجامع (٥١٤٦).

قولـه تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ كان ابن عباس يقول: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرا يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة، مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف لـه في الآخرة. وفي بعض الحديث: (الذرة لا زنة لـها) وهذا مثل ضربه الله تعالى: أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة. وهو مثل قولـه تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ (النساء : ٤٠). وقد تقدم الكلام هناك في الذر، وأنه لا وزن لـه. وذكر بعض أهل اللغة أن الذر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذر، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة. وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه ومالـه وأهلـه وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس لـه عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، يرى عقوبته في الدنيا، في نفسه ومالـه وولده وأهلـه، حتى يخرج من الدنيا وليس لـه عند الله شر. دليلـه ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال: (ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذر الشر، ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير، حتى تعطوه يوم القيامة). قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكـم، ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى : ٣٠). وقـال مقاتل: نزلت في رجلـين، وذلك أنه لما نـزل ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ (الإنسان : ٨) كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه؛ فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر؛ وقالـه سعيد بن جبير. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

الثانية: قراءة العامة "يره" بفتح الياء فيهما. وقرأ الجحدري والسلمي وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم: "يره" بضم الياء؛ أي يريه الله إياه. والأولى الاختيار؛ لقولـه تعالى: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ (آل عمران: ٣٠) الآية. وسكن الـهاء في قولـه "يره" في الموضعين هشام. وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حيوة والمغيرة. واختلس يعقوب والزهري والجحدري وشيبة. وأشبع الباقون. وقيل "يره" أي يرى جزاءه؛ لأن ما عملـه قد مضى وعدم فلا يرى. وأنشدوا:

إن مـن يعتدي ويكسب إثما　　وزن مـــثقال ذرة ســـيراه
ويجـازى بفعلـه الشـر شرا　　وبفعـل الجميل أيضا جزاه
هكــذا قولـــه تبارك ربي　　فـي إذا زلزلـت وجل ثناه

الثالثة: قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن؛ وصدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به. وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" . قال الشيخ أبو مدين في قولـه تعالى : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره" قال: في الحال قبل المآل. وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحمر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كر فيهما ولا فر؛ فلما ذكر النبي ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحمر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بغل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي ﷺ "الدلدل"، التي أهداها لـه المقوقس، فأفتاه في الحمير بعموم الآية، وإن في الحمار مثاقيل ذر كثيرة؛ قالـه ابن العربي. وفي الموطأ: أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقال : أتعجب! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة. وروي عن سعد بن أبي وقاص : أنه تصدق بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفي التمرتين مثاقيل ذر كثيرة. وروى المطلب بن حنطب : أن أعرابيا سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال: يا رسول الله، أمثقال ذرة! قال: (نعم) فقال الأعرابي: وا سوأتاه! مرارا، ثم قام وهو يقولـها؛ فقال النبي ﷺ : (لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان). وقال الحسن: قدم صعصعة عم الفرزدق على النبي ﷺ، فلما سمع "فمن يعمل مثقال ذرة" الآيات؛ قال: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها، حسبي، فقد انتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي : وروي أن صعصة ابن ناجية جد الفرزدق أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة: حسبي حسبي؛ إن عملت مثقال ذرة شرا رأيته. وروى معمر عن زيد بن أسلم: أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: علمني مما علمك الله. فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه "إذا زلزلت ـ حتى إذا بلغ ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" قال: حسبي. فأخبر النبي ﷺ فقال : (دعوه فإنه قد فقه). ويحكى أن أعرابيا أخر " خيرا يره" فقيل: قدمت وأخّرت. فقال:

خذا بطنَ هَرشى أو قفاها فإنه　　كلا جانبي هرشى لـهن طريق

سورة العاديات

وهي مكيّة، في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة. وهي إحدى عشرة آية.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ أي الأفراس تعدو. كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح. قال قتادة: تضبح إذا عدت؛ أي تحمحم. وقال الفراء: الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدون. ابن عباس: ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب. وقيل: كانت تكعم لئلا تصهل، فيعلم العدو بهم؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة. قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد ﷺ فقال: ﴿ يس. والقرآن الحكيم ﴾ (يس: ١)، وأقسم بحياته فقال: ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ (الحجر: ٧٢)، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: "والعاديات ضبحا" . . . الآيات الخمس. وقال أهل اللغة:

وطعنة ذات رشاش واهيه طعنتها عند صدور العاديه

يعني الخيل. وقال آخر:

والعاديات أسابي الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب

يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيل تعلم حين تضبح في حياض الموت ضبحا

وقال آخر:

لست بالتبع اليماني إن لم تضبح الخيلُ في سواد العراق

وقال أهل اللغة: وأصل الضبح والضباح للثعالب؛ فاستعير للخيل. وهو من قول العرب: ضبحته النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه. وقال الشاعر:

فلما أن تلهوجنا شـواء به اللهبان مقهورا ضبيحا

وانضبح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلا. وقال:

علقتها قبل انضباح لوني

وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع وتعب أو طمع. ونصب "ضبحا" على المصدر؛ أي والعاديات تضبح ضبحا. والضبح أيضا الرماد. وقال البصريون: "ضبحا" نصب على الحال. وقيل: مصدر في موضع الحال. قال أبو عبيدة: ضبحت الخيل ضبحا مثل ضبعت؛ وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضبح والضبع: بمعنى العدو والسير. وكذا قال المبرد: الضبح مد أضباعها في السير. وروي أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة لـه بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم. وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد. والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون. وفي الخبر: (من لم يعرف حرمة فرس الغازي، ففيه شعبة من النفاق). وقول ثان: أنها الإبل؛ قال

مسلم : نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة: قال ابن عباس هي الخيل. وقلت: قال علي هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك. وقال الشعبي: تمارى علي وابن عباس في "العاديات"، فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج. وقال ابن عباس: هي الخيل؛ ألا تراه يقول ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ (العاديات : ٤) فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تضبح الإبل! فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد؛ ثم قال لـه علي: أتفتي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير؛ فكيف تكون العاديات ضبحا! إنما العاديات الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى عرفة. قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي. ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا سـطع الغبار

يعني الإبل. وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر:

رأى صـاحبي في العاديات نجيبة وأمثالـها في الواضعات القوامس

ومن قال هي الإبل فقولـه "ضبحا" بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال: ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد: الضبع مد أضباعها في السير. والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل. والضبع في الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل : الحمحمة، ومن الإبل التنفس. وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يضبح إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروي عن ابن عباس. وقد تقدم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضبح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضا. قال توبة:

ولـو أن ليـلى الأخيلـية سلمت علـي ودونـي تـربة وصـفائح
لسلمـت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر ضابح

زقا الصدى يزقو زقاء: أي صاح. وكل زاق صائح. والزقية: الصيحة.

قولـه تعالى: ﴿ فالموريات قدحا ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين توري النار بحوافرها، وهي سنابكها؛ وروي عن ابن عباس. وعنه أيضا: أورت بحوافرها غبارا. وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار؛ وإنما هذا في الإبل. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا" قال: قال ابن عباس : هو في القتال وهو في الحج. ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القدح الاستخراج؛ ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحت بالزند. واقتدحت المرق: غرفته. وركي قدوح : تغترف باليد. والقديح: ما يبقى في أسفل القدر، فيغرف بجهد. والمقدحة: ما تقدح به النار. والقداحة والقداح : الحجر الذي يوري النار. يقال : ورى الزند (بالفتح) يري وريا: إذا خرجت ناره. وفيه لغة أخرى: وري الزند (بالكسر) يري فيهما. وقد مضى هذا في سورة "الواقعة". و" قدحا" انتصب بما انتصب به "ضبحا". وقيل : هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إيراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم. ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حمي الوطيس. ومنه قولـه تعالى: ﴿ كلما أوقدوا نارا

للحرب أطفأها الله ﴾ (المائدة: ٦٤). وروي معناه عن ابن عباس أيضا، وقاله قتادة. وعن ابن عباس أيضا: أن المراد بالموريات قدحا: مكر الرجال في الحرب؛ وقالـه مجاهد وزيد بن أسلم. والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: والله لأمكرن بك، ثم لأورين لك. وعن ابن عباس أيضا: هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم. وعنه أيضا: أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهابا. وكل من قرب من العدو يوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدو كثيرا. فهذا إقسام بذلك. قال محمد ابن كعب: هي النار تجمع. وقيل هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة. وقال عكرمة: هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به، ويظهر بها، من إقامة الحجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل. وروى ابن جريج عن بعضهم قال: فالمنجحات أمرا وعملا، كنجاح الزند إذا أوري.

قلت: هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولـهم: فلان يوري زناد الضلالة. والأول: الحقيقة، وأن الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها. قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار نار أبي حباحب، وكان أبو حباحب شيخا من مضر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقد نويرة تقد مرة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لـها أحد أطفأها، كراهية أن ينتفع بها أحد. فشبهت العرب هذه النَار بناره؛ لأنه لا ينتفع بها. وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت نارا، فكذلك يسمونها. قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم — بهن فلول من قراع الكتائب
تَقُدَّ السَّلوقـــي المضاعفَ نسجَهُ — وتوقد بالصُفّاح نار الحُباحِب

قولـه تعالى: ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ ﴾

الخيل تغير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلا، ويأتون العدو صبحا؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس. ومنه قولـه تعالى: ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ (الصافات: ١٧٧). وقيل: لعزهم أغاروا نهارا، و" صبحا" على هذا، أي علانية، تشبيها بظهور الصبح. وقال ابن مسعود وعلي رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى إلى جمع. والسنة ألا تدفع حتى تصبح؛ وقالـه القرطبي. والإغارة: سرعة السير؛ ومنه قولـهم: أشرق ثبير، كيما نغير.

قولـه تعالى: ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾ ﴾

أي غبارا؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة:

عدمت بنيتي إن لم تروها — تثير النقع من كنفي كداء

والكناية في "به" ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا علم المعنى جاز أن يكني عما لم يجر لـه ذكر بالتصريح؛ كما قال ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص: ٣٢). وقيل: "فأثرن به"، أي بالعدو "نقعا". وقد تقدم ذكر العدو. وقيل: النقع: ما بين مزدلفة إلى منى؛ قالـه محمد بن

كعب القرظي. وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع. وفي الصحاح: النقع: الغبار، والجمع: نقاع. والنقع: محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه. وفي الحديث: أنه نهى أن يمنع نقع البئر. والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع: نقاع وأنقع؛ مثل بحر وبحار وأبحر.

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغيرة أن يسفكن من دموعهن وهن جلوس على أبي سليمان، ما لم يكن نقع ولا لقلقة. قال أبو عبيد: يعني بالنقع رفع الصوت؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم؛ ومنه قول لبيد:

فمتى ينقع صراخ صادق يحلبوها ذات جرس وزجل

ويروى "يجلبوها" أيضا. يقول: متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب، أي جمعوا لها. وقوله ينقع صراخ: يعني رفع الصوت. وقال الكسائي: قوله (نقع ولا لقلقة) النقع: صنعة الطعام؛ يعني في المأتم. يقال منه: نقعت أنقع نقعا. قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النقيعة؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم. وقال بعضهم: يريد عمر بالنقع: وضع التراب على الرأس؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار. ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهن، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهن القيام. فقال: يسفكن من دموعهن وهن جلوس. قال بعضهم: النقع: شق الجيوب؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في الحديث إلا الصوت الشديد، وأما اللقلقة: فشدة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافا. وقرأ أبو حيوة "فأثرن" بالتشديد؛ أي أرت آثار ذلك. ومن خفف فهو من أثار: إذا حرك؛ ومنه ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ (الروم: ٩).

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿ جمعا ﴾ مفعول بـ "وسطن"؛ أي فوسطن بركبانهن العدو؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم. وقال ابن مسعود: "فوسطن به جمعا": يعني مزدلفة؛ وسميت جمعا لاجتماع الناس. ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطاً وسطة؛ أي صرت وسطهم. وقرأ علي ﷺ "فوسطن" بالتشديد، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسطت القوم (بالتشديد والتخفيف) وتوسطتهم: بمعنى واحد. وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسمين. والتخفيف: صرن في وسط الجمع؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾

هذا جواب القسم؛ أي طبع الإنسان على كفران النعمة. قال ابن عباس: "لكنود" لكفور جحود لنعم الله. وكذلك قال الحسن. وقال: يذكر المصائب وينسى النعم. أخذه الشاعر فنظمه:

يـا أيهـا الظـالم في فعلـه والظـلم مردود على من ظلم
إلـى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: (الكنود، هو الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده)(١). وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أنبئكم بشراركم)؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: (من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده)(٢). خرّجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وقد روي عن ابن عباس أيضا أنه قال: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور. وبلسان كنانة: البخيل السيئ الملكة؛ وقاله مقاتل، وقال الشاعر:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يبعد

أي كفور. ثم قيل: هو الذي يكفر باليسير، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحد للحق. وقيل: إنما سميت كندة كندة، لأنها جحدت أباها. وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر:

دع البخلاء إن شمخوا وصدوا وذكرى بخل غانية كنود

وقيل: الكنود: من كند إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر. ويقال: كند الحبل: إذا قطعه. قال الأعشى:

أميطي تميطي بصلب الفؤاد وصول حبال وكنادها

فهذا يدل على القطع. ويقال: كند يكند كنودا: أي كفر النعمة وجحدها، فهو كنود. وامرأة كنود أيضا، وكند مثله. قال الأعشى:

أحدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد

أي كفور للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئا. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه. وأنشد لكثير:

أحدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نعم الله في معاصي الله. وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه. وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم. وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع. وقيل: هو الحقود الحسود. وقيل: هو الجهول لقدره. وفي الحكمة: من جهل قدره هتك ستره.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود. وقد فسر النبي ﷺ معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾

أي وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد. كذا روى منصور عن مجاهد؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس. وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: "وإنه" أي: وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ وروي عن مجاهد أيضاً.

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٤٣٠٤).
(٢) "ضعيف" أخرجه بنحوه ابن عساكر عن معاذ مرفوعًا مطولا، كما في ضعيف الجامع (٢١٧٣).

قولـه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإنه ﴾ أي الإنسان من غير خلاف. ﴿ لحب الخير ﴾ أي المال؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ إن ترك خيرا ﴾ (البقرة: ١٨٠). وقال عدي:

ماذا ترجي النفوس من طلب الـ خير وحب الحياة كاربها

﴿ لشديد ﴾ أي لقوي في حبه للمال. وقيل: "لشديد" لبخيل. ويقال للبخيل: شديد ومتشدد. قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يقال: اعتامه واعتماه؛ أي اختاره. والفاحش: البخيل أيضا. ومنه قولـه تعالى: ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ (البقرة: ٢٦٨) أي البخل. قال ابن زيد: سمى الله المال خيرا؛ وعسى أن يكون شرا وحراما؛ ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا لذلك. وسمى الجهاد سوءا، فقال: ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ (آل عمران: ١٧٤) على ما يسميه الناس. قال الفراء: نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحب للخير؛ فلما تقدم الحب قال: شديد، وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقولـه تعالى: ﴿ في يوم عاصف ﴾ (إبراهيم: ١٨) والعصوف: للريح لا الأيام، فلما جرى ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصف الريح.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفلا يعلم ﴾ أي ابن آدم ﴿ إذا بعثر ﴾ أي أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفلـه أعلاه. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يبعثون. الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: "بحثر" بالحاء مكان العين؛ وحكاه الماوردي عن ابن مسعود، وهما بمعنى. ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون: وقال ابن عباس: أبرز. وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم "وحصل" بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي ظهر. ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم. وقولـه : "إذا بعثر" العامل في "إذا" : "بعثر"، ولا يعمل فيه "يعلم"؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه "خبير"؛ لأن ما بعد "إن" لا يعمل فيما قبلـها. والعامل في "يومئذ" : "خبير"، وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء. وإنما دخلت في الخبر لدخول "إن" على المبتدأ. ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو، فجرى على لسانه: "أن ربهم" بفتح الألف، ثم استدركها فقال: "خبير" بغير لام. ولولا اللام لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السمال "أن ربهم بهم يومئذ خبير". والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة القارعة

وهي مكيّة بإجماع. وهي عشر آيات.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ القارعة. ما القارعة ﴾ أي القيامة والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين. وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالـها وأفزاعها. وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عنك حينا

وقال آخر:

متى تقرع بمروتكم نسؤكم ولـم توقد لنا في القدر نار

وقال تعالى: ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ (الرعد: ٣١) وهي الشديدة من شدائد الدهر. ﴿ ما القارعة ﴾ استفهام؛ أي أي شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كما قال: ﴿ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة ﴾ (الحاقة: ١-٣) على ما تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يوم ﴾ منصوب على الظرف، تقديره: تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج. الواحد فراشة، وقالـه أبو عبيدة. وقال الفراء: إنه الـهمج الطائر، من بعوض وغيره؛ ومنه الجراد. ويقال: هو أطيش من فراشه. وقال:

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وقال آخر:

وقد كان أقوام رددت قلوبهم إليهم وكانوا كالفراش من الجهل

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي)[١]. وفي الباب عن أبي هريرة. والمبثوث المتفرق. وقال في موضع آخر: ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ (القمر: ٧). فأول حالـهم كالفراش لا وجه لـه، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لـها وجها تقصده. والمبثوث: المتفرق والمنتشر. وإنما ذكر على اللفظ: كقولـه تعالى: ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ (القمر: ٢٠) ولو قال المبثوثة (فهو) كقولـه تعالى: ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ (الحاقة: ٧). وقال ابن عباس والفراء: "كالفراش المبثوث" كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضا. كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٥).

قولـه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾

أي الصوف الذي ينفش باليد، أي تصير هباء وتزول؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿ هباء منبثا ﴾ (الواقعة: ٦) وأهل اللغة يقولون: العهن الصوف المصبوغ. وقد مضى في سورة "سأل سائل".

قولـه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾

قد تقدم القول في الميزان في "الأعراف والكهف والأنبياء". وأن لـه كفة ولسانا توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات. ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع. وقيل: موازين، كما قال:

فلكل حادثة لـها ميزان

وقد ذكرناه فيما تقدم. وذكرناه أيضا في كتاب "التذكرة" وقيل: إن الموازين الحجج والدلائل، قالـه عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لـكل مخاصم ميزانه

ومعنى ﴿ عيشة راضية ﴾ أي عيش مرضي، يرضاه صاحبه. وقيل: "عيشة راضية" أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلـها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضا من الارتفاع، فإذا اشتهى ولي الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولـها ولي الله قاعدا وقائما، وذلك قولـه تعالى: ﴿ قطوفها دانية ﴾ (الحاقة: ٢٣). وحيثما مشي أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، علوا وسفلا، وذلك قولـه تعالى: ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ (الإنسان: ٦). فيروى في الخبر (إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه). فهذه الأشياء كلـها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي أنزلت وانقادت بذلا وسماحة. ومعنى ﴿ فأمه هاوية ﴾ يعني جهنم. وسماها أما، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، قالـه ابن زيد. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وسميت النار هاوية، لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. ويروى أن الـهاوية اسم الباب الأسفل من النار. وقال قتادة: معنى "فأمه هاوية" فمصيره إلى النار. عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه. الأخفش: "أمه": مستقره، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

يا عمـرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوي به الـهاويه

والـهاوية: المهواة. وتقول: هوت أمه، فهي هاوية، أي ثاكلة، قال كعب بن سعد الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يـؤدي الليل حين يؤوب

والمهوي والمهواة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك. وتهاوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ الأصل "ما هي" فدخلت الهاء للسكت. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن محيصن "ما هي نار" بغير هاء في الوصل، ووقفوا بها. وقد مضى في سورة الحاقة بيانه. ﴿ نار حامية ﴾ أي شديدة الحرارة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم) قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال (فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلها مثل حرها)[1]. وروي عن أبي بكر ﷺ أنه قال: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه، لأنه وضع فيه الحق، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا. وإنما خف ميزان من خف ميزانه، لأنه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفا. وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: (أن الموتى يسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله، فيقول ذلك مات قبلي، أما مرّ بكم؟ فيقولون لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربية). وقد ذكرناه بكماله في كتاب "التذكرة"، والحمد لله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٣).

سورة التكاثر

وهي مكيّة، في قول جميع المفسرين، وروى البخاري أنها مدنية. وهي ثماني آيات.

قولـه تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ألـهاكم التكاثر ﴾ "ألـهاكم" شغلكم. قال:

فألـهيتها عن ذي تمائم مغيل

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى متم ودفنتم في المقابر. وقيل "ألـهاكم": أنساكم. "التكاثر" أي من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألـهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لـهيت عن كذا (بالكسر) ألـهى لـهيا ولـهيانا: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألـهاه: أي شغلـه. ولـهاه به تلـهية أي علله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألـهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا. وقال ابن زيد: نزلت في فخذ من الأنصار. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، وأعظم نفرا، وأكثر عائذا، فكثر بنو عبد مناف سهما. ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم سهم، فنزلت "ألـهاكم التكاثر" بأحيائكم فلم ترضوا ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ مفتخرين بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان؛ وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلـهم. وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال: نزلت في أهل الكتاب.

قلت: الآية تعم جميع ما ذكر وغيره. وفي صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ "ألـهاكم التكاثر" قال: (يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس)[١]. وروى البخاري عن ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لو أن لابن آدم واديا من ذهب، لأحب أن يكون لـه واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[٢]. قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت "ألـهاكم التكاثر". قال ابن العربي: وهذا نص صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهلوا وجهّلوا والحمد لله على المعرفة. وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ "ألـهاكم التكاثر" قال: (تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدها في الأوعية).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زواراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزلـه من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألـهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات، على ما تقدم. وقيل: هذا وعيد. أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ المقابر ﴾ جمع مقبرة ومقبرة (بفتح الباء وضمها). والقبور: جمع القبر قال:

أرى أهـل القصـور إذا أميـتوا بـنوا فـوق المقابر بالصخور
أبـوا إلا مباهـــاة وفخـــــرا على الفقراء حتى في القبور

وقد جاء في الشعر (المقبر) قال:

لـكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

وهو المقبري والمقبري: لأبي سعيد المقبري؛ وكان يسكن المقابر. وقبرت الميت أقبره وأقبره قبرا، أي دفنته. وأقبرته أي أمرت بأن يقبر. وقد مضى في سورة "عبس" القول فيه. والحمد لله.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبي ﷺ: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة)[1] رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: (فإنها تذكر الموت)[2]. وفي الترمذي عن بريدة: (فإنها تذكر الآخرة). قال: هذا حديث حسن صحيح. وفيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور[3]. قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لـهن ذلك. وجائز لجميعهن. ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قولـه: (زوروا القبور) عاما. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز. فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٤٢٧٩) وقد صح برواية الحاكم عن أنس بنحو هذا اللفظ.
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٦).
(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥١٠٩).

قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم لـه مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال ﷺ: (ليس الخبر كالمعاينة)(١) رواه ابن عباس. فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالـة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه، لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقبالـه بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالـهم، ولم تغن عنهم أموالـهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميلـه إلى اللهو واللعب كميلـهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والـهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه. وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خولـه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حالـه كحالـه، ومآله كمآلـه. وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا ﴾ قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾: وعيد بعد وعيد؛ قالـه مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفراء. وقال ابن عباس: "كلا سوف تعلمون" ما ينزل بكم من العذاب في القبر. "ثم كلا سوف تعلمون": وعيد بعد الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأول في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل "كلا سوف تعلمون" عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق. "ثم كلا سوف تعلمون": عند البعث

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٣٧٣).

أن ما وعدتكم به صدق. وروى زر بن حبيش عن علي ﷺ، قالـه: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قولـه: "كلا سوف تعلمون" يعني في القبور. وقيل: "كلا سوف تعلمون"؛ إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسل لتنزع أرواحكم. "ثم كلا سوف تعلمون: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. وقد ذكرنا في كتاب "التذكرة" أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره، برد الحياة إليه، ويجعل لـه من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد لـه في قبره، من كرامة وهوان. وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة. وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله، وقيل: "كلا سوف تعلمون" عند النشور أنكم مبعوثون" ثم كلا سوف تعلمون" في القيامة أنكم معذبون. وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالـها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب "التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة". وقال الضحاك: "كلا سوف تعلمون" يعني الكفار، "ثم كلا سوف تعلمون": قال المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

قولـه تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أعاد "كلا" وهو زجر وتنبيه، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقولـه تعالى: ﴿ إن هذا لـهو حق اليقين ﴾ (الواقعة: ٩٥). وقيل: اليقين ها هنا: الموت؛ قالـه قتادة. وعنه أيضا: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث. وجواب "لو" محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللحود عن جثثكم، كيف يكون حشركم؟ لشغلكم ذاك عن التكاثر بالدنيا. وقيل: "كلا لو تعلمون علم اليقين" أي لو قد تطايرت الصحف، فشقي وسعيد. وقيل: إن "كلا" في هذه المواضع الثلاثة بمعنى "ألا" قالـه ابن أبي حاتم، وقال الفراء: هي بمعنى "حقا" وقد تقدم الكلام فيها مستوفى.

قولـه تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لترون الجحيم ﴾ هذا وعيد آخر. وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة. والخطاب للكفار الذين وجبت لـهم النار. وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (مريم: ٧١) فهي للكفار دار، وللمؤمنين ممر. وفي الصحيح: (فيمر أولـهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...) الحديث. وقد مضى في سورة "مريم". وقرأ الكسائي وابن عامر "لترون" بضم التاء، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء، هي قراءة الجماعة؛ أي لترون الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي مشاهدة. وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢).

هو إخبار عن دوام مقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة. والخطاب على هذا للكفار. وقيل: معنى "لو تعلمون علم اليقين" أي لو تعلمون اليوم في الدنيا، علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت: "لترون الجحيم" بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تتصور لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. "ثم لترونها عين اليقين": أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك. "ثم لتسألن يومئذ عن النعيم": في موقف السؤال والعرض.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ روى مسلم في صحيحه[1] عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة)؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: (وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما) فقاما معه؛ فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا وأهلا. فقال لها رسول الله ﷺ: (أين فلان)؟ قالت: يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: (إياك والحلوب) فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا؛ فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم). خرجه الترمذي، وقال (فيه): (هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد) وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التيهان. وذكر قصته.

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاري مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم. وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان:

فلم أر كالإسلام عزا لأمة ... ولا مثل أضياف الإراشي معشرا

نبي وصديق وفاروق أمة ... وخير بني حواء فرعا وعنصرا

فوافوا الميقات وقدر قضية ... وكان قضاء الله قدرا مقدرا

إلى رجل نجد يباري بجوده ... شموس الضحى جودا ومجدا ومفخرا

وفارس خلق الله في كل غارة ... إذا لبس القوم الحديد المسمرا

ففدى وحيا ثم أدنى قراهم ... فلم يقرهم إلا سمينا متمرا

وقد ذكر أبو نُعيم الحافظ، عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلاً، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: (أطعمنا بسرا) فجاء بعذق، فوضعه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: (لتسألن عن هذا يوم القيامة) قال: وأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ؛ قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: (نعم إلا من ثلاث: كسرة يسد بها جوعته، أو ثوب يستر به عورته، أو حجر يأوي فيه من الحر والقر). واختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها: الأمن والصحة؛ قاله ابن مسعود. الثاني: الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير. وفي البخاري عنه ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[1]. الثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله ابن عباس. وفي التنزيل: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ (الإسراء: ٣٦). وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا، ومالا وولدا . . .)[2]، الحديث. خرَّجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح. الرابع: ملاذّ المأكول والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاري. وحديث أبي هريرة يدل عليه. الخامس: أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن. السادس: قول مكحول الشامي: أنه شبع البطون وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق؛ ولذة النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (لتسألن يومئذ عن النعيم) يعني (عن شبع البطون . . .). فذكره. ذكره الماوردي، وقال: وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية. وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان، من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال ﷺ: (ذلك للكفار؛ ثم قرأ: ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ (سبأ: ١٧). ذكره القشيري أبو نصر. وقال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر هذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم. وقد ذكر الفريابي قال: حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا. وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى ليعدد نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يعد عليه: سألتني فلانة أن أزوجكها، فيسميها باسمها، فزوجتكها). وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: "ثم لتسألن يومئذ عن النعيم" قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نسأل؟ فإنما هما الأسودان والعدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. قال: (إن ذلك سيكون). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد ـ أن يقال له: ألم نصح لك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٩٩٧).

جسمك، ونرويك من الماء البارد)[١] قال: حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله)[٢] . والجاه من نعيم الدنيا لا محالة. وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وهو القول السابع. وقيل: النوم مع الأمن والعافية. وقال سفيان بن عيينة: إن ما سد الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يسأل عن النعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة. فقال له: ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ (طه: ١١٨). فكانت هذه الأشياء الأربعة ـ ما يسد به الجوع، وما يدفع به العطش، وما يستكن فيه من الحر، ويستر به عورته ـ لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بد له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبد لباسا يواري سوأته، وطعاما يقيم صلبه، ومكانا يكنه من الحر والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله ﷺ: (ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء)[٣] خرّجه الترمذي. وقال النضر بن شميل: جلف الخبز: ليس معه إدام. وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وفي التنزيل: ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ (آل عمران: ١٦٤). وقال الحسن أيضا والمفضل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (القمر: ١٧).

قلت: وكل هذه نعم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم.

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٠٢١).
(٢) ضعيف انظر ضعيف الجامع (٦٦١).
(٣) ضعيف انظر ضعيف الجامع (٤٩١٤).

سورة العصر

وهي مكيّة. وقال قتادة مدنية، وروي عن ابن عباس. وهي ثلاث آيات.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والعصر ﴾ أي الدهر؛ قالـه ابن عباس وغيره. فالعصر مثل الدهر؛ ومنه قول الشاعر:

سبيل الـهوى وعر وبحر الـهوى غمر ويوم الـهوى شهر وشهر الـهوى دهر

أي عصر أقسم الله به عز وجل؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلـها، وما فيها من الدلالة على الصانع. وقيل: العصر: الليل والنهار. قال حميد بن ثور:

ولن يلبث العصران: يوم وليلة إذا طـلبا أن يدركـا ما تيـمما

والعصران أيضا: الغداة والعشي. قال:

وأمطلــه العصـــرين حـــتى يملني ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

يقول: إذا جاءني أول النهار ووعدته آخره. وقيل: إنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قالـه الحسن وقتادة. ومنه قول الشاعر:

تروح بنا يا عمرو قد قصر العصـــر وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وعن قتادة أيضا: هو آخر ساعة من ساعات النهار. وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل. يقال: أذن للعصر، أي لصلاة العصر. وصليت العصر؛ أي صلاة العصر. وفي الخبر الصحيح (الصلاة الوسطى صلاة العصر)[1]. وقد مضى في سورة "البقرة" بيانه. وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ، لفضلـه بتجديد النبوة فيه. وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية: قال مالك: من حلف ألا يكلم رجلا عصرا: لم يكلمه سنة. قال ابن العربي: إنما حمل مالك يمين الحالف ألا يكلم امرأ عصرا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصلـه في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعي: يبر بساعة؛ إلا أن تكون لـه نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربيا، فيقال لـه: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتملـه قبل منه، إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

هذا جواب القسم. والمراد به الكافر؛ قالـه ابن عباس في رواية أبي صالح. وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ابن عبد العزى، والأسود بن عبد يغوث. وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس. ﴿ لفي خسر ﴾: لفي غبن. وقال الأخفش: هلكة. الفراء: عقوبة؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ (الطلاق: ٩). ابن زيد: لفي شر. وقيل: لفي نقص؛ المعنى متقارب. وروي عن سلام "والعصر"

---

(١) أخرجاه في الصحيحين بلفظ: "حبسونا على الصلاة الوسطى، صلاة العصر".

بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفي "خسر" بضم السين. وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم. والوجه فيهما الإتباع. ويقال: خُسْر وخُسُر؛ مثل عُسْر وعُسُر. وكان علي يقرؤها "والعصر ونوائب الدهر، إن الإنسان لفي خسر. وإنه فيه إلى آخر الدهر". وقال إبراهيم: إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم، لفي نقص وضعف وتراجع؛ إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ (التين: ٥). قال: وقراءتنا "والعصر إن الإنسان لفي خسر، وإنه في آخر الدهر". والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف. وقد مضى الرد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى؛ فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ استثناء من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح. ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي: أدوا الفرائض المفترضة عليهم؛ وهم أصحاب رسول الله ﷺ. قال أبي ابن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ "والعصر" ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: "والعصر" قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار: "إن الإنسان لفي خسر": أبو جهل "إلا الذين آمنوا": أبو بكر، "وعملوا الصالحات" عمر. "وتواصوا بالحق" عثمان "وتواصوا بالصبر" علي. رضي الله عنهم أجمعين. وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه. ومعنى ﴿ وتواصوا ﴾ أي تحابوا؛ أوصى بعضهم بعضا وحث بعضهم بعضا. ﴿بالحق﴾ أي بالتوحيد؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس. قال قتادة: ﴿ بالحق ﴾ أي القرآن. وقال السدي: الحق هنا هو الله عز وجل. ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه. وقد تقدم. والله أعلم.

سورة الهمزة

مكيّة بإجماع. وهي تسع آيات.

قولـه تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾

قد تقدم القول في "الويل" في غير موضع، ومعناه الخزي والعذاب والهلكة. وقيل: واد في جهنم. ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب؛ فعلى هذا هما بمعنى. وقال النبي ﷺ: (شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب). وعن ابن عباس أن الـهمزة: القتّات، واللمزة: العياب. وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الـهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب؛ ومنه قول حسان:

همزتك فاختضعت بذل نفس   بقـافية تأجـــج كالشـــواظ

واختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قولـه تعالـى: ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ (التوبة: ٥٨). وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الـهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه. وقال قتادة ومجاهد: الـهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الطعان في أنسابهم. وقال ابن زيد: الـهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه. وقال ابن كيسان: الـهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه. وقال مرة: هما سواء؛ وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تدلـــي بودي إذا لاقيتني كذبا   وإن أغيب فأنت الـهامز اللمزه

وقال آخر:

إذا لقيتك عن شحط تكاشـرني   وإن تغيبت كنت الـهامز اللمزه

الشحط: البعد. والـهمزة: اسم وضع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سخرة وضحكة: للذي يسخر ويضحك بالناس. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي والأعرج "همزة لمزة" بسكون الميم فيهما. فإن صح ذلك عنهما، فهي معنى المفعول، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه ويضحكوا منه، ويحملـهم على الاغتياب. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبو وائل والنخعي والأعمش: "ويل للهمزة اللمزة". وأصل الـهمز: الكسر، والعض على الشيء بعنف؛ ومنه همز الحرف. ويقال: همزت رأسه. وهمزت الجوز بكفي كسرته. وقيل لأعرابي: أتهمزون (الفارة)؟ فقال: إنما تهمزها الـهرة. الذي في الصحاح: وقيل لأعرابي أتهمز الفارة؟ فقال السنور يهمزها. والأول قالـه الثعلبي، وهو يدل على أن الـهر يسمى الـهمزة. قال العجاج:

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل: أصل الـهمز واللمز: الدفع والضرب. لمزه يلمزه لمزًا: إذا ضربه ودفعه. وكذلك همزه: أي دفعه وضربه. قال الراجز:

ومن همزنا عزه تبركـــعا على استه زوبعة أو زوبعا

البركعة: القيام على أربع. وبركعه فتبركع؛ أي صرعه فوقع على استه؛ قالـه في الصحاح. والآية نزلت في الأخنس بن شريق، فيما روى الضحاك عن ابن عباس. وكان يلمز الناس ويعيبهم: مقبلين ومدبرين. وقال ابن جريج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه. وقيل: نزلت في أبي بن خلف. وقيل: في جميل بن عامر الثقفي. وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين. قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته. وقال الفراء: يجوز أن يذكر الشيء العام ويقصد به الخاص، قصد الواحد إذا قال: لا أزورك أبدا. فتقول: من لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ ﴾

أي أعده ـ زعم ـ لنوائب الدهر؛ مثل كرم وأكرم. وقيل: أحصى عدده؛ قالـه السدي. وقال الضحاك: أي أعد ماله لمن يرثه من أولاده. وقيل: أي فاخر بعدده وكثرته. والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة. كما قال: ﴿ مناع للخير ﴾ (ق: ٢٥)، وقال: ﴿ وجمع فأوعى ﴾ (المعارج: ١٨). وقراءة الجماعة "جمع" مخفف الميم. وشددها ابن عامر وحمزة والكسائي على التكثير. واختاره أبو عبيد؛ لقولـه: "وعدده". وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية "جمع" مخففا، "وعدده" مخففا أيضا؛ فأظهروا التضعيف، لأن أصلـه عده وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين. وقد جاء مثلـه في الشعر؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه. قال:

مهلا أمامة قد جربت من خلقي إنـي أجـــود لأقوام وإن ضَنِنوا

أراد: ضنوا وبخلوا، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة. قال المهدوي: من خفف "وعدده" فهو معطوف على المال؛ أي وجمع عدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر.

قولـه تعالى: ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يحسب ﴾ أي يظن ﴿ أن مالـه أخلده ﴾ أي يبقيه حيا لا يموت؛ قالـه السدي. وقال عكرمة: أي يزيد في عمره. وقيل: أحياه فيما مضى، وهو ماض بمعنى المستقبل. يقال: هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل. ﴿ كلا ﴾ رد لما توهمه الكافر؛ أي: لا يخلد ولا يبقى لـه مال. وقد مضى القول في "كلا" مستوفى. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا سمعت الله عز وجل يقول "كلا" فإنه يقول كذبت. ﴿ لينبذن ﴾ أي ليطرحن وليلقين. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن: لينبذان بالتثنية، أي: هو ومالـه. وعن الحسن أيضا "لينبذنه" على معنى لينبذن مالـه. وعنه أيضا بالنون "لينبذنه" على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه ينبذ صاحب المال. وعنه أيضا "لينبذن" بضم الذال؛ على أن المراد الـهمزة واللمزة والمال وجامعه.

قولـه تعالى: ﴿ في الحطمة ﴾ وهي نار الله؛ سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه. قال الراجز:

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا يوم كـــسرنا أنفه ليغضبا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم. حكاه الماوردي عن الكلبي. وحكى القشيري عنه: "الحطمة" الدركة الثانية من درك النار. وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع. ابن زيد: اسم من أسماء جهنم.

﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها. ثم فسرها ما هي فقال: ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام؛ فهي غير خامدة؛ أعدها الله للعصاة. ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقا جديدا، فرجعت تأكلـهم. وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: (أن النار تأكل أهلـها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم إذا صدروا تعود)[1]، فذلك قولـه تعالى: ﴿ نار الله الموقدة. التي تطلع على الأفئدة ﴾. وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت وهم لا يموتون؛ كما قال الله تعالى: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ (طه: ٧٤) فهم إذاً أحياء في معنى الأموات. وقيل: معنى "تطلع على الأفئدة" أي تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه. ويقال: اطلع فلان على كذا: أي علمه. وقد قال الله تعالى: ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ (المعارج: ١٧). وقال تعالى: ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لـها تغيظا وزفيرا ﴾ (الفرقان: ١٢). فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم.

قولـه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

أي مطبقة؛ قالـه الحسن والضحاك. وقد تقدم في سورة "البلد" القول فيه. وقيل: مغلقة؛ بلغة قريش. يقولون: آصدت الباب إذا أغلقته؛ قالـه مجاهد. ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

إن فـي القصر لو دخلنا غزالا مصفقا موصدا عليه الحجاب

﴿ في عمد ممددة ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي موصدة بعمد ممددة؛ قالـه ابن مسعود. وهي في قراءته "بعمد ممددة" في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ (ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد عليهم بتلك المسامير، وتمد بتلك العمد، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه غم، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زفيرا وشهيقا)؛ فذلك قولـه تعالى: "إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممددة". وقال قتادة: "عمد" يعذبون بها. واختاره الطبري. وقال ابن عباس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم. وقيل: قيود في

---

(١) ضعيف.

أرجلهم؛ قاله أبو صالح. وقال القشيري: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. وتشد تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روح. وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد؛ أي في سلاسل وأغلال مطولة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة. وقيل: هم في عمد ممددة؛ أي في عذابها وآلامها يضربون بها. وقيل: المعنى في دهر ممدود؛ أي لا انقطاع له. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم "في عمد" بضم العين والميم: جمع عمود. وكذلك "عَمَدَ" أيضا. قال الفراء: والعَمَد والعُمُد: جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أديم وأدَم وأدُم، وأفيق وأفق وأفق. أبو عبيدة: عمد: جمع عماد؛ مثل إهاب. واختار أبو عبيد "عمد" بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى: ﴿ رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ (الرعد: ٢). وأجمعوا على فتحها. قال الجوهري: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرئ بهما قوله تعالى: "في عَمَد ممددة". وقال أبو عبيدة: العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العماد. عمدت الشيء فانعمد؛ أي أقمته بعماد يعتمد عليه. وأعمدته جعلت تحته عمدا. والله أعلم.

سورة الفيل

وهي مكيّة بإجماع. وهي خمس آيات.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ألم تر ﴾ أي ألم تخبر. وقيل: ألم تعلم. وقال ابن عباس: ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام؛ أي ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؛ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منَّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و﴿ كيف ﴾ في موضع نصب بـ﴿ فعل ربك ﴾ لا "بألم تر كيف" في معنى الاستفهام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال وفيول، وفيلة. قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة. والأنثى فيلة وصاحبها فيّال. قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل فيل فُعلاً، فكسر من أجل الياء؛ كما قالوا: أبيض وبيض. وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع. ورجل فيل الرأي، أي ضعيف الرأي. والجمع أفيال. ورجل فال؛ أي ضعيف الرأي، مخطئ الفراسة. وقد فال الرأي يفيل فيولة، وفيل رأيه تفييلا: أي ضعفه، فهو فيل الرأي.

الثالثة: في قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن (أبرهة) بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلـها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانيا، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلـها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النسأة، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها ـ أي أحدث ـ ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك: (أصرف إليها حج العرب) غضب، فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وبعث رجلا كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهة ذلك غضبا وحنقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال لـه ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض لـه فقاتلـه، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ لـه ذو نفر فأتي به أسيرا؛ فلما أراد قتلـه قال لـه ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلا حليما. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج لـه، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض لـه نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتلـه فهزمه أبرهة، وأخذ لـه نفيل أسيرا؛ فأتي به، فلما هم بقتلـه قال لـه نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيلـه.

وخرج به معه يدلـه، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف، فقالوا لـه: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه؛ فتجاوز عنهم. وبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزلـه المغمس فلما أنزلـه به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجـم قـبره فـي كل عـام   كرجم الناس قبر أبي رغال

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلا من الحبشة يقال لـه الأسود بن مقصود على خيل لـه، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتالـه؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لـهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال لـه: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل لـه: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لـهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل لـه: عبد المطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال لـه ما أمره به أبرهة؛ فقال لـه عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليلـه إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال لـه حناطة: فانطلق إليـه، فإنه قد أمـرني أن آتيه بك؛ فانطلـق معـه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر؛ فسأل عن ذي نفر، وكان صديقاً لـه، حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال لـه: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال لـه ذو نفر؛ وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتلـه غدوا وعشيا ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لي، فـأرسل إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسألـه أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك؛ فقال حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال لـه: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عين مكة، ويطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب لـه الملك مائتي بعير، فاستأذن لـه عليه، وانفعه عنده بما استطعت؛ فقال: أفعل. فكلم أنيس أبرهة، فقال لـه: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأذن لـه عليك، فيكلمك في حاجته. قال: فأذن لـه أبرهة.

وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملـهم، فلما رآه أبرهة أجلـه، وأعظمه عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل لـه: حاجتك؟ فقال لـه ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال لـه ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل لـه لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت

لهدمه؟ لا تكلمني فيه. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني قال أنت وذاك. فرد عليه إبله. وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تخوفا عليهم معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هم إن العبد يمـ ـنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
إن يدخلوا البلد الحرا م فأمر ما بدا لك

يقول: أي شيء ما بدا لك، لم تكن تفعله بنا. والحلال: جمع حل. والمحال: القوة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هم أخز الأسود بن مقصود الآخذ الهجمة فيها التقليد
بين حراء وثبير فالبيد يحبسها وهي أولات التطريد
فضمها إلى طماطم سود قد أجمعوا ألا يكون معبود
ويهدموا البيت الحرام المعمود والمروتين والمشاعر السود

أخفره يا رب وأنت محمود

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال له: ابرك محمود، وارجع راشدا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشتد، حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى؛ فأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاءوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أين المفر والإلـه الطالـــــب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال أيضا:

حمـدت الله إذ أبصرت طيرا وخفـت حجارة تلقى علينا

فـكل القوم يسـأل عن نفيل كأن علـي للحبـــشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل سهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما؛ حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان ـ يزيد أحدهما وينقص ـ : سبب الفيل ما روي أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصارى الـهيكل، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا، فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضبا. فأتاه أبرهة بن الصباح وحجر ابن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون؛ وضمنوا لـه إحراق الكعبة وسبي مكة. وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزير، وحجر بن شرحبيل من قواده، وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فيلة. ونزلوا بذي المجاز، واستاقوا سرح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعي نذيرا، فصعد الصفا، فصاح: وا صباحاه ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله. واختلف في النجاشي، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: (إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بنجدية ولا تهامية ولا حجازية) وإنها أشباه اليعاسيب. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبي: في مناقيرها حصى كحصى الخذف، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غوى. ثم انصاعت راجعة من حيث جاءت. وقال العوفي: سألت عنها أبا سعيد الخدري، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها، ويقع في دماغه، ويخرق الفيل والدابة. ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه. وكان على أصحاب الفيل ستين ألفا، لم يرجع منهم إلا أميرهم، رجع ومعه شرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقدي: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ، وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن مع أرياط، حتى تزاحفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غلب فلـه الأمر. فتبارزا ـ وكان أرياط جسيما عظيما، في يده حربة، وأبرهة قصيرا حادرا حليماً ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير لـه يقال لـه عتودة ـ فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه

وشفته؛ فلذلك سمي الأشرم. وحمل عتودة على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشي، وحلف ليجزن ناصية أبرهة، ويطأن بلاده. فجز أبرهة ناصيته وملأ مزودا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشي، وقال: إنما كان عبدك، وأنا عبدك، وأنا أقوم بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبر في يمينك؛ فرضي عنه النجاشي. ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي وعبيد بن عمير: كان قبل مولد النبي ﷺ بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روي عن النبي ﷺ أنه قال (ولدت عام الفيل). وروي عنه أنه قال: (يوم الفيل). حكاه الماوردي في التفسير له. وقال في كتاب أعلام النبوة: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكان بعد الفيل بخمسين يوما. ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط، في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنو شروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبري أن مولد النبي ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنو شروان. وقد قيل: إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدة حمله ثمانية أشهر كملا ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص، في فضائل يوم عاشوراء له. ابن العربي: قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مخرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألا يخبر بسنه؛ لأنه إن كان صغيرا استحقروه وإن كان كبيرا استهرموه. وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسن رسول الله ﷺ ويكتم سنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوة به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا. وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أسيد: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: النبي ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه؛ ولد النبي ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سن عتاب بن أسيد حين ولاه النبي ﷺ مكة، وكان سنه يومئذ دون العشرين.

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدا لأمره، وتمهيدا لشأنه. ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: "ألم تر" ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس. وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس. وقال أبو صالح: رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحوا من قفيزين من تلك الحجارة، سودا مخططة بحمرة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ أي في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبي، والبيت بالتخريب والهدم. فحكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس

لـه، ينظر ما لقوا من تلك الطير، فإذا القوم مشدخين جميعا، فرجع يركض فرسه، كاشفا عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب. وما كشف عن فخذه إلا بشيرا أو نذيرا. فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعا. فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالـهم. وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا. وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفي وكان خليلا لعبد المطلب ـ: اختر أيهما شئت. ثم أصاب الناس من أموالـهم حتى ضاقوا ذرعا، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنـت منعت الحبش والأفيالا وقـد رعـوا بمكة الأجبالا

وقـد خشـينا منهم القتالا وكـل أمـر لـهم معضالا

شكرا وحمدا لك ذا الجلالا

قال ابن إسحاق: ولما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

أنـت الجلـيل ربـنا لم تدنس أنت حبست الفيل بالمغمس

من بعد ما هم بشـر مبلس حبـسته في هيئة المكركس

وما لـهم من فرج ومنفس

والمكركس: المنكوس المطروح.

قولـه تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ ﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيرا من السماء لم ير قبلـها، ولا بعدها مثلـها. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ)[1]. وعن ابن عباس: كانت لـها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب وقال عكرمة: كانت طيرا خضرا، خرجت من البحر، لـها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تر قبل ذلك ولا بعده. وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء. وعن سعيد بن جبير أيضا: هي طير خضر لـها مناقير صفر. وقيل: كانت بيضا. وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة. وقيل: إنها العنقاء المُغرب التي تضرب بها الأمثال؛ ؛ قال عكرمة: "أبابيل" أي مجتمعة. وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قالـه ابن عباس ومجاهد. وقيل مختلفة متفرقة، تجيء من كل ناحية من ها هنا وها هنا؛ قالـه ابن مسعود وابن زيد والأخفش. قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام. يقال: فلان يؤبل على فلان؛ أي يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل. واختلف في واحد

---

(١) ضعيف.

(أبابيل)؛ فقال الجوهري: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فرقا، وطيرا أبابيل. قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد لـه. وقال بعضهم: واحده إبَّوْل. مثل عجَّوْل. وقال بعضهم ـ وهو المبرد ـ : إبيل مثل سكين. قال: ولم أجد العرب تعرف لـه واحدا في غير الصحاح. وقيل في واحده إبال. وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعـبتْ طـيرٌ بهم أبابيلْ فصيروا مثل كعصف مأكول

وقال الأعشى:

طريق وجبار رواء أصولـه عليه أبابيل من الطير تنعب

وقال آخر:

كادت تهد من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

وقال آخر:

تراهم إلى الداعي سراعا كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسـخن

قال الفراء: لا واحد لـه من لفظه. وزعم الرؤاسي ـ وكان ثقة ـ أنه سمع في واحدها "إبالة" مشددة. وحكى الفراء "إبالة" مخففا. قال: سمعت بعض العرب يقول: ضغث على إبالة. يريد: خصبا على خصب. قال: ولو قال قائل إيبال كان صوابا؛ مثل دينار ودنانير. وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث ابن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

قولـه تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾

في الصحاح: "حجارة من سجيل" قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقولـه تعالى: ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين. مسومة ﴾ (الذاريات: ٣٣). وقال عبد الرحمن بن أبزى: "من سجيل": من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل من الجحيم. وهي "سجين" ثم أبدلت اللام نونا؛ كما قالوا في أصيلان أصيلال. قال ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وإنما هو سجيلا. وقال الزجاج: "من سجيل" أي مما كتب عليهم أن يعذبوا به؛ مشتق من السجل. وقد مضى القول في سجيل في "هود" مستوفى. قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري لم ير قبل ذلك اليوم. وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة. وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجدري. وقراءة العامة "ترميهم" بالتاء، لتأنيث جماعة الطير. وقرأ الأعرج وطلحة "يرميهم" بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ ولكن الله رمى ﴾ (الأنفال: ١٧) ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير، لخلوها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقي.

قولـه تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالـهم بتفرق أجزائه. روي معناه عن ابن زيد وغيره. وقد مضى القول في العصف في سورة "الرحمن". ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أتيِّ الماء مطموم

وقال رؤبة بن العجاج :

ومسهم ما مس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

العصف : جمع ، واحدته عصفة وعصافة ، وعصيفة . وأدخل الكاف في "كعصف" للتشبيه مع مثل ، نحو قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (الشورى : ١١) . ومعنى "مأكول" مأكول حبه . كما يقال : فلان حسن ؛ أي حسن وجهه . وقال ابن عباس : "فجعلهم كعصف مأكول" أن المراد به قشر البر ؛ يعني الغلاف الذي تكون فيه حبة القمح . ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه ، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة . وقال ابن مسعود : لما رمت الطير بالحجارة ، بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة ؛ فقال :

فإنك لو رأيت ولم تريه لدى جنب المغمس ما لقينا

خشيت الله إذ قد بث طيرا وظل سحابة مرت علينا

وباتت كلها تدعو بحق كأن لها على الحبشان دينا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم ، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدم أن أميرهم رجع وشرذمة لطيفة معه ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لما رد الله الحبشة عن مكة ، عظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم ، فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

سورة قريش

مكيّة في قول الجمهور. ومدنية في قول الضحاك والكلبي. وهي أربع آيات.

قولـه تعالى: ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها. وممن عد السورتين واحدة أبي بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا. وقال عمرو بن ميمون الأودي: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقرأ في الأولى: ﴿ والتين والزيتون ﴾ (التين: ١) وفي الثانية ﴿ ألم تر كيف ﴾ (الفيل: ١) و﴿ لإيلاف قريش ﴾ (قريش: ١). وقال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: "لإيلاف قريش" أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش. وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقرب في الجاهلية. يقولون هم أهل بيت الله جل وعز؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يجتزأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال: حدثني عامر بن إبراهيم - وكان ثقة من خيار الناس - قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدثني أبي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، في قولـه تعالى: "لإيلاف قريش" قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي وإن لم يكن الكلام تاما؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين "بسم الله الرحمن الرحيم" وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقولـه تعالى: "فليعبدوا" أي فليعبدوا هؤلاء رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: أَلَّف الله قريشا إيلافا فليعبدوا رب هذا البيت. وعمل ما بعد الفاء فيما قبلـها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فاضرب. وقيل: اللام في قولـه تعالى: "لإيلاف قريش" لام التعجب؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش؛ قالـه الكسائي والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: "لائلاف قريش" مهموزا مختلسا بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج "ليلاف" بلا همز طلبا للخفة. الباقون "لإيلاف" بالياء مهموزا مشبعا؛ من آلفت أولف إيلافا. قال الشاعر:

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

ويقال: ألفته إلفا وإلافا. وقرأ أبو جعفر أيضا: "لإلف قريش" وقد جمعهما من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريـش لـهم إلف وليس لكم إلاف

قال الجوهري: وفلان قد ألف هذا الموضع (بالكسر) يألف إلفا، وآلفه إياه غيره. ويقال أيضا: آلفت الموضع أولفه إيلافا. وكذلك: آلفت الموضع أولفه مؤالفة وإلافا؛ فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عكرمة "ليألف" بفتح اللام على الأمر وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

وفتح لام الأمر لغة حكاها ابن مجاهد وغيره. وكان عكرمة يعيب على من يقرأ "لإيلاف". وقرأ بعض أهل مكة "إلاف قريش" واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فلا تتركنه ما حييت لمعظم وكن رجلا ذا نجدة وعفاف
تذود العدا عن عصبة هاشمية إلافهم في الناس خير إلاف

وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه. وربما قالوا: قريشي، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قريشي عليه مهابة

فإن أردت بقريش الحي صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

والتقريش: الاكتساب، وتقرشوا أي تجمعوا. وقد كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مسكنا. قال الشاعر:

أبونا قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

وقد قيل: إن قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر. فكل من لم يلده فهر فليس بقرشي. والأول أصح وأثبت. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا).
وقال واثلة بن الأسقع: قال النبي ﷺ (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم). صحيح ثابت، خرجه البخاري ومسلم وغيرهما. واختلف في تسميتهم قريشا على أقوال: أحدها: لتجمعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو جلدة اليشكري:

إخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرهم وقديم

الثاني: لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم. والتقرش: التكسب. وقد قرش يقرش قرشا: إذا كسب وجمع. قال الفراء: وبه سميت قريش. الثالث: لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخلة، فيسدون خلته. والقرش: التفتيش. قال الشاعر:

أيها الشامت المقرش عنا عند عمرو فهل له إبقاء

الرابع: ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش؛ تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى. وأنشد قول تبع:

قريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الرث والسمين ولا تتـ ـرك فيها لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

قرأ مجاهد وحميد "إلفهم" ساكنة اللام بغير ياء. وروي نحوه عن ابن كثير. وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ "إلفهم". وروي عن ابن عباس وغيره. وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة "إلافهم" مهموزا مختلسا بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم "إئلافهم" بهمزتين،

الأولى مكسورة والثانية ساكنة. والجمع بين الـهمزتين في الكلمتين شاذ. الباقون "إيلافهم" بالمد والـهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأول للبيان. وهو مصدر آلف: إذا جعلته يألف. وألف هو إلفا؛ على ما تقدم ذكره من القراءة؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قولـه تعالى: ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، منةً منهُ على قريش. وقال الـهروي وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمسَ، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام؛ أي أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يؤلف يجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين. فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لـهم. قال الزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة؛ يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة. والحمائل: جمع حمولة. قال: والتأويل: أن قريشا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لـهم زرع ولا ضرع، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخطفون من حولـهم، فكانوا إذا عرض لـهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لـهم. وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدمياطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: "لإيلاف قريش" إلفهم رحلة الشتاء والصيف. وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحدا منهم مخمصة، جرى هو وعيالـه إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيد زمانه، ولـه ابن يقال لـه أسد، وكان لـه ترب من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه. فقال لـه: نحن غدا نعتفد، قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلـها من العفر، وهو التراب، وإن كانت بالدال، فما أدري معناها، وتأويلـه على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحدا بعد واحد. قال: فدخل أسد على أمه يبكي، وذكر ما قالـه تربه. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياما. ثم إن تربه أتاه أيضا فقال: نحن غدا نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيبا في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تبع. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا ترب أسد ـ فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنه نحر البدن، وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشما. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجـال مكة مسنتون عجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسولـه محمدا ﷺ، فقال: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع" بصنيع هاشم "وآمنهم من خوف" أن تكثر العرب ويقلوا.

قولـه تعالى: ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ "رحلة" نصب بالمصدر؛ أي ارتحالـهم رحلة؛ أو بوقوع "إيلافهم" عليه، أو على الظرف. ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رحلة الشتاء والصيف، لجاز. والأول أولى. والرحلة الارتحال. وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة. وعن ابن عباس أيضا قال: كانوا يشتون بمكة لدفئها، ويصيفون بالطائف لـهوائها. وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تشـــتي بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

هنا أربع مسائل: الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربي وغيره من العلماء: أن قولـه تعالى: "لإيلاف" متعلق بما قبلـه. ولا يجوز أن يكون متعلقا بما بعده، وهو قولـه تعالى: "فليعبدوا رب هذا البيت" قال: وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ـ وقد قطع عنه بكلام مبتدأ، واستئناف بيان وسطر "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقد تبين جواز الوقف في القراءة للقراء قبل تمام الكلام، وليست المواقف التي ينتزع بها القراء شرعا عن النبي ﷺ مرويا، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علموها وقفوا حيث شاءوا. فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبلـه إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نفسك. هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءة النبي ﷺ "الحمد لله رب العالمين" ثم يقف. "الرحمن الرحيم" ثم يقف. وقد مضى في مقدمة الكتاب. وأجمع المسلمون أن الوقف عند قولـه: ﴿ كعصف مأكول ﴾ (الفيل: ٥) ليس بقبيح. وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلا أن قولـه تعالى: ﴿ فجعلـهم كعصف مأكول ﴾ (الفيل: ٥) انتهاء آية. فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي. وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور. ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن المنظوم، فمن أظهر فواصلـه بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وترك الوقوف يخفي تلك المحاسن، ويشبه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية: قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومن معه، لا يخلعون عمائمهم حتى تطلع الثريا، وهو يوم التاسع عشر من بشنس، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس. وأراد بطلوع الثريا أن يخرج السعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودبر الشتاء. وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهب وحده: إذا سقطت الـهقعة نقص الليل، ، فلما جعل طلوع الثريا أول الصيف، وجب أن يكون لـه في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم امرأ حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور. ولو قال يدخل الصيف، لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس. قال القرطبي: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذ حسبت المنازل

على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة: قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف. وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقيظ، وخريف. والذي قاله مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا.

الرابعة: لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاء وصيفا، على ما تقدم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادهنجات والخيش للتبريد، واللبد واليانوسة للدفء.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ ﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين. ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط، لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما لأنه كانت لهم أوثان فيميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك، تذكيرا لنعمته. وقيل: "فليعبدوا رب هذا البيت" أي ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: "فليعبدوا رب هذا البيت" أي يقيموا بمكة. رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي بعد جوع. ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات ﴾ (البقرة: ١٢٦). وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم - وقرأ - ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ (القصص: ٥٧). وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهم، وظنوا أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم متحرزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)[1] فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون. فدعا فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: "وآمنهم من خوف" أي من خوف الجذام، لا يصيبهم ببلدهم الجذام. وقال الأعمش: "وآمنهم من خوف" أي من خوف الحبشة مع الفيل. وقال علي رضي الله عنه: "وآمنهم من خوف" أن تكون الخلافة إلا فيهم. وقيل: أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

---

(١) "صحيح" أخرجه بنحوه البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٦٧٥).

سورة الماعون

وهي مكيّة، في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس. ومدنية؛ في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره. وهي سبع آيات.

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة؛ وقد تقدم في "الفاتحة". و"أرأيت" بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يقال في أرأيت: ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا؛ ذكره الزجاج. وفي الكلام حذف؛ والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين: أمصيب هو أم مخطئ. واختلف فيمن نزل هذا فيه؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي؛ وقاله الكلبي ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجل من المنافقين. وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ. قال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جزورا، فطلب منه يتيم شيئا، فقرعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة. و﴿ يدع ﴾ أي يدفع، كما قال: ﴿ يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ (الطور: ١٣) وقد تقدم. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ أي يدفعه عن حقه. قتادة: يقهره ويظلمه. والمعنى متقارب. وقد تقدم في سورة "النساء" أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان، ويضرب بالحسام. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من ضم يتيما من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة)[1]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يأمر به، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وهو مثل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ (الحاقة: ٣٤) وقد تقدم. وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزا، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ (يس: ٤٧)، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا.

قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فويل للمصلين ﴾ أي عذاب لهم. وقد تقدم في غير موضع. ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثوابا، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً. وعنه أيضا: الذين يؤخرونها عن أوقاتها. وكذا روى المغيرة

---

(١) "ضعيف جداً" انظر ضعيف الجامع (٥٦٨١).

عن إبراهيم، قال: ساهون بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها.

قلت: ويدل على هذا قولـه تعالى: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ (مريم: ٥٩) حسب ما تقدم بيانه في سورة "مريم" عليها السلام. وروي عن إبراهيم أيضا: أنه الذي إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتا. وقال قطرب: هو ألا يقرأ ولا يذكر الله. وفي قراءة عبد الله "الذين هم عن صلاتهم لاهون". وقال سعد بن أبي وقاص: قال النبي ﷺ في قولـه: "فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" ـ قال ـ: (الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، تهاونا بها). وعن ابن عباس أيضا: هم المنافقون يتركون الصلاة سرا، يصلونها علانية ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ (النساء: ١٤٢) . . . الآية. ويدل على أنها في المنافقين قولـه: "الذين هم يراؤون"، وقاله ابن وهب عن مالك. قال ابن عباس: ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين. وقال عطاء: الحمد لله الذي قال "عن صلاتهم" ولم يقل في صلاتهم. قال الزمخشري: فإن قلت: أي فرق بين قولـه: "عن صلاتهم"، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلت: معنى "عن" أنهم ساهون عنها سهو ترك لـها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى "في" أن السهو يعتريهم فيها، بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع لـه السهو في صلاته، فضلا عن غيره؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. قال ابن العربي: لأن السلامة من السهو محال، وقد سها رسول الله ﷺ في صلاته والصحابة. وكل من لا يسهو في صلاته، فذلك رجل لا يتدبرها، ولا يعقل قراءتها، وإنما همه في أعدادها؛ وهذا رجل يأكل القشور، ويرمي اللب. وما كان النبي ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها؛ اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال لـه: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لما لم يكن يذكر، حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أي يري الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية؛ كالفاسق، يرى أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي. وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصلـه طلب المنزلة في قلوب الناس. وأولـها تحسين السمت؛ وهو من أجزاء النبوة، ويريد بذلك الجاه والثناء. وثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشنة؛ ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا. وثالثها: الرياء بالقول، بإظهار التسخط على أهل الدنيا؛ وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة. ورابعها: الرياء بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس؛ وذلك يطول، وهذا دليلـه؛ قالـه ابن العربي.

قلت: قد تقدم في سورة "النساء وهود وآخر الكهف" القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية. والحمد لله.

الثالثة: ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقولـه ﷺ: (ولا غمة في فرائض الله) لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن

تاركها يستحق الذم والمقت؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى؛ لأنه لا يلام تركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا. وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فتثني عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها؛ فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة. وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ إن تبدوا الصدقات ﴾ (البقرة: ٢٧١)، وفي غير موضع. والحمد لله على ذلك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ فيه اثنا عشر قولا: الأول: أنه زكاة أموالهم. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. وروي عن علي ﷺ مثل ذلك، وقاله مالك. والمراد به المنافق يمنعها. وقد روى أبو بكر بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أن قول الله تعالى: ﴿ فويل للمصلين* الذين هم عن صلاتهم ساهون* الذين هم يراءون* ويمنعون الماعون ﴾ قال: إن المنافق إذا صلى صلى رياءً، وإن فاتته لم يندم عليها، "ويمنعون الماعون" الزكاة التي فرض الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا. القول الثاني: أن "الماعون" المال، بلسان قريش؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب. وقول ثالث: أنه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ابن مسعود، وروي عن ابن عباس أيضا. قال الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم

الرابع: ذكر الزجاج وأبو عبيد والمبرد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدلو والقداحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى. قالوا: والماعون في الإسلام: الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله من أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا
قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا

يعني الزكاة. الخامس: أنه العارية؛ وروي عن ابن عباس أيضا. السادس: أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبي. السابع: أنه الماء والكلأ. الثامن: الماء وحده. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء؛ وأنشدني فيه:

يمج صبيره الماعون صبا

الصبير: السحاب. التاسع: أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر: أنه المستغل من منافع الأموال؛ مأخوذ من المعن وهو القليل؛ حكاه الطبري وابن عباس. قال قطرب: أصل الماعون من القلة. والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سعنة ولا معنة؛ أي شيء قليل. فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون: أصله معونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهري. ابن العربي: الماعون: مفعول من أعان

يعين، والعون: هو الإمداد بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر. الحادي عشر: أنه الطاعة والانقياد. حكى الأخفش عن أم أعرابي فصيح: لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون؛ أي تنقاد لك وتعطيك. قال الراجز:

متى تصادفهن في البرين يخضعن أو يعطين بالماعون

وقيل: هو ما لا يحل منعه، كالماء والملح والنار؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت: قلت يا رسول الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: (الماء والنار والملح) قلت: يا رسول الله هذا الماء، فما بال النار والملح؟ فقال: (يا عائشة من أعطى نارا فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طيب به ذلك الملح، ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق ستين نسمة. ومن سقى شربة من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نفسا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا). ذكره الثعلبي في تفسيره، وخرجه ابن ماجه في سننه[1]. وفي إسناده لين؛ وهو القول الثاني عشر. الماوردي: ويحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله. والله أعلم. وقيل لعكرمة مولى ابن عباس: من منع شيئا من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل؛ يعني: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالماعون.

قلت: كونها في المنافقين أشبه، وبهم أخلق؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال؛ قال الله تعالى: ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقال: ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ (التوبة: ٥٤). وهذه أحوالهم ويبعد أن توجد من مسلم محقق، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ، وذلك في منع الماعون إذا تعين؛ كالصلاة إذا تركها. والله أعلم. إنما يكون منعا قبيحا في المروءة في غير حال الضرورة. والله أعلم.

(١) "ضعيف" أخرجه أبو داود (١٦٦٩)، وابن ماجه (٢٤٧٤) وغيرهما.

سورة الكوثر

وهي مكيّة؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل. ومدنية؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة. وهي ثلاث آيات.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قراءة العامة. "إنا أعطيناك" بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: "أنطيناك" بالنون؛ وروته أم سلمة عن النبي ﷺ؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته. و"الكوثر": فوعل من الكثرة؛ مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. والكوثر من الغبار: الكثير. وقد تكوثر إذا كثر؛ قال الشاعر:

وقد ثار الموت حتى تكوثرا

الثانية: واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ على ستة عشر قولا: الأول: أنه نهر في الجنة؛ رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وروى الترمذي أيضا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج)(١). هذا حديث حسن صحيح. الثاني: أنه حوض النبي ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء. وفي صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليَّ آنفا سورة - فقرأ - بسم الله الرحمن الرحيم: "إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر" - ثم قال - أتدرون ما الكوثر؟. قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك(٢).

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة، ذكرناها في كتاب "التذكرة". وأن على أركانه الأربعة خلفاءه الأربعة؛ رضوان الله عليهم. وأن من أبغض واحدا منهم لم يسقه الآخر، وذكرنا هناك من يُطرد عنه. فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرا، لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد ﷺ هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. الثالث: أن الكوثر النبوة والكتاب؛ قاله عكرمة. الرابع: القرآن؛ قاله الحسن. الخامس: الإسلام؛ حكاه المغيرة. السادس: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل. السابع: هو كثرة

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٤٦١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٩).

الأصحاب والأمة والأشياع؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رئاب. الثامن: أنه الإيثار؛ قاله ابن كيسان. التاسع: أنه رفعة الذكر. حكاه الماوردي. العاشر: أنه نور في قلبك دلك علي، وقطعك عما سواي. وعنه: هو الشفاعة؛ وهو الحادي عشر. وقيل: معجزات الرب هدي بها أهل الإجابة لدعوتك؛ حكاه الثعلبي، وهو الثاني عشر. الثالث عشر: قال هلال بن يساف: هو لا إلـه إلا الله محمد رسول الله. وقيل: الفقه في الدين. وقيل: الصلوات الخمس؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر؛ وذكر بيت لبيد:

وصاحب ملحوب فجعنا بفقده وعنـد الـرداع بيـت آخـر كوثر

أي عظيم.

قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي ﷺ نص في الكوثر. وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ. وفي حوضه يقول الشاعر:

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنـت حـقا حـبـيب باريـكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه، ﷺ تسليما كثيرا.

قولـه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فصل ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال قتادة وعطاء وعكرمة: "فصل لربك" صلاة العيد ويوم النحر. "وانحر" نسكك. وقال أنس: كان النبي ﷺ ينحر ثم يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر. وقال سعيد بن جبير أيضا: صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع، وانحر البدن بمنى، وقال سعيد بن جبير أيضا: نزلت في الحديبية حين حصر النبي ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يصلي وينحر البدن وينصرف؛ ففعل ذلك. قال ابن العربي: "أما من قال: إن المراد بقولـه تعالى: "فصل": الصلوات الخمس؛ فإنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين. وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة؛ فلأنها مقرونة بالنحر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر".

قلت: وأما من قال إنها صلاه العيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيد بإجماع، فيما حكاه ابن عمر. قال ابن العربي: فأما مالك فقال: ما سمعت فيه شيئا، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحر، والنحر بعدها. وقال علي ﷺ ومحمد بن كعب: المعنى ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة. وروي عن ابن عباس أيضا. وروي عن علي أيضا: أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره. وكذا قال جعفر بن علي: "فصل لربك وانحر" قال: يرفع يديه أول ما يكبر للإحرام إلى النحر. وعن علي ﷺ قال: لما نزلت "فصل لربك وانحر" قال النبي ﷺ لجبريل: (ما هذه النحيرة التي أمرني الله بها)؟ قال: (ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، أن ترفع يديك إذا

كبرت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة)[١]. وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: استقبل القبلة بنحرك؛ وقاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص. ومنه قول الشاعر:

أبا حكم ما أنت عم مجالد   وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي المتقابل. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر؛ أي تتقابل، نحر هذا بنحر هذا؛ أي قبالته. وقال ابن الأعرابي: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب؛ من قولهم: منازلهم تتناحر؛ أي تتقابل. وروي عن عطاء قال: أمره أن يستوي بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره. وقال سليمان التيمي: يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك. وقيل: "فصل" معناه: واعبد. وقال محمد ابن كعب القرظي: "إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر" يقول: إن ناسا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله؛ وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله. قاله ابن العربي: والذي عندي أنه أراد: اعبد ربك، وانحر له، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالحري أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير، الذي أعطاكه الله، أو النهر الذي طينه مسك، وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بدنة، فذلك يبعد في التقدير والتدبير، وموازنة الثواب للعبادة. والله أعلم.

الثانية: قد مضى القول في سورة "الصافات" في الأضحية وفضلها، ووقت ذبحها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. وذكرنا أيضا في سورة "الحج" جملة من أحكامها. قال ابن العربي: ومن عجيب الأمر: أن الشافعي قال: إن من ضحى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: "فصل لربك وانحر"، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبي ﷺ في البخاري وغيره، عن البراء بن عازب، قال: (أول ما نبدأ به في يومنا هذا: نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعل فقد أصاب نسكنا، ومن ذبح قبل، فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء)[٢]. وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة.

الثالثة: وأما ما روي عن علي ﷺ "فصل لربك وانحر" قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. خرّجه الدارقطني، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأول: لا توضع فريضة ولا نافلة؛ لأن ذلك من باب الاعتماد. ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل. الثاني: لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة استعانة؛ لأنه موضع ترخص. الثالث: يفعلها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيح؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل ابن حجر وغيره[٣]. قال ابن المنذر: وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكي ذلك عن الشافعي. واستحب ذلك أصحاب الرأي. ورأت جماعة إرسال اليد. وممن روينا ذلك عنه ابن المنذر والحسن البصري وإبراهيم النخعي.

---

(١) ضعيف.
(٢) أخرجه البخاري في "العيدين"، (٩٦٥).
(٣) صحيح.

قلت: وهو مروي أيضا عن مالك. قال ابن عبد البر: إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروي عن علي بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل: فوق السرة. وقال: لا بأس إن كانت تحت السرة. وقالت طائفة: توضع تحت السرة. وروي ذلك عن علي وأبي هريرة والنخعي وأبي مجلز. وبه قال سفيان الثوري وإسحاق.

الخامسة: وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود، فاختلف في ذلك؛ فروى الدارقطني من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد. لم يروه عن حميد مرفوعا إلا عبد الوهاب الثقفي. والصواب: من فعل أنس. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو منكبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول سمع الله لمن حمده. ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود[1]. قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول. وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

قلت: وهو المشهور من مذهب مالك؛ لحديث ابن مسعود؛ خرجه الدارقطني من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل، قال: حدثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: صليت مع النبي ﷺ ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أولا عند التكبيرة الأولى في افتتاح الصلاة. قال إسحاق: به نأخذ في الصلاة[2] كلها. قال الدارقطني: تفرد به محمد بن جابر وكان ضعيفا عن حماد عن إبراهيم. وغير حماد يرويه عن إبراهيم مرسلا عن عبد الله، من فعله، غير مرفوع إلى النبي ﷺ؛ وهو الصواب. وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء: أنه رأى النبي ﷺ حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما أذنيه، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة[3]. قال الدارقطني: وإنما لقن يزيد في آخر عمره: ثم لم يعد؛ فتلقنه وكان قد اختلط. وفي مختصر ما ليس في المختصر عن مالك: لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة. قال ابن القاسم: ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام، قال: وأحب إلي ترك رفع اليدين عند الإحرام.

قولـه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

أي مبغضك؛ وهو العاص بن وائل. وكانت العرب تسمي من كان لـه بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر. فيقال: إن العاص وقف مع النبي ﷺ يكلمه، فقال لـه جمع من صناديد

(١) أخرجه البخاري (٧٣٦)، ومسلم (٣٩٠).

(٢) ضعيف.

(٣) ضعيف.

قريش: مع من كنت واقفا؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ وكان من خديجة؛ فأنزل الله جل شأنه: "إن شانئك هو الأبتر"، أي المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة. وذكر عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا: بتر فلان. فلما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه، فقال: بتر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه: "إن شانئك هو الأبتر" يعني بذلك أبا جهل. وقال شمر بن عطية: هو عقبة بن أبي معيط. وقيل: إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: قد بتر فلان. فلما مات لرسول الله ﷺ ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدي وابن زيد. وقيل: إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسدانة والحجابة واللواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصنيبر الأبيتر من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ (النساء: ٥١) الآية. ونزلت في قريش: "إن شانئك هو الأبتر"؛ قاله ابن عباس أيضا وعكرمة. وقيل: إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله، ودعا قريشا إلى الإيمان، قالوا: انبتر منا محمد؛ أي خالفنا وانقطع عنا. فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضا عكرمة وشهر بن حوشب. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذنب له. وكل أمر انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبتر: القطع. بترت الشيء بترا: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيف القاطع. والأبتر: المقطوع الذنب. تقول منه: بتر (بالكسر) يبتر بترا. وفي الحديث (ما هذه البتيراء). وخطب زياد خطبته البتراء؛ لأنه لم يمجد الله فيها، ولم يصل على النبي ﷺ. ابن السكيت: الأبتران: العير والعبد؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما. وقد أبتره الله: أي صيره أبتر. ويقال: رجل أباتر بضم الهمزة: الذي يقطع رحمه قال الشاعر:

لئيم نزت في أنفه خنزوانة على قطع ذي القربى أحذُّ أباترُ

والبترية: فرقة من الزيدية؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر. وأما الصَّنبور فلفظ مشترك. قيل: هو النخلة تبقى منفردة، ويدق أسفلها ويتقشر؛ يقال: صنبر أسفل النخلة. وقيل: هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ. وقيل: هو مثعب الحوض خاصة؛ حكاه أبو عبيد. وأنشد:

ما بين صنبور إلى الإزاء

والصنبور: قصبة تكون في الإداوة من حديد أو رصاص يشرب منها. حكى جميعه الجوهري رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة الكافرون

وهي مكيّة؛ في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك. وهي ست آيات.

وفي الترمذي من حديث أنس: أنها تعدل ثلث القرآن. وفي كتاب (الرد لأبي بكر الأنباري): أخبرنا عبد الله بن ناجية قال: حدثنا يوسف قال حدثنا القعنبي وأبو نعيم عن موسى بن وردان عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: ("قل يا أيها الكافرون" تعدل ربع القرآن)[1]. ورواه موقوفاً عن أنس. وخرج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر قال: صلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الفجر في سفر، فقرأ "قل يأيها الكافرون". و"قل هو الله أحد"، ثم قال: (قرأت بكم ثلث القرآن وربعه)[2]. وروى جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: (أتحب يا جبير إذا خرجت سفرا أن تكون من أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زادا)؟ قلت: نعم. قال: (فاقرأ هذه السور الخمس من أول ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ (الكافرون: ١) إلى - ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ (الناس: ١) وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم). قال: فوالله لقد كنت غير كثير المال، إذا سافرت أكون أبذهم هيئة، وأقلهم زادا، فمذ قرأتهن صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرهم زادا، حتى أرجع من سفري ذلك[3]. وقال فروة بن نوفل الأشجعي: قال رجل للنبي ﷺ: أوصني قال: (اقرأ عند منامك "قل يا أيها الكافرون" فإنها براءة من الشرك)[4]. خرجه أبو بكر الأنباري وغيره. وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشد غيظا لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك. وقال الأصمعي: كان يقال لـ"قل يأيها الكافرون"، و"قل هو الله أحد" المقشقشتان؛ أي أنهما تبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يقشقش الهناء الجرب فيبرئه. وقال ابن السكيت: يقال للقرح والجدري إذا يبس وتقرف، وللجرب في الإبل إذا قفل: قد توسف جلده، وتقشّر جلده، وتقشقش جلده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف؛ لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل "قل يا أيها الكافرون".

وقال أبو صالح عن ابن عباس: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبي ﷺ بهذه السورة فيئسوا منه، وآذوه، وآذوا أصحابه. والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها صفة لأي؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في

(١) "صحيح".
(٢) "صحيح"، بنحوه في صحيح الجامع (٤٤٠٥).
(٣) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٨٨).
(٤) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١١٦١).

علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماوردي: نزلت جوابا، وعنى بالكافرين قوما معينين. لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر ابن الأنباري: وقرأ من طعن في القرآن: قل للذين كفروا "لا أعبد ما تعبدون" وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذل نبيه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزري، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لب وحجا. وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلا ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يأيها الكافرون؛ دليل صحة هذا: أن العربي إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فمعناه قل لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول ﷺ يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: "يأيها الكافرون". وهو يعلم أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر، ويدخلوا في جملة أهله إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذية. فمن لم يقرأ "قل يأيها الكافرون" كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله ﷺ. وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التي منحه الله إياها، وشرفه بها.

وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا، ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ (الرحمن: ١٣). ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (المطففين: ١٠). ﴿ كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون ﴾ (النبأ: ٤ ـ ٥). و﴿ فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا ﴾ (الشرح: ٥ ـ ٦). كل هذا على التأكيد. وقد يقول القائل: ارم ارم، اعجل اعجل؛ ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (فلا آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة مني)[1]. خرجه مسلم. وقال الشاعر:

هلا سألت جموع كندة ... يوم ولوا أين أينا

وقال آخر:

يا لبكر انشروا لي كليبا ... يا لبكر أين أين الفرار

وقال آخر:

يا علقمة يا علقمة يا علقمة ... خير تميم كلها وأكرمه

وقال آخر:

يا أقرع بن حابس يا أقرع ... إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقال آخر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ... ثلاث تحيات وإن لم تكلم

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدا سنة وسنة. فأجيبوا عن كل ما قالوه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

بضده؛ أي إن هذا لا يكون أبدا. قال ابن عباس: قالت قريش للنبي ﷺ: نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة، ونزوجك من شئت، ونطأ عقبك؛ أي نمشي خلفك، وتكف عن شتم آلـهتنا، فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خصلة واحدة هي لنا ولك صلاح، تعبد آلـهتنا اللات والعزى سنة، ونحن نعبد إلـهك سنة؛ فنزلت السورة. فكان التكرار في "لا أعبد ما تعبدون"؛ لأن القوم كرروا عليه مقالـهم مرة بعد مرة. والله أعلم. وقيل: إنما كرر بمعنى التغليظ. وقيل: أي "لا أعبد" الساعة "ما تعبدون. ولا أنتم عابدون" الساعة "ما أعبد". ثم قال: "ولا أنا عابد" في المستقبل "ما عبدتم. ولا أنتم" في المستقبل "عابدون ما أعبد". قالـه الأخفش والمبرد. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وثنا، وسئموا العبادة لـه، رفضوه، ثم أخذوا وثنا غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه ورفعوا تلك، فعظموها ونصبوها آلـهة يعبدونها؛ فأمر ﷺ أن يقول لـهم: "لا أعبد ما تعبدون" اليوم من هذه الآلـهة التي بين أيديكم. ثم قال: "ولا أنتم عابدون ما أعبد" أي وإنما أنتم تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن. "ولا أنا عابد ما عبدتم" أي بالأمس من الآلـهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه. ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فإني أعبد إلـهي. وقيل: إن قولـه تعالى: "لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد" في الاستقبال. وقولـه: "ولا أنا عابد ما عبدتم" على نفي العبادة منه لما عبدوا في الماضي. ثم قال: "ولا أنتم عابدون ما أعبد" على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قبل أن التقابل يوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعارا بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر. وأكثر ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل. وقال: "ما أعبد"، ولم يقل: من أعبد؛ ليقابل به "ولا أنا عابد ما عبدتم" وهي أصنام وأوثان، ولا يصلح فيها إلا "ما" دون "من" فحمل الأول على الثاني، ليتقابل الكلام ولا يتنافى. وقد جاءت "ما" لمن يعقل. ومنه قولـهم: سبحان ما سخركن لنا. وقيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم؛ "فما" مصدرية. وكذلك "ولا أنتم عابدون ما أعبد" مصدرية أيضا؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، التي هي توحيد.

قولـه تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾(القصص: ٥٥) أي إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف. وقيل: السورة كلـها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شيء لأنها خبر. ومعنى ﴿لكم دينكم ﴾أي جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمى دينهم دينا، لأنهم اعتقدوه وتولوه. وقيل: المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدين الجزاء. وفتح الياء من ﴿ولي دين ﴾نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن ابن عامر، وحفص عن عاصم. وأثبت الياء في "ديني" في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قولـه تعالى: ﴿فهو يهدين ﴾ (الشعراء: ٧٨) ﴿فاتقوا الله وأطيعون ﴾(آل عمران: ٥٠) ونحوه، اكتفاء بالكسرة، واتباعا لخط المصحف، فإنه وقع فيه بغير ياء.

سورة النصر

وهي مدنية بإجماع. وتسمى سورة "التوديع". وهي ثلاث آيات. وهي آخر سورة نزلت جميعاً، قاله ابن عباس في صحيح مسلم.

قولـه تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾

النصر: العون مأخوذ من قولـهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها، من قحطها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

ويروى:

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزي بلاد تميم وانصري أرض عامر

يقال: نصره على عدوه ينصره نصرا؛ أي أعانه. والاسم النصرة، واستنصره على عدوه: أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضا. ثم قيل: المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش؛ الطبري. وقيل: نصره على من قاتلـه من الكفار؛ فإن عاقبة النصر كانت لـه. وأما الفتح فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: هو فتح المدائن والقصور. وقيل: فتح سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم. و"إذا" بمعنى قد؛ أي قد جاء نصر الله؛ لأن نزولـها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قولـه تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ورأيت الناس ﴾ أي العرب وغيرهم. ﴿ يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ أي جماعات: فوجا بعد فوج. وذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[1]. فكانوا يسلمون أفواجا: أمة أمة. قال الضحاك: والأمة: أربعون رجلا. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يهللون؛ فسر النبي ﷺ بذلك، وبكى عمر وابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: "إذا جاء نصر الله والفتح" وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم، لينة طباعهم، سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجا. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبا، وأرق أفئدة. الفقه يمان، والحكمة يمانية)[2]. وروي أنه ﷺ قال: (إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن) وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفرج؛ لتتابع إسلامهم أفواجا. والثاني: معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا، وسيخرجون منه أفواجا) ذكره الماوردي، ولفظ الثعلبي: وقال أبو عمار حدثني جار لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفرقتهم؛ فجعل يبكي ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا، وسيخرجون من دين الله أفواجا).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٥٢).

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ أي إذا صليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سبح: صل؛ عن ابن عباس: "بحمد ربك" أي حامدا لـه على ما آتاك من الظفر والفتح. "واستغفره" أي سل الله الغفران. وقيل: "فسبح" المراد به: التنزيه؛ أي نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك لـه. "واستغفره" أي سل الله الغفران مع مداومة الذكر. والأول أظهر. روى الأئمة واللفظ للبخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة "إذا جاء نصر الله والفتح" إلا يقول: (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[١] وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي). يتأول القرآن[٢]. وفي غير الصحيح: وقالت أم سلمة: كان النبي ﷺ آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه ـ قال ـ فإني أمرت بها ـ ثم قرأ ـ "إذا جاء نصر الله والفتح" إلى آخرها)[٣]. وقال أبو هريرة: اجتهد النبي بعد نزولـها، حتى تورمت قدماه. ونحل جسمه، وقل تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عكرمة: لم يكن النبي ﷺ قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولـها. وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص، ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس؛ فقال لـه النبي ﷺ: (ما يبكيك يا عم؟) قال: نعيت إليك نفسك. قال: (إنه لكما تقول)؛ فعاش بعدها ستين يوما، ما رئي فيها ضاحكا مستبشرا[٤]. وقيل: نزلت في منى بعد أيام التشريق، في حجة الوداع، فبكى عمر والعباس، فقيل لـهما: إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نعي النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: (صدقتما، نعيت إليّ نفسي)[٥]. وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لـهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثلـه! فقال لـهم عمر: إنه من قد علمتم. قال: فأذن لـهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألـهم عن هذه السورة: "إذا جاء نصر الله والفتح" فقالوا: أمر الله جل وعز نبيّه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه ﷺ حضور أجلـه، فقال: "إذا جاء نصر الله والفتح"، فذلك علامة موتك. "فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا". فقال عمر ﷺ: تلومونني عليه؟[٦] وفي البخاري فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. ورواه الترمذي، قال: كان عمر يسألني مع أصحاب النبي ﷺ، فقال لـه عبد الرحمن بن عوف: أتسألـه ولنا بنون مثلـه؟ فقال لـه عمر: إنه من حيث نعلم. فسألـه عن هذه الآية: "إذا جاء نصر الله والفتح".

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٢) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) ضعيف.
(٤) ضعيف.
(٥) ضعيف.
(٦) أخرجه البخاري (٤٢٩٤).

فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه إياه؛ وقرأ السورة إلى آخرها. فقال له عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم[١]. قال: هذا حديث حسن صحيح. فإن قيل: فماذا يغفر للنبي ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبي ﷺ يقول في دعائه: (رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطئي وعمدي، وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم وأنت المؤخر، إنك على كل شيء قدير)[٢]. فكان ﷺ يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا. ويحتمل أن يكون بمعنى: كن متعلقا به، سائلا راغبا، متضرعا على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ يجب إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبدا. وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار. وقيل: "واستغفره" أي استغفر لأمتك.

قوله تعالى: ﴿ إنه كان توابا ﴾ أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. وإذا كان ﷺ وهو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟ روى مسلم[٣] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه). فقال: (خبّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: "إذا جاء نصر الله والفتح" - فتح مكة - "ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا"). وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع؛ ثم نزلت ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ (المائدة: ٣) فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوما. ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوما. ثم نزل ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (التوبة: ١٢٨) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما. ثم نزل "واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله" فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما. وقال مقاتل سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدم في "البقرة" بيانه، والحمد لله.

---

(١) صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٤).

سورة المسد

وهي مكيّة بإجماع. وهي خمس آيات.

قولـه تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ تبت يدا أبي لـهب ﴾ في الصحيحين وغيرهما (واللفظ لمسلم) عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: (يا بني فلان، يا بني فـلان، يا بني فلان، يا بني عبد منـاف، يا بني عبد المطلب) فاجتمعوا إليه. فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي)؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لـهب: تبا لك، أما جمعتنا إلا لـهذا![1] ثم قام، فنزلت هذه السورة: "تبت يدا أبي لـهب وقد تب" كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة. زاد الحميدي وغيره: فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لشاعرة:

مذمما عصينا وأمـره أبـينا ودينه قـلينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: (ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني). وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مذمما؛ يسبونه، وكان يقول: (ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد)[2]. وقيل: إن سبب نزولـها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لـهب أتى النبي ﷺ فقال: ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد؟ فقال: (كما يُعطى المسلمون) قال ما لي عليهم فضل؟. قال: (وأي شيء تبغي)؟ قال: تبا لـهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء؛ فأنزل الله تعالى فيه: "تبت يدا أبي لـهب وتب"[3]. وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لـهب فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون لـه: أنت أعلم به منا. فيقول لـهم أبو لـهب: إنه كذاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يلقونه. فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمع كلامه. فقال لـهم أبو لـهب: إنا لم نزل نعالجه فتبا لـه وتعسا. فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ تبت يدا أبي لـهب ﴾... السورة. وقيل: إن أبا لـهب أراد أن يرمي النبي ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: "تبت يدا أبي لـهب وتب" للمنع الذي وقع به. ومعنى "تبت": خسرت؛ قالـه قتادة. وقيل: خابت؛ قاله ابن عباس. وقيل ضلت؛ قالـه عطاء. وقيل: هلكت؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٣).

(٣) ضعيف.

قاله ابن جبير. وقال يمان بن رئاب: صفرت من كل خير. حكى الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول:

لقد خلوك وانصرفوا فما آبوا ولا رجعوا

ولم يوفوا بنذرهم فيا تبا لما صنعوا

وخص اليدين بالتباب، لأن العمل أكثر ما يكون بهما؛ أي خسرتا وخسر هو. وقيل: المراد باليدين نفسه. وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿ بما قدمت يداك ﴾ (الحج: ١٠). أي نفسك. وهذا مَهيَع كلام العرب؛ تعبر ببعض الشيء عن كله؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويد الرزايا والمنايا؛ أي أصابه كل ذلك. قال الشاعر:

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مجير

"وتب" قال الفراء: التب الأول: دعاء والثاني خبر؛ كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبي "وقد تب" وأبو لهب اسمه عبد العزى، وهو ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وامرأته العوراء أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما، كان شديد العداوة للنبي ﷺ. قال طارق بن عبد الله المحاربي: إني بسوق ذي المجاز، إذ أنا بإنسان يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت من هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي. وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب. وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سحركم محمد! إن أحدنا ليأكل الجذعة، ويشرب العس من اللبن فلا يشبع، وإن محمدا قد أشبعكم من فخذ شاة، وأرواكم من عس لبن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أبي لهب ﴾ قيل: سمي باللهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظن قوم أن في هذا دليلا على تكنية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كناه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة: الأول: أنه كان اسمه عبد العزى، والعزى: صنم، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم. الثاني: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه؛ فصرح بها. الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بد من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يكن عن أحد منهم. ويدلك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسمى ولا يُكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه، لتقدسه عنها. الرابع: أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أبا لها، تحقيقا للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كنيته. فكان أهله يسمونه أبا لهب، لتلهب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى اللهب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار. ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره. وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن محيصن. "أبي لهب" بإسكان الهاء. ولم يختلفوا في "ذات لهب" أنها مفتوحة؛ لأنهم راعوا فيها رؤوس الآي.

الثالثة: قال ابن عباس: لما خلق الله عز وجل القلم قال له: اكتب ما هو كائن، وكان فيما كتب "تبت يدا أبي لهب". وقال منصور: سئل الحسن عن قوله تعالى: ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾. هل

كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يصلى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألا يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يخلق أبو لهب وأبواه. ويؤيده قول موسى لآدم: (أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، خيبت الناس، وأخرجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلق الله السموات والأرض. قال النبي ﷺ: فحج آدم موسى)[1]. وقد تقدم هذا. وفي حديث همام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى: (بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقني؟ قال: بألفي عام قال: فهل وجدت فيها: "وعصى آدم ربه فغوى" قال: نعم قال: أفتلومني على أمر وكتب الله عليَّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفي عام. فحج آدم موسى). وفي حديث طاووس وابن هرمز والأعرج عن أبي هريرة: (بأربعين عاما).

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾

أي ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد؛ وولد الرجل من كسبه. وقرأ الأعمش "وما اكتسب" ورواه عن ابن مسعود. وقال أبو الطفيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس، فاقتتلوا، فقام ليحجز بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفراش، فغضب ابن عباس وقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث؛ يعني ولده. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه)[2]. خرجه أبو داود. وقال ابن عباس: لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي؛ فنزل: "ما أغنى عنه ماله وما كسب". و"ما" في قوله: "ما أغنى": يجوز أن تكون نفيا، ويجوز أن تكون استفهاما؛ أي أي شيء أغنى عنه؟ و"ما" الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا؛ أي ما أغنى عنه ماله وكسبه.

قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾

أي ذات اشتعال وتلهب. وقد مضى في سورة "المرسلات" القول فيه. وقراءة العامة: "سيصلى" بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم، ورويت عن الحسن. وقرأ أشهب العقيلي وأبو سمال العدوي ومحمد بن السميقع "سيُصلى" بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ ومعناها سيصليه الله؛ من قوله: ﴿ وتصلية جحيم ﴾ (الواقعة: ٩٤). والثانية من الإصلاء؛ أي يصليه الله؛ من قوله: ﴿ فسوف نصليه نارا ﴾ (النساء: ٣٠). والأولى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ (الصافات: ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٥٦٦).

قولـه تعالى: ﴿وامرأته﴾ أم جميل. وقال ابن العربي: العوراء أم قبيح، وكانت عوراء. ﴿حمالة الحطب﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس؛ تقول العرب: فلان يحطب على فلان: إذا ورّش عليه. قال الشاعر:

إن بـني الأدرم حمـالو الحـــطب هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

عليهم اللعنة تترى والحرب

وقال آخر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

يعني: لم تمش بالنمائم، وجعل الحطب رطبا ليدل على التدخين، الذي هو زيادة في الشر. وقال أكثم بن صيفي لبنيه: إياكم والنميمة فإنها نار محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر. أخذه بعض الشعراء فقال:

إن النميـــمة نار ويك محرقة ففر عنها وجانب من تعاطاها

ولذلك قيل: نار الحقد لا تخبو. وثبت عن النبي ﷺ: (لا يدخل الجنة نمام)[1]. وقال: (ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها). وقال عليه الصلاة والسلام: (من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)[2]. وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحط، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات فلم يستسقوا. فقال موسى: (إلـهي عبادك) فأوحى الله إليه: (إني لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم رجلا نماما، قد أصر على النميمة). فقال موسى: (يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا)؟ فقال: (يا موسى أنهاك عن النميمة وأكون نماما) قال: فتابوا بأجمعهم، فسقوا. والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حيث قال الفضيل بن عياض: ثلاث تهد العمل الصالح ويفطرن الصائم، وينقضن الوضوء: الغيبة، والنميمة، والكذب. وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبي قول النبي ﷺ: (لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة، ولا تاجر يربي) فقلت: يا أبا عمرو، قرن النمام بالقاتل وآكل الربا؟ فقال: وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال، وتهيج الأمور العظام، إلا من أجل النميمة.

وقال قتادة وغيره: كانت تعير رسول الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كثرة مالـها تحمل الحطب على ظهرها؛ لشدة بخلـها، فعيرت بالبخل. وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ وأصحابه؛ وقالـه ابن عباس. قال الربيع: فكان النبي ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير. وقال مرة الـهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالـة من الحسك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها. وقال سعيد بن جبير: حمالة الخطايا والذنوب؛ من قولـهم: فلان يحتطب على ظهره؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾(الأنعام: ٣١). وقيل: المعنى

---

(١) أخرجاه في الصحيحين بلفظ: "لا يدخل الجنة قتات".

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢١).

حمالة الحطب في النار؛ وفيه بعد. وقراءة العامة "حمالة" بالرفع، على أن يكون خبرا "وامرأته" مبتدأ. ويكون "في جيدها حبل من مسد" جملة في موضع الحال من المضمر في "حمالة". أو خبرا ثانيا. أو يكون "حمالة الحطب" نعتا لامرأته. والخبر "في جيدها حبل من مسد"؛ فيوقف ـ على هذا ـ على "ذات لهب". ويجوز أن يكون "وامرأته" معطوفة على المضمر في "سيصلى" فلا يوقف على "ذات لهب" ويوقف على "وامرأته" وتكون "حمالة الحطب" خبر ابتداء محذوف. وقرأ عاصم "حمالة الحطب" بالنصب على الذم، كأنها اشتهرت بذلك، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: "حمالة الحطب" بالنصب على الذم، وقرأ أبو قلابة "حاملة الحطب".

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿في جيدها﴾ أي عنقها. وقال امرؤ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

﴿حبل من مسد﴾ أي من ليف؛ قال النابغة:

مقذوفة بدخيس النحض بازلها له صريف صريف القعو بالمسد

وقال آخر:

يا مسد الخوص تعوذ مني إن كنت لدنا لينا فإني
ما شئت من أشمط مقسئن

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومسد أمر من أيانق لسن بأنياب ولا حقائق

وجمع الجيد أجياد، والمسد أمساد. أبو عبيدة: هو حبل يكون من صوف. قال الحسن: هي حبال من شجر تنبت باليمن تسمى المسد، وكانت تفتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تعير النبي ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جل وعز به فأهلكها؛ وهو في الآخرة حبل من نار. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: "في جيدها حبل من مسد" قال: سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ـ وقال مجاهد وعروة بن الزبير: تدخل من فيها، وتخرج من أسفلها، ويلوى سائرها على عنقها. وقال قتادة. "حبل من مسد" قال: قلادة من ودع. الودع: خرز بيض تخرج من البحر، تتفاوت في الصغر والكبر. قال الشاعر:

والحلم حلم صبي يمرث الودعهْ

والجمع: ودعات. الحسن: إنما كان خرزا في عنقها. سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقنَّها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذابا في جيدها يوم القيامة. وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخذلان؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد. والمسد: الفتل. يقال: مسد حبله يمسده مسدا؛ أي أجاد فتله. قال:

يمسد أعلى لحمه ويأرمه

يقول: إن البقل يقوي ظهر هذا الحمار ويشده. ودابة ممسودة الخلق: إذا كانت شديدة الأسر. قال الشاعر:

ومسد أمر من أيانق صهب عتاق ذات مخ زاهق
لسن بأنياب ولا حقائق

ويروى:

ولا ضعاف مخهن زاهق

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مكفأ. يقول: بل مخهن مكتنز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد ولا ضعاف زاهق مخهن. كما لا يجوز أن تقول: مررت برجل أبوه قائم؛ بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب كأنه قال: ولا ضعاف مخهن، ثم رد الزاهق على الضعاف. ورجل ممسود: أي مجدول الخلق. وجارية حسنة المسد والعصب والجدل والأرم؛ وهي ممسودة ومعصوبة ومجدولة ومأرومة. والمساد، على فعال: لغة في المساب، وهي نحى السمن، وسقاء العسل. قال جميعه الجوهري. وقد اعترض فقيل: إن كان ذلك حبلها الذي تحتطب به، فكيف يبقى في النار؟ وأجيب عنه بأن الله عز وجل قادر على تجديده كلما احترق. والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما. ففيه معجزة للنبي ﷺ.
فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن شجته أم الفضل. وذلك أنه لما قدم الحيسمان مكة يخبر خبر بدر؛ قال له أبو لهب: أخبرني خبر الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لمست الناس. لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا والله ما تبقي منا؛ يقول: ما تبقي شيئا. قال أبو رافع: وكنت غلاما للعباس أنحت الأقداح في صفة زمزم، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، فرفعت طنب الحجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضربة منكرة، وثاورته، وكنت رجلا ضعيفا، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبرك على صدري يضربني. وتقدمت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فتأخذه وتقول: استضعفتَه أن غاب عنه سيده! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلقه شجة منكرة. فقام يجر رجليه ذليلا، ورماه الله بالعدسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غسلوه بالماء، قذفا من بعيد، مخافة عدوى العدسة. وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رضموا عليه الحجارة.

سورة الإخلاص

مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وهي أربع آيات .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أي الواحد الوتر، الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك. وأصل "أحد" : وحد؛ قلبت الواو همزة. ومنه قول النابغة:

بذي الجليل على مستأنس وحد

وقد تقدم في سورة "البقرة" الفرق بين واحد وأحد، وفي كتاب "الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى" أيضا مستوفى. والحمد لله. و"أحد" مرفوع، على معنى: هو أحد. وقيل: المعنى: قل: الأمر والشأن: الله أحد. وقيل: "أحد" بدل من قوله: "الله" . وقرأ جماعة "أحد الله" بلا تنوين، طلبا للخفة، وفرارا من التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر:

ولا ذاكر الله إلا قليلا

﴿ الله الصمد ﴾ أي الذي يصمد إليه في الحاجات. كذا روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الذي يصمد إليه في الحاجات؛ كما قال عز وجل: ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (النحل: ٥٣). قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يصمد إليه في النوازل والحوائج. قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال قوم: الصمد: الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: تفسيره ما بعده "لم يلد ولم يولد" . قال أبي بن كعب: الصمد: الذي لا يلد ولا يولد؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يورث. وقال علي وابن عباس أيضا وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان: الصمد: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده في أنواع الشرف والسؤدد؛ ومنه قول الشاعر:

علوته بحسام ثم قلت له   خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقال السدي: إنه: المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب. وقال الحسين بن الفضل: إنه: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مقاتل: إنه: الكامل الذي لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرقان:

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا   ولا رهينة إلا سيد صمد

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير: الصمد: المصمت الذي لا جوف له؛ قال الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده   عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبينة في الصمد، في (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأول، ذكره الخطابي. وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ "الله الواحد الصمد" في الصلاة، والناس يستمعون، فأسقط: "قل هو" ، وزعم أنه ليس من القرآن. وغير لفظ "أحد" ، وادعى أن هذا الصواب، والذي عليه الناس

هو الباطل والمحال، فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك، أمن ذهب هو أم من نحاس أم من صفر؟ فقال الله عز وجل ردا عليهم: "قل هو الله أحد" ففي "هو" دلالة على موضع الرد، ومكان الجواب؛ فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله ﷺ.

وروى الترمذي عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل: "قل هو الله أحد. الله الصمد". والصمد: الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء. وروي عن أبي العالية: إن النبي ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انسب لنا ربك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة "قل هو الله أحد"، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا صحيح؛ قاله الترمذي.

قلت: ففي هذا الحديث إثبات لفظ "قل هو الله أحد" وتفسير الصمد، وقد تقدم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عباس: "لم يلد" كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عزير ابن الله.

قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ أي لم يكن له مثلا أحد. وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفوا أحد؛ فقدم خبر كان على اسمها، لينساق أواخر الآي على نظم واحد. وقرئ "كفوا" بضم الفاء وسكونها، وقد تقدم في "البقرة" أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان؛ إلا قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ (الزخرف: ١٥) لعلة تقدمت. وقرأ حفص "كفوا" مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رجلا سمع رجلا يقرأ "قل هو الله أحد" يرددها؛ فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالّها؛ فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[1]. وعنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة) فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: (الله الواحد الصمد ثلث القرآن) خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه[2]. وخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن)، فحشد من حشد؛ ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ "قل هو الله أحد" ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبرا جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: (إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن)[3] قال بعض العلماء: إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو "الصمد"، فإنه لا يوجد في غيرها من السور. وكذلك "أحد". وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثا، ثلثا منه أحكام، وثلثا منه وعد ووعيد، وثلثا منه أسماء وصفات، وقد جمعت "قل هو الله أحد" أحد الأثلاث، وهو الأسماء والصفات. ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم، من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ، قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣).
(٢) أخرجه مسلم بنحوه (٨١١).
(٣) أخرجه مسلم (٨١٢).

(إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل "قل هو الله أحد" جزءا من أجزاء القرآن)[1]. وهذا نص؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ"قل هو الله أحد"؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك)؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: (أخبروه أن الله عز وجل يحبه)[2]. وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بـ"قل هو الله أحد"؛ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: (يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة)؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله ﷺ: (إن حبها أدخلك الجنة)[3]. قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ابن العربي: فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراك؛ فيقرأ في كل ركعة "الحمد لله" و"قل هو الله أحد" حتى يتم التراويح؛ تخفيفا عليه، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان.

قلت: هذا نص قول مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

الثالثة: روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلا يقرأ "قل هو الله أحد"؛ فقال رسول الله ﷺ: (وجبت). قلت: وما وجبت؟ قال: (الجنة). قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الترمذي: حدثنا محمد بن مرزوق البصري قال حدثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، محي عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين)[4]. وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال (من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ "قل هو الله أحد" مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول الرب: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة)[5]. قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارمي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ "قل هو الله أحد" خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة)[6] قال: وحدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا حيوة قال: أخبرني أبو عقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبي الله ﷺ قال: (من قرأ "قل هو الله أحد" عشر مرات بني له قصر في الجنة. ومن قرأها عشرين مرة بني له بها قصران في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة بني

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٣).

(٣) صحيح أخرجه الترمذي (٢٩٠١).

(٤) "ضعيف"، انظر ضعيف الجامع (٥٧٨٣).

(٥) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٣٨٩).

(٦) ضعيف.

لـه بها ثلاثة قصور في الجنة). فقال عمر بن الخطاب: والله يا رسول الله إذاً لنكثرن قصورنا؛ فقال رسول الله ﷺ: (الله أوسع من ذلك)[١] قال أبو محمد: أبو عقيل زهرة بن معبد، وزعموا أنه كان من الأبدال. وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه، لم يفتن في قبره. وأمن من ضغطة القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة)[٢]. قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البجلي.

وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال: سمعت مالك ابن أنس يقول: إذا نقس بالناقوس اشتد غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون "قل هو الله أحد" حتى يسكن غضبه جل وعز. وخرج من حديث محمد بن خالد الجندي عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من دخل يوم الجمعة المسجد، فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب و"قل هو الله أحد" خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات، لم يمت حتى يرى منزلـه في الجنة أو يرى لـه)[٣]. وقال أبو عمر مولى جرير بن عبد الله البجلي، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ "قل هو الله أحد" حين يدخل منزلـه، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران). [٤] وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ "قل هو الله أحد" مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهلـه، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة بني الله لـه اثني عشر قصرا في الجنة، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى لـه)[٥]. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفقر وضيق المعيشة؛ فقال لـه رسول الله ﷺ: (إذا دخلت البيت فسلم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم علي، واقرأ "قل هو الله أحد" مرة واحدة) ففعل الرجل فأدر الله عليه الرزق، حتى أفاض على جيرانه[٦]. وقال أنس: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك، فطلعت الشمس بيضاء لـها شعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك، فأتى جبريل، فقال لرسول الله ﷺ: (يا جبريل، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط)؟ فقال: (ذلك لأن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه). قال (ومم ذلك)؟ قال: (كان يكثر قراءة "قل هو الله أحد" آناء الليل وآناء النهار، وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض. فتصلي عليه)؟ قال نعم فصلى عليه، ثم رجع[٧]. ذكره الثعلبي، والله أعلم.

---

(١) "ضعيف" بلفظ: "من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشرين مرة بنى الله له قصراً في الجنة" كما في ضعيف الجامع (٥٧٧٩)، وقد صحت الجملة الأولى منه كما في صحيح الجامع (٦٤٧٢).

(٢) ضعيف.

(٣) ضعيف.

(٤) ضعيف.

(٥) ضعيف.

(٦) ضعيف.

(٧) ضعيف. أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (٤/ ٥٠).

سورة الفلق

مقدمة السورة:

وهي مكيّة، في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وهي خمس آيات.

وهذه السورة وسورة "الناس" و"الإخلاص": تعوذ بهن رسول الله ﷺ حين سحرته اليهود؛ على ما يأتي. وقيل: إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقشتان؛ أي تبرئان من النفاق. وقد تقدم. وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت. قال ابن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ بهما، فقدر أنهما بمنزلة: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. قال أبو بكر الأنباري: وهذا مردود على ابن قتيبة؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين، المعجز لجميع المخلوقين؛ و"أعيذكما بكلمات الله التامة" من قول البشر بيِّن. وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وحجة له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناس الكلام، وأفانين القول. وقال بعض الناس: لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في حفظه وإتقانه لها. فرد هذا القول على قائله، واحتج عليه بأنه قد كتب: "إذا جاء نصر الله والفتح"، و"إنا أعطيناك الكوثر"، و"قل هو الله أحد" وهن يجرين مجرى المعوذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، ونسيانهن مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها. وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف، على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يسلك به طريقها. وقد مضى هذا المعنى في سورة "الفاتحة". والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ **فيه تسع مسائل:**

الأولى: روى النسائي عن عقبة بن عامر، قال: أتيت النبي ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني سورة (هود) أقرئني سورة يوسف. فقال لي: (ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من "قل أعوذ برب الفلق")[(١)]. وعنه قال: بينا أنا أسير مع النبي ﷺ بين الجحفة والأبواء، إذ غشتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بـ"أعوذ برب الفلق"، و"أعوذ برب الناس"، ويقول: (يا عقبة، تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما). قال: وسمعته يقرأ بهما في الصلاة[(٢)]. وروى النسائي عن عبد الله قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يخرج. ثم ذكر كلاما معناه:

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٢١٧).

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٩٤٩).

فخرج رسول الله ﷺ ليصلي بنا، فقال: قل. فقلت: ما أقول؟ قال: (قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثا، يكفك كل شيء)[١] وعن عقبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: (قل). قلت: ما أقول؟ قال قل: (قل هو الله أحد. قل أعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب الناس - فقرأهن رسول الله ﷺ، ثم قال: لم يتعوذ الناس بمثلهن، أو لا يتعوذ الناس بمثلهن)[٢]. وفي حديث ابن عباس "قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، هاتين السورتين". وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، كلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاء بركتها[٣]. النفث: النفخ ليس معه ريق.

الثانية: ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ سحره يهودي من يهود بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث - في غير الصحيح: سنة - ثم قال: (يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: ما شأن الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم. قال في ماذا؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذي أوران) فجاء البئر واستخرجه[٤]. انتهى الصحيح.

وقال ابن عباس: (أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي). ثم بعث عليا والزبير وعمار ابن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة - صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح، وأخرجوا الجف، فإذا مشاطة رأس إنسان، وأسنان من مشط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد، وأمر أن يتعوذ بهما؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبي ﷺ خفة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أنشط من عقال، وقال: ليس به بأس. وجعل جبريل يرقي رسول الله ﷺ فيقول: (باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك). فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتل الخبيث. فقال: (أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شرا)[٥]. وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصحاح: أن غلاما من اليهود كان يخدم النبي ﷺ، فدست إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ. والمشاطة بضم الميم: ما يسقط من الشعر عند المشط. وأخذ عدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي. وذكر نحو ما تقدم عن ابن عباس.

الثالثة: وقد تقدم في "البقرة" القول في السحر وحقيقته، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر؛ فلا معنى لإعادته.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٤٤٠٦).

(٢) صحيح.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٦٥).

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ الفلق﴾ اختلف فيه؛ فقيل: سجن في جهنم؛ قالـه ابن عباس. وقال أبي ابن كعب: بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من حره. وقال الحبلي أبو عبد الرحمن: هو اسم من أسماء جهنم. وقال الكلبي: واد في جهنم. وقال عبد الله بن عمر: شجرة في النار. سعيد بن جبير: جب في النار. النحاس: يقال لما اطمأن من الأرض فلق؛ فعلى هذا يصح هذا القول. وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضا ومجاهد وقتادة والقرظي وابن زيد: الفلق، الصبح. وقاله ابن عباس. تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح وفرق الصبح. وقال الشاعر:

يا ليلـة لـم أنمها بـت مرتفـقا أرعى النجوم إلى أن نور الفلق

وقيل: الفلق: الجبال والصخور تنفرد بالمياه؛ أي تتشقق. وقيل: هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل. قال زهير:

مـا زلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم من راكس فلقا

الراكس: بطن الوادي. وكذلك هو في قول النابغة:

أتاني ودوني راكس فالضواجع

والراكس أيضا: الـهادي، وهو الثور وسط البيدر، تدور عليه الثيران في الدياسة. وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان. وقيل: إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحب والنوى، وكل شيء من نبات وغيره؛ قالـه الحسن وغيره. قال الضحاك: الفلق الخلق كلـه؛ قال:

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق سـرا وقـد أون تأويـن العقق

قلت: هذا القول يشهد لـه الاشتقاق؛ فإن الفلق الشق. فلقت الشيء فلقا أي شققته. والتفليق مثلـه. يقال: فلقته فانفلق وتفلق. فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق؛ قال الله تعالـى: ﴿ فالق الإصباح ﴾ (الأنعام: ٩٦) قال: ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ (الأنعـام: ٩٥). وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشي:

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق هاديه في أخريات الليل منتصب

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق أيضا: المطمئن من الأرض بين الربوتين، وجمعه: فلقان؛ مثل خلق وخلقان، وربما قال: كان ذلك بفالق كذا وكذا؛ يريدون المكان المنحدر بين الربوتين، والفلق أيضا مقطرة السجان. فأما الفلق (بالكسر): فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجل وافتلق. وشاعر مفلق، وقد جاء بالفلق (أي بالداهية). والفلق أيضا: القضيـب يشق باثنين، فيعمل منه قوسان، يقال لكل واحدة منهما فلق، وقولـهم: جاء بعلق فلق؛ وهي الداهية؛ لا يجرى (مجرى عمر). يقال منه: أعلقت وأفلقت؛ أي جئت بعلق فلق. ومر يفتلق في عدوه؛ أي يأتي بالعجب من شدته.

قولـه تعالى: ﴿ من شر ما خلق ﴾ قيل: هو إبليس وذريته. وقيل جهنم. وقيل: هو عام؛ أي من شر كل ذي شر خلقه الله عز وجل.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ اختلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغسـق: أول ظلمة الليل؛ يقال منه: غسق الليل يغسق أي أظلم. قال ابن قيس الرقيات:

إن هـــذا الليل قد غـسقا   واشتكيت الـهم والأرقا

وقال آخر:

يا طيف هند لقد أبقيت لي أرقا   إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم. و"وقب" على هذا التفسير: أظلم؛ قالـه ابن عباس. والضحاك: دخل. قتادة: ذهب. يمان بن رئاب: سكن. وقيل: نزل؛ يقال: وقب العذاب على الكافرين؛ نزل. قال الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكأنهم   لحقتهم نار السموم فأحصدوا

وقال الزجاج: قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار. والغاسق: البارد. والغسق: البرد؛ ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والـهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد. وقيل: الغاسق: الثريا؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وقيل: هو الشمس إذا غربت؛ قالـه ابن شهاب. وقيل: هو القمر. قال القتبي: "إذا وقب" القمر: إذا دخل في ساهوره، وهو كالغلاف لـه، وذلك إذا خسف به. وكل شيء أسود فهو غسق. وقال قتادة: "إذا وقب" إذا غاب. وهو أصح؛ لأن في الترمذي عن عائشة: أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: (يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب)[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر. وأنشد:

أراحـني الله من أشياء أكرهها   منها العجوز ومنها الكلب والقمر
هـذا يبـوح وهذا يستضاء به   وهـــذه ضـمرز قوامة السـحر

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وكأن الغاسق نابها؛ لأن السم يغسق منه؛ أي يسيل. ووقب نابها: إذا دخل في اللديغ. وقيل: الغاسق: كل هاجم يضر، كائنا ما كان؛ من قولـهم: غسقت القرحة: إذا جرى صديدها.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. شبه النفخ كما يعمل من يرقي. قال الشاعر:

أعوذ بربي من النافثات   في عضه العاضه المعضه

وقال متمم بن نويرة:

نفثت في الخيط شبيه الرقى   من خشية الجنة والحاسـد

وقال عنترة:

فـإن يبرأ فلـم أنفث عليه   وإن يفقد فحق لـه الفقود

السابعة: وروى النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه)[2]. واختلف في النفث عند الرقى فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث، ولا يمسح ولا يعقد. قال إبراهيم:

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٩١٦).
(٢) ضعيف انظر ضعيف الجامع (٥٧٠٢).

كانوا يكرهون النفث في الرقى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجع، فقلت: ألا أعوذك يا أبا محمد؟ قال: لا شيء من ذلك ولكن لا تنفث؛ فعوذته بالمعوذتين. وقال ابن جريج قلت لعطاء: القرآن ينفخ به أو ينفث؟ قال: لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: انفث إن شئت. وسئل محمد بن سيرين عن الرقية ينفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأسا، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة. روت عائشة أن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أول السورة وفي "الإسراء". وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبي ﷺ، فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه. وقال محمد بن الأشعث: ذهب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء، فرقتني ونفثت.

وأما ما روي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفث، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عوذة. وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العقد إذا كان مذموما لم يجب أن يكون النفث بلا عقد مذموما. ولأن النفث في العقد إنما أريد به السحر المضر بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بما يضر. وأما كراهة عكرمة المسح فخلاف السنة. قال علي ﷺ: اشتكيت، فدخل عليّ النبي ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخرا فاشفني وعافني، وإن كان بلاء فصبرني. فقال النبي ﷺ (كيف قلت)؟ فقلت له: فمسحني بيده، ثم قال: (اللهم اشفه) فما عاد ذلك الوجع بعد. وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب "من شر النافثات" في وزن (فاعلات). ورويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. وروي أن نساء سحرن النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية. قال ابن زيد: كن من اليهود؛ يعني السواحر المذكورات. وقيل: هن بنات لبيد بن الأعصم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قد تقدم في سورة "النساء" معنى الحسد، وأنه تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها. والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل. فالحسد شر مذموم. والمنافسة مباحة وهي الغبطة. وقد روي أن النبي ﷺ قال: (المؤمن يغبط، والمنافق يحسد). وفي الصحيحين: (لا حسد إلا في اثنتين) يريد لا غبطة. وقد مضى في سورة "النساء" والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا اذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه، ويطلب عثراته. قال ﷺ: (إذا حسدت فلا تبغ..)(1) الحديث. وقد تقدم. والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل. والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تنفس طعنة   يا ظالمـا وكأنـه مظلـوم

التاسعة: هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيّه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور. فقال: "من شر ما خلق". وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيها على عظمه، وكثرة ضرره.

---

(١) ضعيف جداً بلفظ: "إذا حسدتم فلا تبغوا..." كما في ضعيف الجامع (٤٦٥).

والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ وثالثها: أنه ضاد فعل الله، أي إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله . ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها: أنه أعان عدوه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال في الآخرة إلا حزنا واحتراقا، ولا ينال من الله إلا بعدا ومقتا. وروي أن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين). والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة الناس

مقدمة السورة:

مثل "الفلق" لأنها إحدى المعوذتين. وروى الترمذي عن عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ: (لقد أنزل الله عليّ آيات لم ير مثلهن: "قل أعوذ برب الناس" إلى آخر السورة "وقل أعوذ برب الفلق" إلى آخر السورة). وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه مسلم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ أي مالكهم ومصلح أمورهم. وإنما ذكر أنه رب الناس، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين: أحدهما: لأن الناس معظمون؛ فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا. الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم. وإنما قال: ﴿ ملك الناس إله الناس ﴾ لأن في الناس ملوكا يذكر أنه ملكهم. وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾

يعني: من شر الشيطان. والمعنى: من شر ذي الوسواس؛ فحذف المضاف؛ قال الفراء: وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم؛ أي الموسوس. و(بكسر الواو) المصدر؛ يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسوسة (بكسر الواو). ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي: وسواس. وقال ذو الرمة:

فبات يشئزه ثأد ويسهره   تذؤب الريح والوسواس والهضب

وقال الأعشى:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل

وقيل: إن الوسواس الخناس ابن لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكفليه. فجاء آدم عليه السلام فقال: ما هذا (يا حواء) قالت: جاء عدونا بهذا وقال لي: اكفليه. فقال: ألم أقل لك لا تطيعيه في شيء، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع، وعلق كل ربع على شجرة، غيظا له؛ فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم عليه السلام فقال: يا خناس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفليه؛ فجاء آدم عليه السلام فحرقه بالنار، وذر رماده في البحر؛ فجاء إبليس (عليه اللعنة) فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدم إياه؛ فذهب إلى البحر، فقال: يا خناس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفليه. فنظر؛ إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعا. فجاء إبليس فسألها فأخبرته (حواء). فقال: يا خناس، فحيي فأجابه (فجاء به) من جوف آدم وحواء. فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب آدم ما دام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس[1]. ذكر هذا الخبر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم.

---

(١) لا يصح.

ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ (التكوير: ١٥) يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يخنس إذا ذكر العبد الله؛ أي يتأخر. وفي الخبر (إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس) أي تأخر وأقصر. وقال قتادة: "الخناس" الشيطان لـه خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان وسوس لـه، وإذا ذكر العبد ربه خنس. يقال: خنسته فخنس؛ أي أخرته فتأخر. وأخنسته أيضا. ومنه قول أبي العلاء الحضرمي ـ أنشد رسول الله ﷺ:

وإن دحسوا بالشر فاعف تكرما وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

الدحس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس)[١]. وقال ابن عباس: إذا ذكر الله العبد خنس من قلبه فذهب، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه. وقال إبراهيم التيمي: أول ما يبدو الوسواس من قبل الوضوء. وقيل: سمي خناسا لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله. والخنس: الرجوع. وقال الراجز:

وصاحب يمتعس امتعاسا يـــزداد إن حييته خناسا

وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿ الوسواس الخناس ﴾ وجهين: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سلطه الله على ذلك؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[٢]. وهذا يصحح ما قالـه مقاتل.

وروى شهر بن حوشب عن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن لـه خطما كخطم الكلب، فإذا ذكر الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصف أبو ثعلبة، أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة.

وروي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبر سنه ـ: ما أمنت الزنى، وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل.

ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت.

قولـه تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

أخبر أن الموسوس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس

---

(١) "ضعيف" ضعيف الجامع (١٤٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٤).

شياطين؛ فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. وروي عن أبي ذر أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقولـه تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن ﴾ (الأنعام: ١١٢). . الآية. وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن. سموا ناسا كما سموا رجالاً في قولـه: ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ (الجن: ٦) ـ وقوما ونفرا. فعلى هذا يكون "والناس" عطفا على "الجنة"، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين. وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث: جاء قوم من الجن فوقفوا. فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن. وهو معنى قول الفراء. وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقولـه: "من الجنة" بيان أنه من الجن "والناس" معطوف على الوسواس. والمعنى: قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس، الذي هو من الجنة، ومن شر الناس. فعلى هذا أمر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن. والجنة: جمع جني؛ كما يقال: إنس وإنسي. والـهاء لتأنيث الجماعة. وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون "في صدور الناس" عاما في الجميع. و"من الجنة والناس" بيان لما يوسوس في صدره. وقيل: معنى "من شر الوسواس" أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديث النفس. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به). رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم[1]. فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك.

(انتهى الكتاب).

(انتهى الكتاب بحمد الله. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. ربنا عاملنا بلطفك ورحمتك ما أبقيتنا، وتعطف علينا في عرصات الآخرة يا خير مأمول، وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه، آمين).

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (٦٦٦٤).

المجلد العاشر